دلالة الألفاظ

دكتور إبراهيم أنيس

١٩٧٦

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية

دلالة الألفاظ

تأليف

دكتور ابراهيم أنيس

الطبعة الثالثة

١٩٧٦

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

حين فكرت فى إعادة طبع هذا الكتاب لم أجد ما أصدّر به هذه الطبعة خيراً من التنويه بما لقيه الكتاب من تقدير فى الأوساط العلمية ، فقد حاز جائزه الدولة التشجيعية للأدب عام ١٩٥٨ .

المؤلف

مقدمة

عرض أهل الفلسفة والمنطق فى بحوثهم إلى دراسة الألفاظ ودلالتها ، وصادفوا فى شأنها بعض العنت والمشقة حين حاولوا أن يصبّوا تأملاتهم وخواطرهم فى ألفاظ محددة للدلالة ، فصالوا وجالوا بين الجزئى والكلى ، والمفهوم والماصدق ، وعقدوا الفصول الطوال فى التعريف وحدوده ، ومحاولة جعله جامعاً مانعاً كما يعبرون . ثم لم تسعفهم دائماً اللغات ، وقصرت دلالة بعضها عن تحقيق ما يجول فى أذهان هؤلاء الفلاسفة . وكأنى بهم وقد تمنوا لو اصطنعوا الرموز فى بحوثهم بدلا من تلك الألفاظ المألوفة الشائعة ليتجنبوا ما يثور بينهم فى كثير من الأحيان من جدل ونقاش حول حدود كلمة من الكلمات ، أو دلالة لفظ من الألفاظ ، وغير ذلك مما حمل الداعين إلى المؤتمر العالمى للغويين فى كمبردج سنة ١٩٥١ على أن يضعوا فى بروجرام المؤتمر العنصر التالى للبحث والدراسة :

« موقف اللغة من الفلسفة والمنطق ، رجاء الاهتداء إلى نظام منطقى يستقل فى تكونه عن النظام النحوى فى اللغات ، ورجاء الوصول إلى الأسس التى عليها يمكن أن تحدد وأن تعرف أجزاء الكلام » .

وقد تجنب بعض الباحثين الاعتماد على ألفاظ اللغة فى علاجهم للنظام المنطقى فى اللغة ، واصطنعوا من أجل هذا رموزاً وإشارات أشبه برموز الرياضيين ومصطلحاتهم ، حتى لا تكون آراؤهم متأثرة بما فى دلالة الألفاظ من قصور ، وما يكتنفها فى كثير من الأحيان من ظلال المعانى التى تختلف باختلاف الناس(1) .

---

(1) Carnap, Rudolf :
The Logical Syntax of language .

وكان أهل الرياضة من العرب القدماء يتخذون الألفاظ للتعبير عن معادلاتهم الرياضية ، كالخوارزمى أحد علماء العرب فى القرن الثالث الهجرى — فقد عثر له على مخطوط بعنوان « الجبر والمقابلة » ونشر المخطوط وعلق عليه منذ سنوات عالمان جليلان من علماء الرياضة فى مصر[1] .

ويتضح من هذا الكتاب أن الخوارزمى كان يستعين فى تصنيف معادلاته الجبرية بالألفاظ ، فكان يطلق على الرمز الجبرى « س » كلمة « الشيء » ، ويسمى «س^{٢}» بكلمة « المال » ، ويسمى العدد الخالى من مجهول جبرى بالعدد المفرد أو المطلق .

ثم هجر الرياضيون ألفاظ اللغات ، وقنعوا برموزهم المشهورة تخلصاً من أى احتمال لسوء الفهم أو اضطرابه تبعاً لاختلاف الدارسين فى حدود الدلالة للألفاظ ، بل اختلاف الألفاظ باختلاف اللغات فى العالم . ولذا أصبحت رموزهم ومصطلحاتهم بمثابة اللغة العالمية ، فلا يصيبها الغموض أو الإبهام ، وليست بينهم موضع الجدل أو النقاش .

وكذلك يعرض أصحاب علم النفس إلى دراسة الألفاظ ودلالاتها ، فيذهبون فيها مذاهب ، ويؤلفون حولها آراء ونظريات ، تتصل بالشعور وشبه الشعور واللاشعور ، وبالذاكرة والتصور والتخيل وتداعى المعانى ، وغير ذلك من بحوث مستفيضة فى كتبهم ورسائلهم .

فالألفاظ لاتصالها الوثيق بالتفكير كانت ولا زالت مجالا هاماً للدراسة الفلسفية ، وهى لصلتها بالعقل والعاطفة يتناولها أصحاب علم النفس ، ولكنها قبل هذا وذاك عنصر من عناصر اللغة ، ولذا يعرض لها اللغويون أيضاً فى بحوثهم ، ويتناولونها من زاويتهم الخاصة ، وإن كانت دراسات كل هؤلاء من

---

(١) الدكتوران على مشرفة ، محمد مرسى .

أهل العلم تتشابك حدودها ، وتتقارب فى بعض نواحيها حين تعرض للألفاظ ودلالة الألفاظ .

ونحن فى كتابنا هذا نسلك مسلك اللغويين فى بحث الدلالات ، ونعالجها كما يعالج اللغوى الحديث ذلك الفرع من الدراسات اللغوية المسمى لدى الأوربيين Semantics ، وتلك دراسة حديثاً المولد نسبياً بدأها « بريل Bréal » فى أواخر القرن التاسع عشر فى رسالته التى سماها Essai de Sémantique وفيها عنى ببحث الدلالة فى بعض ألفاظ اللغات القديمة التى تنتمى إلى الفصيلة الهندية — الأوربية، كاليونانية واللاتينية والسنسكريتية ، وخلص من بحثه إلى نتائج هامة ، وقواعد عامة فى حدود الدلالة وتطورها .

غير أن دراسة اللغويين للدلالة فى بادىء الأمر قد اقتصرت على الناحية التاريخية الاشتقاقية للألفاظ ، كأن تقارن الكلمة بنظائرها فى الصورة والمعنى حتى يتسنى إرجاعها إلى أصل معين تفرع إلى عدة فروع فى لغة واحدة أو أكثر من لغة ، ولم تتجه عناية الدارسين حينئذ إلى الجانب الاجتماعى وأثره فى تطور الدلالات والصور ، ولا إلى المظاهر الإنسانية الأخرى ذات الأثر البين فى تغيرها وانحرافها ، أى أنهم عنوا بالعناصر الداخلية فى الألفاظ ولم يفطنوا إلى العوامل الخارجة عنها .

ثم تطورت دراسة الـ Semantics فى السنين الأخيرة ، وبدأ الدارسون يتجهون إلى العوامل الخارجية ذات الأثر فى الألفاظ من إنسانية واجتماعية ، وأخذوا يتساءلون عن الأسباب التى جعلت بعض الكلمات تنكمش فى دلالتها، وأخرى تنحدر بعد سموها . وأرجعوا كل هذا إلى عوامل ودوافع مرت فى تاريخ الأمم ، وأدت إلى مثل ذلك التطور والتغير .

ومن الدارسين المحدثين فريق عنوا كل العناية بالنفس الإنسانية وبالعاطفة ، ورأوا أن العاطفة قد تظلل بعض الألفاظ بظلال خاصة حين يستعملها الفرد ،وأن

هذه الظلال تختلف باختلاف الناس وتجاربهم فى الحياة . ثم تبين لهم أن الاستعمال الفردى الشخصى قد يصادف هوى فى نفوس جماعة من المستمعين ،فيقلدونه ويذيع بينهم ، ويترتب على ذيوعه وشيوعه نوع من التطور فى الدلالة .

ولعل أحدث المحاولات فى دراسة الدلالة أن يعمد الدارس إلى مجموعة من الألفاظ التى تنتمى إلى مجال واحد ، ثم يتوفر على دراستها ليتبين منها تلك التى نمت دلالتها ، وتلك التى انكمشت فيها تلك الدلالة أو اختفت بمرور الأيام .وخير مثل لهذا تلك المحاولة التى قام بها أحد العلماء الألمان فى بحث ألفاظ الذكاء التى وردت فى نصوص القرون الوسطى للغة الألمانية . وكذلك المحاولة التى عنى فيها أحد الباحثين بدراسة الكلمات المتصلة بالأخلاق والفضيلة فى شعر « تشوسر » . وفى رأى هؤلاء الدارسين أن مثل تلك المحاولات أجدى وأنفع من دراسة الكلمات منفردة منعزلة عن مجالها وعن عصرها[1] .

ولما كان العام ١٩٢٣ ظهر كتاب The Meaning of Meaning لمؤلفيه Ogden و Richard ، وفيه يعالج المؤلفان مشاكل الدلالة من نواحيها المتعددة المعقدة ، ويبحثانها فى ضوء النظم الاجتماعية وفى ضوء علم النفس من شعور وعاطفة ، مما جعل لكتابهما قيمة علمية جليلة الشأن بين الدارسين لدلالة الألفاظ.

ولم يكد ينتهى النصف الأول من القرن العشرين حتى شهدنا قوما من غير اللغويين يقتحمون مجال البحث الدلالى ، وفيه يدلون بدلوهم متأثرين فى ذلك بما احترفوه من مهن ، أو تخصصوا فيه من دراسة .

فعالم الطبيعة « بردجمان » Bridgeman [2] يحدثنا أنه وأمثاله من علماء

---

(1) The Gift of Tongues. p. 127.
(2) The intelligent individual and Society.

الطبيعة يقفون أمام كلمات مثل « الزمان ، المكان ، الصوت » موقفاً مباينا لما يشيع بين جمهور الناس، ويفهمونها فهماً خاصاً ، ومن رأى هذا الباحث أن الدلالة يجب أن تخضع للتجربة كما تخضع لها الظواهر الطبيعية فى المعامل! ؟ فإذا لم تخضع إحدى الدلالات للتجربة وجب اعتبار كلماتها مما لا معنى له ! ! فكلمات مثل الديكتاتورية ، الديمقراطية ،والحرية ، إذا لم يبرهن على وجودها عن طريق التجربة عدت عبثاً وهراء ووجب إهمالها !!

كذلك اصطبغت دراسة « ثورمان أرنولد » Thurman Arnold[1] بعمله كرجل من رجال القانون حيث يحدثنا عن سيطرة الألفاظ علينا وخضوعنا لها خضوعا يشبه الرق والعبودية ، ثم أيأسنا من علاج هذه الحال ، ولم يجد لنا مخرجا منها إلا بدواء مؤقت يمكن أن نستمده من تحديد الدلالات .

أما أولئك الصحفيون من هواة البحث اللغوى[2] فقد نزلوا بالبحث الدلالى إلى مستوى جمهور الناس ، وأوحوا إليهم بآمال كبار عن طريق البحث فى الدلالة؛ لأنه فى رأيهم سيؤدى إلى تجنب ما يصيب الإنسانية من ويلات ، وإلى علاج متاعب البشر من منازعات أو خصومات أو حروب ! ! وهم فى علاجهم متأثرون بجوهم الصحفى وما فيه من إسراف فى عرض المسائل . ولذا كانت كتاباتهم أشبه بمحاولات الهواة منها ببحوث العلماء المتخصصين ، وتبدو مغالاة هؤلاء الهواة من الصحفيين حين يؤكدون لنا فى حديث مسهب أن سر التعاسة بين بنى الإنسان فى هذه الدنيا يعزى أولا وقبل كل شىء إلى تباين الناس فى دلالة الألفاظ واختلاف فهمهم لها ، وافتقاد الأسس والمقاييس المشتركة فى أذهانهم نحو تلك الدلالة ، مما أدى إلى الجدل والنقاش حيناً ، والنزاع والشجار حيناً آخر ، فى تعاملهم بعضهم مع بعض ، ومما ترتب عليه أن المرء فى بيئة معينة لا يكاد

---

(1) The folklore of Capitalism

(2) Science and Sanity, by Korzybski; & Tyranny of Words, by Stuart Ghase

يفهم أخاه من نفس البيئة . وهم فى إسرافهم ومغالاتهم يتصورون أن الناس فى معاملاتهم يقنعون عادة بنوع من الفهم التقريبى ، ويتعرضون لسوء الفهم فى كثير من الأحيان . ويرون أن لاسبيل إلى خير الإنسانية ، إلا بتحديد مدلولات الألفاظ تحديداً دقيقاً بحيث لاتحتمل خلافا أو نزاعا ، وبحيث تتضح فى الذهن الإنسانى وضوحاً لا يدع مجالا لأى شك أو سوء فهم .

وفى الحق أن تلك الألفاظ التى ابتدعها الإنسان وأراد بها أن تكون مصدر خير ونعمة ، كانت فى كل عصور التاريخ ومازالت مصدر ويلات ونقمة أيضاً على البشرية . فهى فى نشأتها الأولى ولدى الإنسان الأول لم تكن تهدف إلى فهم أو إفهام ، بل كانت فى رأى جمهور كبير من المحدثين مجرد أصوات أو مجموعات صوتية يصدرها جهاز النطق للهو واللعب والغناء ، ثم اكتسبت الدلالة ولا نكاد ندرى فى صورة مؤكدة كيف تم هذا ، وكل الذى ندريه أن الإنسان فى عصوره التاريخية قد اتخذ من تلك الألفاظ وسيلة للتفاهم ، واتصال الناس بعضهم ببعض فى حياة اجتماعية مرت بأطوار وأطوار حتى صارت على نحو ما نرى الآن . والألفاظ منذ أقدم عصورها التاريخية قد اصطنعت للتعامل بها فكانت بمثابة العملة ، منها الفضى ومنها الذهبى ، ومنها الصحيح ومنها الزائف ، والمتعاملون بها منهم الفقير ومنهم الغنى ، ومنهم الشحيح بها والمبذر لها . ومع هذا أو رغم هذا فقد يسرت تلك الألفاظ سبل الاتصال بين أفراد المجتمع البشرى ، وارتقت بالذهن الإنسانى فوق مستوى الحيوان أو العجماوات .

ولكن الإنسان فى تعامله بالألفاظ لم يكن مخلصاً دائماً ، ولم يلتزم حدودها دائماً ، فإذا شاء التضليل والخداع والنفاق لجأ إلى تلك الألفاظ فاستمد منها أدواته ، وإذا جنح إلى الشر أو المكر أو الفتنة وجد فى تلك الألفاظ مايستعين به ، فلم ينطبق مايدور فى خلده على ما ينطق به ، مما حمل بعض المتشائمين من اللغويين مثل «تاليراند» على القول « إنما يتكلم الإنسان ليخفى مايدور فى ذهنه وما

تختلج به خواطره ومثل « كريكنجارد » حين يقول :

[إن اللغة قد تستعمل فى كثير من المناسبات ليستر المتكلم بها خلوه من الأفكار والمعلومات(١)] !!

ويكتسب الإنسان ألفاظ اللغة ودلالاتها فى تجارب كثيرة من تجارب الحياة ، معها تتشكل الدلالات وتتلون وتظلل بظلال متباينة ، ثم تستقر على حال عندها يتبنى المرء لكل لفظ دلالة معينة هى جزء من عقله ومن نفسه . فتصبح تلك الألفاظ الصوتية كالكائن الحى رباه أهله وتعبوا فى تربيته حتى استقام على عوده ، وصار محل فخارهم وإعجابهم . وكذلك الناس مع الألفاظ لا يكادون يرون فيها مجرد رموز صوتية تعبر عن الأشياء والكائنات ، بل هى فى رأيهم نفس الأشياء والكائنات .

ويؤثر كل منا سلاسل خاصة من تلك الأصوات اللغوية ؛ كما يؤثر كل منا نواحى معينة من دلالات الألفاظ ، ونستمسك بهذه وتلك ونذود عنها فى كل نقاش أو جدل . فإذا كنا بصدد وضع ألفاظ الحضارة الحديثة فقد تتباين آراؤنا حول أصوات اللفظ أو حول مدلوله ، وإذا كنا فى مجال النقد الأدبى فقد تتعدد المذاهب ووجوه الرأى . ومرجع كل هذا إلى التجارب الشخصية مع الألفاظ ، واختلافها فى حياة كل منا .

ومع أن رقى الحياة العقلية فى كثير من الأمم قد حدد من الدلالات وخلصها من كثير من الظلال التى كادت تطمس معالمها ، يبدو أنه لاسبيل إلى الخلاص من متاعب الدلالات إلا باصطناع وسيلة أخرى غير الكلام للتفاهم والاتصال الذهنى بين أفراد المجتمع . وذلك كأن يوهب المجتمع مثلا نوعا من التفاهم الروحى الذى يكفى فيه مجرد النظر بين اثنين ليدرك كل منهما ما يدور

(I) Jespersen ; Mankind, Nation & Individual p. 12.

بخلد الآخر . فلو أن كلاً منا وهب من الاستعداد الفطرى أو الغرزى ما يكفل إدراك ما يخطر بذهن الآخر بمجرد الاتجاه إليه بذهنه وعقله سواء كان حاضراً أو غائباً ، لأمكن حينئذ أن يتم التفاهم بين الناس دون وساطة من تلك الرموز الصوتية ، ولتخلصت الإنسانية من دلالات ألفاظ كالنفاق والرياء والكذب والتضليل ، وغيرها من تلك التى شوهت حياة الإنسان فوق الأرض ، وجعلت لحياته ظاهراً وباطناً ، مما أحل البغض والكره والنفور محل الود والإخلاص والمحبة بين بنى البشر .

أما بعد : فلعل الله أراد بنا خيراً إذ لم يطلعنا على حقيقة ما يدور بالأذهان والعقول ، وإذ وهبنا تلك القدرة التى ساعدتنا على اصطناع الألفاظ فى التفاهم ، نخفى عنا فى بعض الأحيان حقيقة ما يدور فى الذهن وما تضمره النفس ، وجنبنا شراً أكبر بشر أصغر ، مما جعل منا مجتمعاً إنسانياً راقياً يسوسه التعاون والتآخى وإن لم نبلغ فيه الغاية من السعادة والوئام .

سنة ١٩٥٨

إبراهيم أنيس

الفصل الأول

نشأة الكلام

لم يظفر بحث من البحوث اللغوية بقدر وفير من التأمل والتفكير مثل الذى ظفرت به نشأة اللغة . ومع هذا فقد كانت النتيجة دائماً سلبية ، ولم يهتد الباحثون بعد كل ما بذلوه من جهد إلى رأى يجمعون عليه أو يطمئنون إليه . ففى كل العصور ، ومنذ الحضارة الإنسانية القديمة ، والعلماء لا ينقطعون عن البحث فى نشأة الكلام وأصله ، ويفترضون فى هذا الفروض ، ويحاولون فى هذا التجارب ، حتى أوائل القرن العشرين حين بدأ العلماء ينصرفون عن هذا النوع من البحث ، ويرون أنه من مسائل ما وراء الطبيعة ، وأن لا جدوى من الاستمرار فيه .

ولم يقتصر البحث فى النشأة اللغوية على علماء اللغة فى العصور القديمة ، بل تناوله أيضا فلاسفة اليونان ، والمتكلمون وأهل الأصول من علماء العرب ، بل حتى بعض الملوك القدماء . فقد روى « هيرودوت » أن أحد الفراعنة المسمى « أبسمتيك » أراد البرهنة على أن اللغة المصرية القديمة هى أصل اللغات فى العالم ، فأمر بعزل طفلين من الناس منذ ولادتهما . وكفل لهما الغذاء والكساء فى صمت مطلق ، بحيث لا يسمعان من الناس كلاما أو ما يشبه الكلام . ثم انتظر شهوراً حتى سمعهما ينطقان بأول كلمة مسموعة تتكون من أصوات كالتى ينطق بها الإنسان ، ظنا منه أن مثل هذه الكلمة لا بد أن تكون إحدى كلمات اللغة المصرية القديمة . ولكن خاب ظنه حين تصادف أن كانت تلك الكلمة « بكوس » Becos التى تعنى فى « الفريجية » إحدى اللغات القديمة « الخبز » .

وهـكذا ظهر للملك أن اللغة « الفريجية » أقدم من المصرية .

واستمر هذا النوع من التفـكير البدائى فى معظم العصور . فقد حاول فردريك الثانى ملك صقلية سنة ١٢٠٠ م القيام بتجربة أبسمتيك ، رغبة منه فى الوقوف على سر ذلك اللغز الغامض ، ثم تبعه جيمس الرابع ملك اسكتلندا سنة ١٥٠٠ م متخذا من نفس المحاولة الفاشلة وسيلة تهديه إلى كيف نشأت اللغة ، وكيف نطق الإنسان الأول .

وربما كان أعجب ما تحدثنا به الروايات أن عالماً سويدياً فى القرن السابع عشر كان يؤكد لمستمعيه فى صورة جدية أن الرب فى جنـة عدن كان يتـكلم اللغة السويدية ، وأن آدم كان يتـكلم اللغة الدنيمركية ، وأن الحية كانت تتـكلم اللغة الفرنسية ! !

وظل بعض الباحثين فى اللغات حتى العصر الحديث يذهبون بصدد النشأة اللغوية إلى آراء تدعو إلى السخرية ، مثل ذلك العالم التركى الذى وقف فى مؤتمر لغوى سنة ١٩٣٤ يؤكد للمستمعين أن اللغة التركية هى الأساس الذى اشتقت منه كل اللغات مستدلا على هذا بكلمة تركية معناها الشمس هى gunes ، لأن الشمس أول ما استرعى نظر الإنسان الأول من بين المخلوقات ! .

وقد حاول بعض المحدثين من اللغويين أن يستشف شيئاً عن أسرار النشأة اللغوية بدراسة أولئك الأطفال الذين عثر عليهم فى الغابات وقد ربتهم الذئاب أو القردة ، غير أن محاولات هؤلاء الباحثين قد باءت بالفشل . وكل الذى أمـكن التحقق منه بهذا الصدد هو أن الطفل بعد أن ينقل إلى البيئة الإنسانية ، لا يلبث بعد زمن قليل أن ينطق كما ينطق من حوله ، كما أنه يجد لذة ومتعة فى هذا النطق فى حين أنه من المستحيل أن يتعلم الذئب أو القرد شيئاً من هذا .

وقد عثر فى صحراء حلوان على غلام قيل إنه ربى بين الغزلان . وقد أكد

لنا بعض المشرفين عليه فى المؤسسات الاجتماعية أنه وجد عاريا ، وكان فى بادىء الأمر يصوت بأصـــوات مبهمة تشبه صوت الحيوان ، وكان يأبى إلا أكل الحشائش ، ثم لم يلبث بعد شهور أن نطق بعدة كلمات ، وتعود تناول الطعام المألوف لنا .

وقد شهدته بعد نحو سنتين من العثور عليه فوجدته يستمتع ببيئته الجديدة ويلتقط منها الـكلمات بسرعة غريبة .

وقد كان للعلماء من العرب مغامرات فى هذا الشأن ، وآراء لا تخلو من الحدس والتخمين ، لخصها السيوطى فى المزهر فبدت مضطربة ، لا يـكاد المرء ينتهى من قراءتها حتى يصبح مبلبل الفـكر حائراً مشدوها .

وكان بعض العلماء من القدماء يعتمدون فى بحثهم على أدلة نقلية التمسوها من الـكتب المقدسة ، كالتوراة والقرآن ، وفسروها تفسيراً يلائم ما ذهبوا إليه من آراء . فنى الإصحاح الحادى عشر من سفر التـكوين نقرأ قصة بابل حين حاول الناس أن يتخذوا لأنفسهم مدينة عظيمة ، وبرجا شامخاً يطاول السماء ، فبلبل الله ألسنتهم وجعلهم فرقاً وشيعاً ، لا يفهم بعضهم بعضاً ، بعد أن كانوا أهل لغـــة واحدة ، ولسان واحد ، فانتشروا فى الأرض وتعددت لغات البشر .

على أن بعض الباحثين يؤكدون لنا أن « بابل » ليست من بلبلة الألسن ، وإنما معناها « باب إيل » أى « باب الرب » !

وبعض علماء العرب يلتمسون من الآية الـكريمة « وعلم آدم الأسماء كلها » دليلا للبرهنة على أن اللغة توقيفية.

وقد ظهر الخلاف بين علماء العرب واضحاً جلياً فى منتصف القرن الرابع الهجرى وما بعده ، فرأيناهم فريقين :

أولا : أهل التقاليد من المحافظين الذين اعتمدوا على النصوص من السلفيين وأضرابهم ، وهؤلاء كانوا ينادون بأن اللغة توقيفية ، وأن لا يد للإنسان فى نشأة ألفاظها أو كلماتها ، وزعيم هؤلاء ابن فارس فى كتابه الصاحبي .

ومع أن المفسرين يختلفون فى مدلول كلمة « الأسماء » فى قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » ، نرى أصحاب الرأى بأن اللغة توقيفية يستمسكون بما يروى عن ابن عباس من أنه كان يفسر الأسماء بأسماء الأشياء من نبات وحيوان وجماد . وهكذا يرون أن الله تعالى علم آدم اللغة المألوفة لنا وألفاظها ، واختص الأسماء بالذكر دون الأفعال أو الحروف لأنها فى رأيهم أساس اللغات ، ولابد لكل كلام مفيد من الاسم ، فى حين أن الجملة المستقلة قد تستغنى عن كل واحد من الفعل والحرف !

فإذا سوئلوا كيف صح أن يقال « ثم عرضهم على الملائكة » بضمير العاقل ، أجابوا عن هذا بأنه من قبيل التغليب ، وهو سنة من سنن العرب ، وذلك كقوله تعالى « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع » .

ثم لا يكتفون بالاستدلال بهذا النص القرآنى ، بل يسوقون بعض الأدلة العقلية الجدلية للبرهنة على صحة رأيهم مثل قولهم :

(١) أجمع العلماء على الاحتجاج بلغة العرب ، ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحاً لم يكن العرب فى الاحتجاج بهم بأولى منا فى الاحتجاج بنا لو اصطلحنا على لغة اليوم ، مما يدل على أن تلك اللغة التى رويت ، والتى ليس لنا أن نغير منها أو نبدل ، هى أمر توقيفى ومن واجبنا أن نلتزم حدودها . فالله سبحانه وتعالى علم آدم ماشاء ان يعلمه من كلمات هذه اللغة مما احتاج إلى

علمه فى زمانه ، ثم علم بعد آدم من عرب الأنبياء نبياً نبياً ماشاء الله أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

(ب) ويسوقون فى أدلتهم قصة طريفة هى أن رجلا كلم أبا الأسود الدؤلى ببعض ماأنكره أبو الأسود . فلما سأل أبو الأسود هذا الرجل عن معنى كلامه قال له : هذه لغة لم تبلغك ياأبا الأسود ! ! فقال له أبو الأسود : يا ابن أخى إنه لاخير لك فيما لم يبلغنى !

ويرون فى هذه الرواية رغم مابها من سذاجة التفكير أن أبا الأسود قد بين الرجل بلطف أن الذى تكلم به مختلق مخترع ، ولا يصح لهذا أن يعد من لغة العرب التى لابد للإنسان فى خلق عنصر من عناصرها .

(ج) ثم نراهم يستمرون فى جدلهم واحتجاجهم قائلين : إنه لم يبلغنا أن قوما من العرب فى زمان يقارب زماننا أجمعوا على تسمية شىء من الأشياء مصطلحين عليه ، لنستدل بذلك على أن اصطلاحا قد كان قبلهم . وقد كان فى الصحابة من البلغاء والفصحاء ، وما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغة أو إحداث لفظة لم تتقدمهم . ألا ترى أنه سبحانه يقول « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » ، مما يدل على أن اختلاف اللغات أمر توقيفى من صنع الله ، وأن لايد للإنسان فيه ! بل لقد ذم الله تعالى أولئك الذين وضعوا أسماء ما أنزل الله بها من سلطان فى قوله « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم » .

من كل هذا نرى أن القائلين بالتوقيف يعتمدون فى أكثر أدلتهم على النصوص النقلية ، ويفسرونها على حسب أهوائهم ليستنبطوا منها مايؤيد آراءهم .

ثانياً : والفريق الثانى من علماء اللغة هم الذين نادوا بأن اللغة اصطلاحية ، وكان معظمهم من المعتزلة الذين استمدوا أدلتهم من المنطق العقلى ، وفسروا

ماورد من نصوص بحيث تلائم اتجاههم ، وتنسجم مع منطقهم . على أنا لا ندرى لهذه الطائفة زعيما معينا استمسك بهذا الرأى جهاراً ، ودافع عنه فى قوة وإصرار، بل نرى هذا الرأى ينسب لابن جنى ولأستاذه أبى على الفارسى وغيرهما ممن جاءوا بعد ذلك . فإذا رجعنا إلى قول ابن جنى فى الخصائص نراه حائراً متردداً لا يكاد يستقر على أمر . فبعد أن يشير إلى الرأى القائل بأن اللغة اصطلاحية ، ويستدل عليه ، نراه فى آخر الباب يقول مانصه « إننى إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة مايملك على جانب الفكر فتقوى فى نفسى اعتقاد كونها توقيفا من الله سبحانه وأنها وحى ». ثم يقول « كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا ، وإن بعد مداه عنا ، من كان ألطف منا أذهانا ، وأسرع خواطر ، وأجرأ جنانا فأقف بين تين الخلتين حسيرا ، وأكاثرهما فأنكفى مكثوراً » .

فنحن نرى من هذا حيرة ابن جنى ، وأخذه بالرأيين معا ، أو عدم استطاعته ترجيح أحدها على الآخر . وهو يعدنا فى آخر كلامه بأنه إذا بدا له من أدلة أخرى ، أو تكشفت له أمور أخرى فى الاستدلال فسيرجح لنا أحد الرأيين وينتصر له .

فإذا استعرضنا حجج القائلين بالاصطلاح وجدناها تكاد تنحصر فى الأمور الآتية :

(١) أولها أن الصلة بين الألفاظ ومدلولاتها صلة عرفية لاتخضع لمنطق أو عقل ، فما يسمى (بالشجرة) مثلا كان يمكن أن يسمى بأى لفظ آخر . ولايصح لهذا أن ينسب مثلا هذا العمل الناقص لله سبحانه وتعالى .

فلا ندرى لم سمى الحجر حجراً أو النهر نهرا فى لغتنا العربية ، مهما أجهد

الاشتقاقيون أنفسهم في مثل هـذا ، وتلمسواله من التأويلات المتكلفة ، والتخريجات المتعسفة . هذا إلى أن المعانى المشتركة فى كل العقول البشرية قد اتخذت لها اللغات ألفاظا متباينة مختلفة لايكاد يمت بعضها إلى بعض بصلة معقولة مفهومة .

فإذا أضيف إلى ماتقدم أن كل اللغات تتضمن كثيراً من الأمثلة الشاذة ، والشواهد الخارجة على قواعدها العامة ، وأنها تتضمن أيضاً تلك الألفاظ التي يعبر كل منها عن أكثر من معنى وهي ماتسمى بالمشترك اللفظى ، والألفاظ التي يشترك اثنان منها أو أكثر فى معنى واحد وهى المترادفات ، تبين بعد كل هذا أن اللغة لايعقل أن تتفق مع إحكام مايخلق الله من أشياء . ولذلك كان ابن درستويه وهو ممن نادوا بأن اللغة توقيفية ينكر أشد الإنكار وجود المشترك اللفظي ويعده مدعاة للإلباس والإبهام ، وينزه الخالق عن مثل هذا فى مخلوقاته .

(ب) ثم ينساقون مع القائلين بالتوقيف إلى طريقتهم فى الجدل والنقاش بطريقة نقلية ويرون فى قوله تعالى « وماأرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » دليلا يؤيد وجهه نظرهم ، لأن الآية صريحة فى أن اللغة تسبق الرسالة ، وليس العكس كما يفهم من كلام أصحاب التوقيف . وذلك لأن الواسطة بين الله والبشر هم الرسل ، وهو سبحانه يختارهم بعد أن يستقر أمر التفاهم بين الناس ، ويصطلحوا على وسيلة للاتصال فيما بينهم .

ثم يرى أصحاب الاصطلاح فى الآية الكريمة « وعلم آدم الأسماء كلها » أنها تفيد أنه تعالى أقدره على النطق بألفاظ معينة ، وجعل فيه القدرة على خلقها بنفسه والتصرف فى تراكيبها .

أما كيف نشأت اللغة فى رأى أصحاب الاصطلاح فنراهم يفترضون فى هذا

أحد فرضين يلخصها ابن جنى فى الخصائص قائلا : « كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجون إلى الإبانة عن الأشياء المعلومة فيضعوا لكل واحد سمة ولفظا إذا ذكر عرف به » إلى أن يقول « فكأنهم جاءوا إلى واحد من بنى آدم فأومأوا إليه وقالوا إنسان ، فأى وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوقات) ! .

أما الفرض الثانى فنراه فى كلام ابن جنى على الصورة الآتية :

« وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل » .

واستمر الخلاف بعد عصر ابن جنى وابن فارس بين علماء اللغة وأهل الكلام ، وكان ينتهي أحياناً بأن يقف بعضهم موقفا وسطا فيقول بأن اللغة بدأت توقيفية ثم انتهت إلى الاصطلاح والمواضعة . وهكذا نرى أن علماء العرب لم يهتدوا الى رأى يجمعون عليه ، أو يرجحونه بصدد النشأة اللغوية .

المحدثون :

أما المحدثون من علماء اللغات فى أوربا فقد صالوا وجالوا فى هذا الشأن ، ووجدوا لذة ومتعة فى هذا البحث خلال القرن التاسع عشر ، مما أدى فى آخر الأمر إلى عدة نظريات أو افتراضات نلخصها فيما يلى :

١ — Bow·wow . أولئك الذين نادوا بهذه النظرية يرجحون أن النشأة الأولى للألفاظ لا تعدو أن تكون تقليدا للأصوات الطبيعية التى سمعها الإنسان الأول ، واتخذ منها أسماء لمصدر هذه الأصوات ، فنباح الكلب مثلا اتخذ رمزا

يعبر أو يدل على نفس الحيوان . وهكذا يتصور أصحاب هذا الرأى أن الإنسان الأول سمع عواء الذئب وزئير الأسد ومواء الهر ، فاتخذ من تلك الأصوات الحيوانية المتباينة أعلاما للحيوانات نفسها ، كما سمع حفيف الشجر وزفير النار وقصف الرعد وخرير الماء وغيرها ، فاتخذ منها أسماء لكل الظواهر الطبيعية التى تسمع لها أصوات . وبهذا تكونت له مجموعة كبيرة من الكلمات تعد فى رأى أصحاب هذه النظرية من أقدم الكلمات فى اللغة الإنسانية . ثم يتصورون أن الكلمة فى تطورها لاتقف فى دلالتها عند حدود مصدرها الأصلى ، بل قد تتعداه إلى أمر لاصلة له بذلك المصدر ، وإلى معنى جديد لا يكاد يمت إلى الدلالة الأصلية بصلة وثيقة . ولذلك يجب ألا ندهش حين نرى معاجمنا العربية تتضمن فى مادة « نباح الكلب » معنى جديداً بعيداً عن الكلب وصوته مثل قول صاحب القاموس [النبّاح مناقف صغار بيض مكية تجعل فى القلائد] . وكقوله من الفحيح بمعنى صوت الأفعى « فحفح = صحح المودة وأخلصها » ، وفى مادة الثغاء أى صوت الغنم يقول « أتيته فما أثغى = ما أعطى شيئاً » . وفى بعض الأحيان نرى الصلة بين المعنى الأصلى والمعنى الجديد واضحة مفهومة ، كأن يشتق من زئير الأسد كلمة « الزأرة » بمعنى الأجمة . وكأن يقال فى مادة رغاء الإبل أى صوتها « إن الترغية معناها الإغضاب » .

ولذلك لا يصح أن ننساق مع بعض المعترضين على هذه النظرية فى تهكمهم عليها بأنها تقف بالفكر الإنسانى عند حدود حظائر الحيوانات ، وتجعل اللغة الإنسانية الراقية مقصورة النشأة على تلك الأصوات الفطرية الغرزية ، لأن وراء هذه الأصوات سورا حصينا عنده فى الحقيقة تبدأ لغة الإنسان ذات الدلالات المتميزة المتباينة . فالمعترضون يفترضون فى هذا النوع من الأصوات عقما ولا تصلح لأن ينحدر منها تلك الدلالات الإنسانية السامية . ولكن الواقع يبرهن على أن كثيراً من كلمات اللغات الإنسانية قد انحدرت عن تلك الأصوات الغرزية

المبهمة ، ثم سمت فى تطورها ودلالتها وأصبحت تعبر عن الفكر الإنسانى .

وإلا فكيف نتصور أن كلمة « الخيل » يشتق منها « الخيلاء » ، والجبانة بمعنى الصحراء يشتق منها « الجبن » ، وأن من « سفهت الطعنة أسرع منها الدم وجف » تجيء « السفاهة » ، إلى غير ذلك من تلك الدلالات المجردة التى انحدرت إلينا من المحسوسات ! يمكننا إذن أن ندرك أن الكلمات المستقاة من الأصوات الطبيعية قد تتطور فى دلالتها حتى تصبح معبرة عن الدلالات الراقية المجردة فى الذهن الإنسانى .

ويبدو أن « ماكس ميلر » كان زعيم المعارضين لهذه النظرية والساخرين منها . وكان « رينان » يعارضها أيضاً ويتهكم عليها قائلا : ليس من المعقول أو المفهوم أن الإنسان وهو أرقى المخلوقات يقلد أصوات مخلوقات أدنى منه وأحط ليستنبط من تلك الأصوات المبهمة الغامضة كلمات لغته الراقية السامية . ولكن « رينان » يتجنى على هذه النظرية حين يتصور أن عملية التقليد مقصورة على أصوات الحيوانات ، فالإنسان الأول حين بدأ عملية التقليد لم يجعلها مقصورة على أصوات بعينها ، فقد كان يقلد أصوات الحيوان ، وأصوات أخيه الإنسان وأصوات الطبيعة ، ويتخذ من كل هذه الأصوات كلماته أو ألفاظه . فلم يكن الإنسان صامتاً فى الوقت الذى كان فيه الحيوان مصوتاً ومهارة الإنسان تظهر فى أنه انتقل بتلك الأصوات المبهمة إلى دلالات واضحة مشتركة بين أفراد النوع الإنسانى ، وجعلها تعبر عن مصدر الصوت أى عن الحيوان المنبعث عنه ذلك الصوت .

ولعل أقوى مايوجه إلى هذه النظرية من اعتراض أن اللغات فى وضعها الراهن لا تكاد تشتمل إلا على قدر ضئيل جداً من تلك الكلمات الواضحة الصلة بين اللفظ والمدلول ، وهى تسمى onomatopoeia . هذا إلى أنها قد

تختلف باختلاف اللغات حتى فى الفصيلة الواحدة . فليس لخرير الماء أو حفيف الشجر أو مواء الهر أو نباح الـكلب ، فى لغات البشر كلمات مشتركة فى لفظها أو بعض لفظها .

(ب) Pooh-Pooh:

يرى أصحاب هذا الرأى أن اللغـــة الإنسانية بدأت فى صورة شهقات وتأوهات صدرت عن الإنسان بشكل غرزى لتعبر عن فرح أو دهشة أو غضب أو ألم ونحو ذلك من انفعالات قوية . ومعظم المنادين بهذه النظرية لم يحملوا أنفسهم مشقة البحث فى طبيعة تلك الشهقات أو التأوهات ، بل أخذوها قضية مسلمة ، وأسسوا عليها فـكرتهم . ويدين أصحاب هذا الرأى بما نادى به « دارون » فى نظرياته المشهورة الخاصة بتطور الـكائنات الحية . فقد بين « دارون » أن الإنسان لايعدو أن يكون تطوراً لأرقى الأجناس من الحيوان . ولم يقتصر تفـكير « دارون » على التطور الجسمانى ، بل شمل أيضاً التطور الفـكرى والعقلى . ومن ثم كان ينـكر أن الإنسان هو المخلوق المتميز وحده بالفـكر والنطق ، بل يشركه فى هذا أيضاً بعض الحيوانات الراقية مع تفاوت فى درجة التفـكير أو النطق . فالإنسان ينطق والحيوان ينطق وليس الفرق بينهما إلا فى الدرجة فقد تعـــددت وتنوعت أصوات الإنسان ، فى حين أن أصوات الحيوان ظلت محدودة . ولذلك ربط « دارون » بين النشأة اللغوية للإنسان ، وبين تلك الأصوات الغريزية والانفعالية من آهات أو تأوهات وأصوات الدهشة والتعجب ، وجعلها جميعاً الأساس الأول الذى منـــه استمدت اللغة الإنسانية نشأتها .

وحاول « دارون » الربط بين هذه الأصوات وبين تقلصات أعضاء النطق أو انبساطها ، أى أنه حاول تفسيرها تفسيراً فسيولوجياً ، فيقرر أن الشعور بالازدراء

أو الغضب يصحبه عادة ميل إلى النفخ بالفم أو من الأنف ، ومن هنا ينشأ صوت مثل Pooh فى الإنجليزية ، أو « أف » فى العربية .

وكذلك الحال حين يدهش المرء أو يفزع يميل عادة إلى فغر فمه كما لو كان يتنفس بعمق ، فإذا زفر هذا الهواء الذى تنفسه حين فغرفاه وجدنا الفم يميل إلى الاستدارة قليلا ، ومثل هذا الوضع للشفتين يولد لنا صوت اللين المسمى بالضمة ، وهى حين تطول قد يتصل بها صوت يشبه الهاء . ويترتب على هذا أن تنشأ تأوهات مثل oh وهو الصوت الذى نسمعه عادة من جمهور المتفرجين حين يفاجأون بمنظر بالغ الدهشة .

أما فى حالة الألم فتتقلص أعضاء الجسم كلها بما فى ذلك الوجه ، مما يترتب عليه أن الشفتين تأخذان الوضع المناسب لصوت اللين« A » أى الفتحة،ويؤدى هذا إلى صوت مثل ah أو ach ! !

ويعترض بعض العلماء على هذه النظرية بأن هذه الأصوات أصوات فجائية منعزلة عن الكلام أو التكلم الذى يصدر عن المرء بصورة إرادية ، فبينها وبين الكلمات فجوة تجعلنا نعد تلك الأصوات صورة سلبية للكلام ، فليست تصدر عن المرء إلا حين يعييه القول أو حين يأبى الكلام . هذا إلى أن كثيراً من تلك الأصوات يشتمل على عناصر صوتية لا نكاد نسمعها فى كلام البشر ، مثل أصوات اللين المهموسة ومثل Clicks التى تنشأ مع الشهيق أى فى أثناء دخول الهواء إلى الفم والرئتين .

والحقيقة أن تلك الشهقات والتأوهات لاتعدو أن تكون أصواتاً عرفية تختلف باختلاف الشعوب والأمم . فصوت الدهشة عندنا هو « ah » وليس « oh » كما هو الحال عند الإنجليز الذين استقى منهم « داروين » ملاحظته . فلكل شعب صوت خاص عند البكاء أو الأنين أو الدهشة أو الازدراء ونحوها من الانفعالات الغرزية .

وقد كتب « كيبلنج » فى إحدى رواياته يصف إحدى الشخصيات فقال لاأظن أن هذا الرجل من الأفغان لأن الناس هناك يبكون بالصوت « أى أى » ai ai ، كذلك لاأظن أنه هندستانى لأنهم يبكون بالصوت oh,oh ، إن الرجل يبكى كما يبكى الرجل الأوربى فيقول ow-ow !

(ج) Ding-Dong :

ويؤكد لنا أصحاب هذا الرأى أن هناك صلة وثيقة بين ماينطق به المرء من أصوات ، وبين مايدور فى خلده من أفكار . ويرون أن كل أثر خارجى يتأثر به المرء يستلزم النطق ببعض الأصوات ، وهذه قوة أو قدرة قد اختص بها الإنسان منذ الخليقة . ثم يعترفون أن سر هذه القوة لايزال غامضا علينا كأنما هو أمر سحرى لاندرى له كنها . أى أنهم يتصورون أن المرء يرى الأشياء أو الحوادث فيتأثر بها ، ويتبع هذا التأثر بصورة آلية حتمية أن ينطق بالأصوات. أى أن الألفاظ لاتعدو أن تكون صدى لتلك المؤثرات الخارجية ، غير أن معرفة كنه الصلة بينهما أمر عسير على أذهاننا .

وقد بنوا هذه النظرية على تلك الظاهرة العامة التى نلاحظها فى الأشياء المحسوسة من أن اصطدام أى جسم أو الدق عليه يولد صوتا معيناً ، به يتميز هذا الجسم فى غالب الأحيان . فالدق على حديد صوت يخالف مايصدر عن النحاس أو الفضة أو الخشب. وهكذا نرى أن لكل شىء رنينا خاصا يتميز به . وكذلك الآثار الخارجية التى يتأثر بها الإنسان يحدث كل منها رنينا خاصاً فيتعدد الرنين بتعدد الآثار الخارجية . ولذا تعددت الألفاظ وتعددت الأصوات المشتملة عليها .

وأكبر مايوجه إلى هذا الرأى من نقد أنه بنى على أساس غامض ، وأحاطه أصحابه أنفسهم بالألغاز والسحر ، مما جعل معظم اللغويين الآن يمرون به مر الكرام .

(د) Yo-he-ho .

وملخص هذا الرأى أن النطق الإنسانى نشأ أولا فى صورة جماعية ، فقد صدر عن مجموعة من الناس فى أثناء قيامهم بعمل شاق مضن تعاونوا على أدائه. ويؤكد لنا أصحاب هذه النظرية أن الإنسان يجد الراحة فى أثناء قيامه بعمل شاق إذا تنفس أو تنهد بقوة وعنف ، وكرر هذا عدة مرات ، فهو يصدر من رئتيه قدراً من الهواء . ويستريح لهذه العملية العضلية لأنها تخفف من عناء عمله ومشقته. ويترتب على صدور الهواء وانبعاثه إلى خارج الفم أو الأنف أن يمر بالوترين الصوتيين فيحركهما فتسمع لهما ذبذبات ذات أنغام مختلفة . ويشبه هذا مانسمعه أحياناً من بعض العمال الآن حين يؤدون عملا شاقا مضنيا . إذ نراهم يغنون أو يرددون عبارات بدائية لاتكاد تتضمن معنى معقولا مفهوما . وهم بهذه العبارات يلتمسون عونا لأنفسهم فى أثناء قيامهم بعملهم الشاق ، ويجدون فيها متنفسا وتشجيعاً ، فيكررونها ويعيدون تكرارها دون ملل أو سأم .

وهكذا يرى أصحاب هذا الرأى أن اللغة نشأت حين اجتمع الإنسان بأخيه الإنسان، ولم تنشأ عنه وهو منفرد منعزل . وبهذا يربطون بين نشأة اللغة وتكون المجتمع الإنسانى ، ويوثقون بين اللغة والمجتمع . ولعل أهم ماتمتاز به هذه النظرية على النظريات السابقة ، أنها عالجت النشأة اللغوية فى ضوء المجتمع الإنسانى ، وربطت بين اللغة والمجتمع ربطا وثيقا ، فى حين أن كل النظريات الأخرى تفترض أن الكلمات الأولى صدرت عن الإنسان المنفرد، ثم قلده غيره فى نطقه.

ويرى أصحاب هذه النظرية أن تلك الأصوات التى تصدر عن جماعة من الناس فى أثناء عملهم المضنى لاتلبث أن ترتبط بالعمل نفسه ، وتصبح بمثابة علَم له ، ينطقون بها كلما تكرر هذا العمل فى الظروف المختلفة . ومثل هذه العبارات الجماعية هى التى بدأ بها الكلام ، وهى التى تعد النواة الأولى فى النشأة اللغوية .

تلك هى النظريات التى اشتهر أمرها فى أواخر القرن التاسع عشر ،

وهى كما ترى لم تحل مشكلة النشأة اللغوية ، ولم تفسرها تفسيرا نطمئن إليه ، ومن الممكن أن توجه إليها الاعتراضات الآتية : —

١ — إن هذه النظريات على تعددها لم تفسر لنا إلا ناحية من نواحى اللغات ، وتركتنا حائرين أمام النواحي الأخرى . وربما كان ما فسرته لنا أقل جوانب اللغة قيمة . وذلك لأن الألفاظ التي تبدو لنا الآن وقد ارتبطت أصواتها بمدلولاتها لا تجاوز نسبة ضئيلة فى كلمات كل لغة .

٢ — هذا إلى أنها — فيما عدا النظرية الأخيرة — قد أهملت الربط بين اللغة والمجتمع ، مما لا يستطيع اللغوى الحديث أن يتصوره .

٣ — وأخيراً تفترض هذه النظريات أن الإنسان الأول ظل صامتاً فترة من الزمن قبل أن تنشأ لغته ، ثم نطق بأصوات كأصوات لغاتنا ، وأدت عضلات نطقه وظيفتها أداء كاملا . ومثل هذا يخالف ما نعهده من أن العضو لا يبدأ وظيفته بدءا كاملا ، ولكنه يحتاج إلى المران الطويل قبل أن يؤدى تلك الوظيفة الأداء الكامل . ولهذا لا يعقل أن عضلات النطق تنطلق من صمتها فتنطق بأصوات كأصوات كلماتنا ، وإنما المعقول أنها كانت تنطق نوعا من النطق ، وتصوت نوعا من التصويت ، حتى إذا اكتمل لأعضاء النطق نموها وتطورها صدر عنها تلك الأصوات الإنسانية التي تشبه ما يصدر عن الإنسان الآن . وحينئذ يمكن أن يقال إن النطق الإنسانى قد بدأ ، وإن اللغة الإنسانية قد نشأت .

أحدث الآراء[1]:

اهتدى بعض المحدثين من اللغويين وعلى رأسهم « جسبرسن » إلى نظرية نطمئن إليها بعض الاطمئنان ، لأنها تأخذ بكل النظريات السابقة مجتمعة ، وتؤسس عناصرها على أسس علمية واضحة المعالم ، وخاضعة للتجربة الحديثة . فالنظريات السابقة اعتمدت على طريقة استنباطية لانها تبدأ بالفرض ، ثم تساق لهذا الفرض الأدلة والبراهين،أما نظرية هؤلاء المحدثين فتتبع الطريقةالاستقرائية فتستعرض الملاحظات والتجارب،ثم تتكون النتيجة أيًا ما كانت هذهالنتيجة.

وأصحاب هذه النظرية الحديثة يؤسسون نظريتهم على أسس ثلاثة : —

١ — دراسة مراحل نمو اللغة عند الأطفال .

٢ — دراسة اللغة فى الأمم البدائية .

٣ — دراسة تاريخية للتطور اللغوى .

١ — لغة الطفل :

لقد درس علماء التشريح مراحل نمو الجنين فى بطن أمه ، ثم أكدوا لنا أنه يمر خلال شهور الحمل الأولى فى نفس المراحل التى مر بها الإنسان قبلأن تكمل إنسانيته ، وهى المراحلالتى استنفدت من عمر الإنسانية آلاف السنين أو ربما ملايين السنين .

وبرقت هذه النظرية لأعين بعض الباحثين فى اللغة ، وحاولوا على ضوئها أن يستكشفوا شيئاً عن النشأة اللغوية ، اعتقادا منهم أن مراحل نمو اللغة

---

(١) ملخص عن Language, its nature, development and Origin p.412

عند الأطفال هى نفس المراحل التى مر بها الإنسان الأول ، حتى نشأت له لغة إنسانية ذات أصوات ومدلولات كالتى نألفها فى اللغات الآن .

ومن الواضح أن بعض هؤلاء الباحثين قد غالى فى الاعتماد على دراسة مراحل نمو اللغة عند الطفل ، وتناسى الفرق الشاسع بين ظروف الأطفال الآن حين يتعلمون لغة أبويهم ، والظروف التى عاش فيها الإنسان الأول فى أثناء نشأة الكلام .

فالطفل حين يتعلم لغة أبويه لا يكاد يعدو عمله الربط بين أصوات يسمعها ومدلولات يفهمها ، فهو مقلد لا مبتكر أو مخترع ، وهو يلتقط ألفاظا متداولة فى بيئته ، وقد أعدت كل الإعداد، وهيئت له كل التهيئة على يد معلم لا يمل تعليمه من أهله وذويه . فى حين أن الإنسان الأول لم تتح له نفس الظروف ، بل كان بمثابة المخترع يستخرج أمراً جديداً ، وحدثا جليلا ، ويعلم نفسه بنفسه مالم يكن له وجود من قبل . ولعل خير مايوضح لنا الفرق بين الحالين أن نتصور باحثا فى الموسيقى يحاول استنباط مراحل تطورها عن طريق دراسة المراحل التى يمر بها الطفل فى تعلمه العزف على البيانو ، دون أن يفطن إلى أن الطفل فى تعلمه العزف يرى نفسه أمام أنغام معدة مهيأة ، وأغان مسموعة مألوفة ، فهو يقلد مااخترعه غيره ، وماشاع فى بيئته .

غير أنه مع هذا يمكن أن يستأنس بمراحل نمو اللغة عند الأطفال فى دراسة النشأة اللغوية ، إذا اقتصرت دراستنا على السنة الأولى من عمر الأطفال حين يناغون ويصوتون بأصوات مبهمة لاتهدف إلا إلى اللذة والمتعة . فى هذه المرحلة قد نسمع من الأطفال أصواتا غريبة على اللغة الشائعة فى بيئته ، وقد ينطق الطفل بسلسلة من الأصوات تشق عليه فيما بعد حين يتعلم لغة أبويه . فقد نسمع من الطفل الإنجليزى أصوات الحلق وليس فى لغة أبويه مثل هذه الأصوات . بل حتى بعد السنة الأولى من عمر الطفل وقبل نهاية السنة الثالثة نرى بعض الأطفال يكونون

مايمكن أن يسمى بلغتهم الصغيرة وهى المملوءة بألفاظ مخترعة لاتكاد تمت فى أصواتها أو مدلالوتها للغة أبويهم بصلة ما .

تلك هى الأمور التى تستحق الدراسة فى مراحل نمو اللغة عند الأطفال ليستأنس بها الباحث فى بحثه للنشأة اللغوية ، ولتلقى ضوءا على ذلك الغموض الذى يكتنف تلك النشأة اللغوية .

وقد اقتصر « لويس Lewis » فى كتابه Infant Speech على دراسة تلك المرحلة من نمو لغة الطفل ، وحاول تفسير الكثير من ظواهرها . فهو مثلا يؤكد لنا أن الطفل فى غضبه يصدر أصواتا أنفية كالنون والميم ، ولكنه فى سروره يكرر أصواتاً حلقية أو قريبة من الحلق كالكاف والغين والجيم إلى آخره . .

فإذا ربط أحد الباحثين بين هذه الملاحظة وبين مانعرفه من أن أداة النفى فى جل اللغات البشرية تتضمن صوتاً أنفياً ، لم يكن متجنيا أو مشتطا حين يقول إنه من المحتمل أن صوت الغضب الفطرى قد تولدت منه فى آخر الأمر تلك الأدوات التى تعبر عن النفى فى اللغات .

ومع كل هذا فلا تزال دراسة هذه المرحلة عند الأطفال بحاجة إلى المزيد من البحث حتى يمكن أن نطمئن كل الاطمئنان إلى النتائج المؤسسة عليها .

٢ ـ لغة الأمم البدائية :

والأساس الثانى الذى يستأنس به الباحثون فى دراستهم للنشأة اللغوية هو مانلحظه الآن من صفات خاصة فى لغات الأمم البدائية . ويرى هؤلاء الباحثون أن لغات هؤلاء الأقوام تمثل مرحلة قديمة فى نمو اللغات وتطورها ، وهى لهذا تلقى ضوءاً على ما كانت عليه لغة الإنسان فى العصور السحيقة . ومقارنتها بلغات الأمم المتمدينة ترينا الطريق الذى سلكته اللغة فى تطورها ، والعناصر التى تخلصت منها أو أبقت عليها .

ومع هذا فمن المغالاة أن نتصور أن لغات الأمم البدائية قريبة الشبه بلغة الإنسان الأول . فهى مهما التقطناها من بين أحط الشعوب فى المدنية تمثل مرحلة متأخرة نسبياً من مراحل التطور اللغوى . فلا شك أن آلافا من السنين قد مرت على لغة الإنسان قبل أن تصل إلى مرحلة تلك الشعوب التى نسميها بدائية .

٣ — الدراسة التاريخية :

وربما كان هذا الأساس الثالث أهم من الأساسين السابقين فى بحث النشأة اللغوية . وقد وجه المحدثون كل جهودهم لهذه الدراسة التاريخية ، ولكنهم بدأوها بطريقة عكسية ، أى أنهم بدأوا البحث فى لغات العصر الحاضر ، ثم عادوا إلى الوراء جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، مستخدمين معلوماتهم عن حال اللغات فى العصور الماضية من النصوص اللغوية والمستندات التاريخية وهم فى هذا البحث يعقدون المقارنات ليستنبطوا قوانين أو قواعد عامة للتطور اللغوى . . فمثلا يقارنون حال الإنجليزية الحديثة بحالها فى عصر شكسبير ثم عصر تشوسر ثم بالألمانية القديمة ، ويقارنون اللهجات الهندية الحديثة بالنصوص التى رويت عن اللغة السنسكريتية ، ويقارنون اللهجات العربية الحديثة باللهجات القديمة ، وهكذا تستمر مقارنتهم خلال العصور التاريخية التى روى عنها نصوص لغوية. فإذا تجمعت لهم عن طريق تلك المقارنة التاريخية قواعد عامة للتطور اللغوى ، أمكن تطبيق تلك القواعد على عصور ماقبل التاريخ ، واستنباط الحال التى كانت عليها اللغات فى تلك العصور البعيدة التى لا نكاد ندرى من أمرها شيئاً . وربما أمكن الباحث عن هذا الطريق الوصول إلى تكوين فكرة واضحة المعالم عن أقدم المراحل فى النشأة اللغوية . بل ربما أمكن تبديد السحب التى تكتنف تلك النشأة اللغوية .

وقد استطاع جسبرسن[1] أن يصل إلى نتائج قيمة عن طريق هذا البحث المقارن ، وأن يصور لنا ما كانت عليه اللغات فى أقدم العصور .

الأصوات :

(ا) الاتجـاه نحو تيسير الأصوات : هذا هو الميل العام الذى لوحظ فى تطور اللغات . فحين قورنت النصوص القديمة بالنصوص الحديثة تبين للباحثين أن التطور الصوتى فى اللغات يميل فى غالب الأحيان نحو تيسير النطق بهـا ، والاقتصاد فى الجهد العضلى أثناء صدورها . وترتب على هذا الميل العام ظواهر ثلاث :

أولاها : أن اللغات فى أحدث صورها تـكاد تخلو من المجموعات الصوتية المتنافرة التى تتعثر فى نطقها الألسنة، مثل تلك الـكلمات التى يصفها علماء البلاغة بتنافر الحروف مجتمعة كالهعخع ، مستشزرات ،احجنشش بطن فلان[2] . فاجتماع مثل هذه الأصوات فى الـكلمة الواحـــدة كان أمراً مألوفاً فى اللغات فى أقدم عصورها . ثم تطورت الأصوات ومالت إلى تسهيل النطق ، فتخلصت من تلك المجموعات الصوتية الشاقة ، ولم تخلف لنا منها إلا كلمات قليلة هى التى تشبه مايتخذه علماء البلاغة من أمثلة لتنافر الحروف .

ثانيتها : الميل نحو التقصير من بنية الـكلمات . فقد دلت الملاحظات الحديثة على أن النصوص القديمة فى معظم اللغات قد تضمنت كلمات طويلة كثيرة الحروف وإن خلت فى بعض الأحيان مما يسمى بتنافر الحروف مجتمعة . ولذا لا ندهش حين نرى أن كثيراً من الـكلمات الجاهلية الـكثيرة الحروف قد انقرضت على مر العصور ، كتلك الأوزان التى يشير إليها الصرفيون فى كتبهم والتى لا نـكاد

(1) Language, its nature p.415

(٢) راجع موسيقى الشعر ص ٣١ .

نرى لها أثراً فى القرآن الكريم ، أو الشعر العباسى مثل اقمنسس واسلنقى واحرنجم واطلخم واجرنثم . ومثل مايروى عن امرىء القيس : « رب جفنة مثعنجرة وطعنة مسحنفرة ... إلخ .

فليس فى مثل « احرنجم » حروف متنافرة فى اجتماعها ، ومع هذا فقد اندثر هذا النوع من الكلمات الطويلة ، وشاع فى اللغة العربية تلك الكلمات الثلاثية الحروف أو الرباعية الحروف ، وتكونت منها معظم كلمات اللغة العربية .

ويتبين من هذا أن ما يدعو إليه بعض العلماء من أن الأصل فى بنية الكلمات أن تكون ثنائية لا أساس له من الصحة ، بل يبدو من ملاحظاتنا فى كل العصور التاريخية أن العكس هو الصحيح ، أى أن الكلمات كانت طويلة ثم قصرت .

كتب الأب مرمرجى الدومنكى الأستاذ بالمعهد الفرنسى بالقدس كتاباً سماه « المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية » ، وقد حاول فى هذا الكتاب الصغير أن يبرهن على صحة نظريته من أن الأصل السامى القديم كان ثنائياً .

وقد عرض لعدة كلمات من بينها كلمة « الفصح » وهو العيد الإسرائيلى المعروف ، فافترض أن الأصل كان يتكون من الحرفين الأولين أى الفاء والصاد أو ما يشبههما كالباء والسين أو الشين ، وساق لنا كلمات من اللغات السامية المتباينة كالعبرية والآرامية والحبشية ، وقد تكون كل منها من حرفين الأول شفوى والثانى من حروف الصفير ، وكل هذه الكلمات تعبر عن معنى الخروج أو الانتشار أو الانفصال . . . إلخ . ثم افترض أن الأصل السامى الثنائى قد زاد مبناه باتصال الصوت الحلقى وهو الحاء . وتخصص معناه وأصبح مقصوراً على الاجتياز أو العبور ، وهكذا نشأت كلمة « الفصح » الشائعة فى العبرية بمعنى العيد المعروف . ويزعم لنا المؤلف أن الكلمة فى صورتها الثلاثية ، ومعناها

الخاص قد انتقلت من العبرية إلى شقيقاتهـا السامية ، وأنه لولا رجوعنا إلى الأصل الثنائى ما استطعنا الربط بين هذه اللغات فى اشتقاق هذه الكلمة ، لأن المعنى يكاد يتحد بين هذه اللغات حين نقتصر على الأصل الثنائى .

وليس يكفى لتدعيم مثل هذا الرأى أن يسوق الباحث عدة ألفاظ من بين كل كلمات اللغات السامية التى تعد بعشرات الآلاف . فالأمثلة التى ساقها المؤلف ليست فى الحقيقة إلا وليد المصادفة ، هذا إلى ما فى علاجه لتلك الأمثلة من تأويل وتخريج لا يخلو من التكلف والتعسف .

ثالثها : من المألوف المشاهد فى كل لغات الأمم المتمدينة أن الأصوات اللغوية تتكون بوساطة الهواء فى أثناء صعوده من الرئتين وخروجه من الفم ، ولا يتكون صوت عن طريق الشهيق أو دخول الهواء إلى الفم والرئتين إلا ما شاع بيننا من أصوات مبهمة نطلقها وقت الدهشة أو الاستنكار أو التضجر وحين الاستمتاع بشىء من الأشياء . وهى على كل حال ليست من كلمات اللغة المعترف بها .

أما فى بعض اللغات البدائية فقد دلت البحوث على أن من أصواتها مايتكون عن طريق دخول الهواء إلى الفم والرئتين ، ويسميها المحدثون Clicks ، وقد كثرت هذه الأصوات فى بعض لغات أفريقيا التى تمثل مرحلة قديمة لتطور اللغة الإنسانية مما جعل المحدثين يفترضون أن اللغة الإنسانية فى عصور ما قبل التاريخ كانت تشتمل على مجموعة كبيرة من الأصوات التى تتكون بهذه الطريقة .

(ب) الميل إلى الغناء فى أثناء النطق :

دلت الملاحظات الحديثة على أن كثيراً من اللغات فى صورها القديمة كانت تعنى بالتنغيم ، وتعدد الدرجات الصوتية ، من صعود وهبوط فى أثناء النطق ، وأن مثل هذا قد أخذ فى الانقراض تدريجياً حتى أصبح الأمر على الصورة التى

نألفها الآن . كذلك لاحظ الباحثون أن تعدد الدرجات الصوتية لا يزال شائعاً في كثير من لغات الأمم البدائية ، مما جعل المبشرين من الأوربيين يصفون القوم بأنهم يغنون في أثناء كلامهم حتى ليحسب السامع أن كل كلامهم غناء . وهم عادة ينسبون هذه الظاهرة إلى قوة العاطفة في هؤلاء القوم ، فكلامهم وقت الغضب ككلامهم وقت السرور يتضمن سلسلة متنوعة من الدرجات الصوتية .

أما في الأمم المتمدينة ، حيث يطالب المرء بضبط النفس فنراه يلتزم في كلامه وتيرة واحدة تكاد تخلو من التنويع .

على أن هذا التنويع في الدرجة الصوتية الذي نلحظه في لغات الأمم البدائية ليس كذلك الذي نلحظه الآن في اللغة الصينية التي فيها يختلف المعنى باختلاف النغمة الموسيقية . فليس يرتبط التنويع في لغات الأمم البدائية أي نوع من الارتباط بمدلولات الكلمات . وعلى هذا لا يصح أن تعد اللغة الصينية مرحلة قديمة من مراحل التطور اللغوي ، بل هي في الحقيقة قد مرت في أطوار كما مرت لغاتنا الحديثة ، غير أنها بدل أن تفقد هذا التنويع في الدرجة قد استغلته في أمر آخر وهو التعبير عن مدلولات متباينة للألفاظ .

ويبدو من كل ما تقدم أن اللغات الإنسانية ، في أقدم صورها كانت مملوءة بمجاميع من الأصوات المتنافرة والكلمات الطويلة الكثيرة الحروف ، وكانت تصدر أصواتها عن طريق الزفير والشهيق ، فلدخول الهواء إلى الرئتين أصوات ولخروجه أصوات ، وأخيراً كانت أشبه بالغناء منها إلى الكلام .

صورة خيالية لنشأة اللغة

نستطيع مما كتبه المحدثون أن نتصور الكلمات في نشأتها كثيرة المبنى قليلة المعنى ، فكأنا نسمع جعجعة ولا نرى طحناً . أما المجتمع فهو جماعة من

الشباب يمرحون ويلعبون ويستمتعون بالنطق دون هدف معين سوى المتعة واللعب بألسنتهم كما كانوا يلعبون بأيديهم وأرجلهم . أى أن اللغة نشأت فى صورة لعب ممتع لا تهدف إلى إيصال معنى إلى السامع ، بل كانت أشبه بمناغاة الطفل وأصواته المبهمة التى يطلقها أمامنا دون هدف معين .

ومن الغباوة أن ننساق مع بعض الفلاسفة الذين تصوروا أن الهدف الأصلى من الكلام كان التفاهم وإيصال المعانى إلى السامع ، فلم يكن الإنسان الأول معنياً بالأفكار عناية هؤلاء الفلاسفة ، ولكن عنايته كانت مقصورة على الغرائز والعاطفة ، ولعل الحب والغريزة الجنسية أقوى هذه العواطف ، فهو ينطق أو يصوت ليسترعى انتباه الأليف ، ويثبت وجوده واستقلاله ، كالطير حين ينتقل من فنن إلى فنن وهو يغنى غناء متواصلا لعله بهذا ينال الحظوة لدى أليفه من الطيور .

كذلك كان الإنسان الأول يغنى فى أثناء صيده وفى حربه ، وفى كل مايقوم به ، غناء لا كغنائنا يهدف إلى الطرب أو يتضمن أصولا وقواعد ، وإنما هو تصويت منسجم تتردد فيه الأصوات والمقاطع .

ثم تطور هذا النطق من مجرد اللعب والمتعة وأصبح ذا هدف فيما بعد ، واستغل فى التعبير عن كل ما يدور بخلد الإنسان من خير أو شر .

ومثل التطور الكلامى كمثل التطور فى الكتابة حين بدأت تصويرية قد يرمز فيها المرء بالصورة الواحدة لعبارة ذات أحداث متعددة ، ثم صارت أخيراً إلى الكتابة الهجائية التى يرمز فيها للصوت الواحد بحرف واحد ، فأخذ كل حرف الفكرة الكلية وأصبح يستعمل فى الكلمات المتباينة . وهكذا الكلام بدأ فى صورة كتلية ثم تحللت الكتلة إلى عناصر هى التى نسميها الآن بالكلمات .

أما كيف انتقلت الأصوات الخالية من الدلالة إلى ألفاظ ذات دلالات ومعان فنستطيع أن ندركه بسهولة حين نتذكر عمل الطفل وربطه بين ما يسمع وبين ما يشاهد من أحداث ، مما يؤدى فى آخر الأمر إلى فهمه لمدلولات الألفاظ .

فإذا تصورنا زعيما امتاز بالقوة الجسمانية والجرأة ينطق أمام ذويه بأصوات مبهمة لا يهدف من ورائها إلى هدف معين ، وتصادف أن حدث حينئذ انتصار على وحش مفترس . ربط السامعون بين هذا الحدث وبين أصوات الزعيم ، وقد يرددون ما يسمعون ، ويكررون ترديده كلما تكرر هذا الحدث ، حتى تصبح تلك الأصوات بمثابة علم عليه ، ولا يلبث العلم أن يتطور إلى كلمة عامة . ولدينا فى العصور الحديثة كثير من الأمثلة التى تبرهن على إمكان تطور العلم إلى لفظ عام ذى معنى كلى . فمن « الإله » نشأ « التأله » ، ومن الشيطان جاء « تشيطن » ، ومن إبليس نشأت الأبلسة ، وأصبح لأمثال العلمين « حاتم ونيرون » دلالات كلية تستغل فى لغات كثيرة .

أما الكلمات ذات الصلة الوثيقة بين صوتها ومدلولها وهى التى يطلق عليها Onomatopoeia فأمرها هين ونشأتها واضحة ؛ فهى قليلة فى كل لغة ولا تفسر الكثرة الغالبة من ألفاظ اللغات . ولذا نرجح أن معظم الكلمات قد أخذت مدلولاتها بطريق المصادفة ، أى أنها كانت أصواتاً مبهمة لا هدف منها سوى اللعب والمتعة ، ثم تصادف أن نطق بها فى أثناء حدث من الأحداث ، فارتبطت به ارتباط العلمية ، وتدرج العلم من معناه الخاص إلى معنى عام .

فإذا فسرت الأسماء فى قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » بمعنى الأعلام ، ساير هذا التفسير أحدث ما ينادى به اللغويون فى عصرنا الحاضر .

الفصل الثانى

الدلالة

أداتها ، أنواعها ، فهمها

— ١ —

بين اللفظ والكلمة

أداة الدلالة هى اللفظ أو الكلمة ، وتكاد تجمع المعاجم العربية على أن « الألفاظ » ترادف « الكلمات » فى الاستعمال الشائع المألوف ، فلا فرق بين أن يقال أحصينا ألفاظ اللغة ، أو كلمات اللغة . ومع هذا فالنحاة فى كتبهم يحاولون التفرقة بين كل من اللفظ والكلمة والقول ، فى حديث طويل نخرج منه أنهم يستشعرون مع اللفظ عملية النطق وكيفية صدور الصوت ، وما يستتبع هذا من حركات اللسان والشفتين . فإذا ربط هذه الأصوات المنطوق بها وما يمكن أن تدل عليه من معنى تكونت فى رأيهم « الكلمة » ، أى أن الكلمة أخص لأنها لفظ دل على معنى .

من أجل هذا آثرنا فى عنوان هذا الكتاب أن نستعمل « الألفاظ » دون « الكلمات » لأن أوضح ما نهدف إليه هنا هو أن نتبين الصلة بين ما ننطق به من أصوات وما تدل عليه من دلالات ، ونتعرف على أثر هذا المنطوق به فيما يوحيه إلى الأذهان من صور قد تختلف قوة وضعفاً ، وتتباين فى رفعتها أوخستها ، وتتأرجح بين الوضوح والإبهام .

غير أنا فى صلب الكتاب قد خصصنا « الكلمات » بالاستعمال ، لأنها الألفاظ ذات الدلالات ، وهدفنا الأكبر هنا هو تلك الدلالات ، وليس من أغراض هذا البحث أن نحلل الألفاظ إلى عناصرها الصوتية ، ولا أن نبين ما يتم معها من عمليات عضلية فى الجهاز النطقى أو جهاز السمع .

والكلمة وإن كانت ذات مفهوم واضح فى أذهان كل الناس ، نراها تظفر بجدل على حد كبير من المحدثين من اللغويين حين حاولوا تعريفها ، وبيان حدودها. فعلماء الأصوات لا يرون فى الكلام المتصل حدوداً تميز بين كلمة وأخرى ، فلا يستطيع السامع تحليل الجملة أو العبارة إلى مجاميع صوتية كل مجموعة منها تنطبق على ما يسمى بالكلمة ، إلا حين يستعين بالدلالات التى تتضمنها الجملة ، أو العبارة . فكلمات الجملة متداخلة متشابكة يرتبط بعضها ببعض فى أثناء النطق ارتباطاً وثيقاً . وليس فى الكلمة عنصر صوتى يحدد بدءها أو نهايتها حين تكون فى الكلام المتصل . فإذا سمع أجنبى عن اللغة قارئاً يقرأ قوله تعالى « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » ، يصعب عليه أن يحدد نهايات الكلمات أو بدءها إلا إذا كان على علم بالدلالات . من أجل هذا يقال لنا إن الأساس الصوتى لا يصلح وحده للتمييز بين حدود الكلمات فى الكلام المتصل . وليست اللغات فى الحقيقة إلا كلاماً متصلا ، ويندر فى الاستعمال العادى أن يكتفى المتكلم بكلمة واحدة للتعبير عما يدور بخلده .

على أن بعض اللغويين من المحدثين يحاول جاهداً أن يبين لنا حدود الكلمات على أساس صوتى بحت ، وذلك بالاستعانة بالنبر وقواعده فى اللغة المراد بحث كلماتها . فمن اللغات ما تلتزم النبر فى نهاية الكلمات ، ومنها ما تلتزمه فى بدئها . وهنا يمكن أن يقال إن حدود الكلمات قد تميزت بوسيلة صوتية . ولكن هذه المحاولات قد باءت فى آخر الأمر بالفشل ، لأن النبر وحده على حد

تعبير ﭬندريس[1] « لا يكفى لتحديد الكلمة ، لأنه لا يعين حدودها إلا بصورة ناقصة . نعم إن النبر فى بعض اللغات يتوقف على آخر الكلمة ، وفى البعض الآخر نرى أن مبدأ الكلمة هو المنبور ، ولكن هذه الحالات لا تستغرق جميع الإمكانيات » . وينتهى فندريس بقوله « كل ذلك يحملنا على تحديد الكلمة الصوتية مستقلة عن النبر » .

أما ما يرويه فندريس عن «جوتيو» من محاولة تحديد البدء أو النهاية للكلمة على أساس ما يعترى نهايات الكلمات من ضعف أو خور فى النطق ، فيبدو أن هذه الصفة إن صح وجودها فى بعض اللغات لا تكاد تلتزم فى الكثرة الغالبة من اللغات الإنسانية . ومن المغالاة حينئذ أن يدعى أن للكلمة الصوتية حدوداً مستقلة فى لغة من اللغات .

ويبدو أن تشابك الكلمات أو تداخلها فى الكلام المتصل هو الذى يجعل الطفل فى المراحل الأولى يلتقط الكلام ممن حوله فى صورة كتل لا انفصام بين أجزائها . ويظل الطفل يستعمل تلك الكتل اللغوية زمناً ما ، دون تحليل إلى أجزائها أو عناصرها ، كلما أراد التعبير عن رغبة له من رغبات الطفولة الأولى . فقد سمعها للمرة الأولى ككتلة متماسكة الأجزاء ، فتعلمها هكذا دون تدقيق فى تفاصيلها أو تمييز بين عناصرها . ويظل على هذه الحال حتى تتكرر التجارب اللغوية على سمعه فى مناسبات متعددة متباينة ، قبل أن يقوم بعملية تحليل الكلام إلى أجزائه ، ليتبين استقلال الكلمات بعضها عن بعض .

وقد كان مما لاحظناه فى أطفالنا أنهم تعودوا سماع ذلك السؤال التقليدى حين يقابلون شخصاً ما للمرة الأولى فيسألهم : « اسمك إيه يا شاطر ؟ » وتعلم كل منهم أن يجيب عن اسمه قائلا : محمد أو على أو زينب . . . إلخ ويتكرر نفس

1 — Language. p. 87. ترجمة الدواخلى والقصاص

السؤال ، ويتكرر معه نفس الجواب . ويحتفظ الطفل فى بادىء الأمر بصورة تقريبية لهذا السؤال التقليدى دون تمييز بين أجزائه وعناصره . فإذا نطق أمامه أحد الناس بما يشبه هذا السؤال فى مجموعه كأن يقول مثلا «سمك ليه ياشافط؟»، فقد يسارع الطفل إلى الإجابة التقليدية وينطق باسمه .

كذلك أدى الربط الوثيق بين الكلمات فى الكلام المتصل إلى بعض الظواهر اللغوية التى منها الإدغام ، وذلك كأن يفنى الحرف الذى تنتهى به الكلمة فى الحرف الذى تبدأ به الكلمة التالية . وأمثلة هذا كثيرة حتى فى القراءات القرآنية [١] . ومن تلك الظواهر تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض فى الجهر والهمس ، وفى الشدة والرخاوة ، ونحو هذا مما يعرض له علمـــاء الصوتيات فى بحوثهم [٢] .

بل لقد أدى هذا الربط الوثيق بين الكلمات إلى خلط بين نهاياتها وبدئها فى بعض الأحيان ، مما ترتب عليه فى آخر الأمر ظهور كلمات جديدة فى اللغة ، مثل الفعل العامى « جاب » ، فأغلب الظن أنه نشأ عن التعبير القديم « جاء بكذا » ، وأن الباء الجارة قد اعتبرت نهاية للفعل السابق عليها ، وكذلك الكلمة « عقبال » التى يرجح أنها تكونت من الاستعمال القديم عقبى لكم أو لها أو لنا . . . إلخ ! فتسربت اللام إلى الكلمة السابقة عليها ، وأصبحت تكون جزءاً منها .

ومثل هذا يمكن أن يقال حين نبحث فى الاستعمالات العامية « أكنه ، أعزنه ، أجرنه » التى يرجح أنها نشأت عن العبارات القديمة [كما أنه ، أعزو أنه ، جرى أنه] . . . إلخ .

---

(١) أنظر أمثلة هذا فى كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١٢٣ .
(٢) الأصوات صفحة ١١٢ .

ويبدو أن القدماء من علماء العربية لم يصادفوا صعوبة فى تحديد معالم الكلمة ، فقد قنع أكثرهم بوصفها على أنها « اللفظ المفرد » أو « القول المفرد »، ولم يخطر فى أذهانهم أن الإفراد فى الكلام المتصل لا يمكن تصوره إلا بالسكتات أو الوقفات على مجموعات صوتية من هذا الكلام . ومسألة السكتات أو الوقفات مرجعها إلى الناطق بالكلام ، فهو إن شاء وقف بعد حرفين أو ثلاثة أو عشرة أو أكثر . ويتكون نطقه حينئذ من مجموعات صوتية ، تختلف طولا وقصراً ، منها ما ينطبق على الكلمة الواحدة ، ومنها ما قد ينطبق على كلمتين أو أكثر . فلو أن اللغات تحتم الوقوف عند آخر كل كلمة فى أثناء الكلام ، لأمكن حينئذ تحديد الكلمات على أساس صوتى محض ، ولأمكن أن يكون للإفراد فى اصطلاح هؤلاء العلماء دلالة صوتية واضحة .

وقد بدا النقص فى التعريف المتقدم لبعض هؤلاء النحاة ، فحاول تلافيه بإشراك المعنى مع اللفظ وقال : الكلمة لفظ مفرد دل على معنى مفرد . وهكذا نراه يتخذ لتعريف الكلمة أو تحديدها أساسين هما اللفظ والمعنى . ومع أن هذا التعريف ينطبق على الكثرة الغالبة من كلمات اللغة العربية ، نرى أنفسنا معه فى حيرة حين نتساءل : هل تعد أداة التعريف كلمة ؟ وهل تعد الباء الجارة كلمة ؟

وليس المحدثون من علماء اللغات بأوفر حظاً من القدماء فى تعريف الكلمة أو تحديدها ، فقد سلكوا فى هذا مسالك شتى ، وذهبوا فيه مذاهب متعددة ، جعلتهم فى آخر الأمر ينتهون إلى صعوبة تحديد الكلمة بحيث ينطبق هذا التحديد على كل اللغات ، وقنعوا بمحاولة تحديدها فى لغة ما ، غير أنهم يجمعون على أن الأساس الصوتى وحده لا يصلح لتحديد معالم الكلمات ، وأنه لا بد من أن يشترك معه معنى الكلمة أو وظيفتها اللغوية ليمكن تحديدها .

وقد اتضح للعالم المشهور سابير Sapir [1] أن تحليل الكلام إلى عناصر أو وحدات ذات دلالة يقسم هذا الكلام إلى مجموعات صوتية منها ما ينطبق على الكلمة ، ومنها ما ينطبق على جزء من كلمة ، ومنها ما ينطبق على كلمتين أو أكثر • خذ مثلا جملة : « قطعت الشجرة بالفأس ليلة أمس » ، التى يمكن تحليلها إلى عناصر ذات، دلالات متباينة هى :(١) قطع (٢) ت (٣) ال (٤) شجرة (٥) ب (٦) ال (٧) فأس (٨) ليلة أمس •

ودلالة العنصر الأول هى الحدث أو الفعلية ، والعنصر الثانى هى المفـــرد المتكلم ، الثالث هى التعريفية ، والرابع النبات المعروف ، والخامس الآلية ، والسادس التعريفية ، والسابع الأداة المعروفة ، والثامن الزمنية • ولا شك أن العنصر الثانى والثالث والخامس والسادس أجزاء للكلمة ، فى حين أن العنصر الثامن وحده يتكون من كلمتين •

ولعل « بلومفيلد » [1] Bloomfield فى تحديده للكلمة بقوله : « أصغر صيغة حرة » ، إنما أراد أن يتفادى اعتبار أمثال أداة التعريف أو الباء الجارة من الكلمات •

ومهما يكن من اختلاف وجهات النظر بين المحدثين فى تحديد الكلمات أو تعريفها ، فإنهم يشيرون فى كتبهم إلى اختبار دقيق يمكن أن نتبين منه معالم الكلمة أو حدودها ، وذلك بأن يمكن إفرادها بالنطق ، وحذفها من الكلام أو إقحامها فيه ، أو الاستعاضة عنها بأخرى • فضمير المتكلم فى الجملة السابقة لا يمكن إفراده وإن أمكن حذفه والاستعاضة عنه بغيره • أما « شجرة » فى هذه الجملة ، فيمكن إفرادها ، ويمكن إقحامها فى كلام آخر مثل « نبتت الشجرة فى حديقتنا » ، ويمكن الاستعاضة عنها بكلمة مثل « النخلة » كأن يقال « قطعت النخلة ليلة أمس » •

---

(1) language. p. 25.

(2) Language.p . 178.

وبرغم هذه الحيرة فى تحديد الكلمة بين القدماء والمحدثين، فإن اللغة تتضمن من العناصر الواضحة الاستقلال فى لفظها ومدلولها ، وهى التى يعرفها الناس بالكلمات ككل الأسماء والأفعال . وتلك هى التى تكون الكثرة الغالبة من عناصر أى لغة من اللغات ، وهى التى يبلغ من وضوحها لفظاً ومعنى أن يتعرف عليها الطفل الصغير بعد زمن قليل من تعلمه لغة أبويه ، ويشترك فى تمييزها الجاهل والمتعلم .

وهذا النوع من الكلمات هو الذى يعنينا هنا لوضوحه فى لفظه ، ووضوحه فى دلالته، وتميزه بين العناصر اللغوية فى كل اللغات البشرية ، لأن كلا من هذه الكلمات يتضمن دلالة اجتماعية معروفة مألوفة بين جمهور المتكلمين من أبناء اللغة.

— ٣ —

أنواع الدلالات

تصور معى صديقين يتحدثان ويقول أحدهما للآخر [لا تصدقه فهو كذاب هل يعقل أن تنضخ العين بالنفط فى وسط الصحراء بعد ثوان] ؟ ! ! .

لكى يفهم السامع المراد من هذه العبارة لا بد أن يكون قد مر قبل سماعها بتجارب كثيرة يستعين بها على الإحاطة بظروف هذا الكلام وملابساته . ولا يتم فهمه لها بغير الوقوف على تلك الظروف والملابسات التى منها صلة المتكلم بالمتحدث عنه ، بل وصلة المتكلم بالسامع ، وما يمكن أن يتضمنه المشروع الذى يدور حوله الحديث من إمكانيات مالية وفنية وترتيب وتنظيم . ولا بد للمتكلم والسامع فى مثل هذا الحديث من تجارب علمية سابقة تتصل بالنفط وطبيعته ، وكيفية استخراجه أو التنقيب عنه ، وتجارب أخرى عن الصحراء وطبيعة تكونها ، وموقعها الجغرافى، وغير ذلك من بيانات ومعلومات مشتركة بين السامع والمتكلم على أساسها يفهم أحدهما الآخر وبدونها لا يتم هذا الفهم .

وتتبع تلك الظروف والملابسات يستلزم الرجوع إلى الوراء زمناً طويلا ، وتقصى حالات وتجارب كثيرة لا تتسع لها صفحات من الوصف للوقوف على تفاصيلها . هذا إلى أن لنفسية كل من المتكلم والسامع دخلا فى فهم هذا الحديث. فهل من طبيعة المتكلم المغالاة أو التشاؤم ، وهل من طبيعة السامع حسن الظن بالناس ، أو التشكك والريبة فى سلوكهم ، إلى غير ذلك من ظروف معقدة لا تكاد تقع تحت حصر .

ولكى يتنبأ اللغوى بأن مثل هذا الحديث يستجيب له السامع بنفس القدر الذى أراده المتكلم ، لابد له من الإحاطة بكل هذه الظروف والملابسات ، وليست هذه الإحاطة بالأمر الهيّن السهل ، لأنها تتطلب زمناً طويلا وبحثاً مستفيضاً .

وليس يعتمد الفهم على مجرد نطق المتكلم بتلك الكلمات ، فقد يلفظ بها هذا المتكلم أمام سامع آخر يقف أمامها مشدوها لا يدرى الهدف منها ، ولا يلبث أن يتساءل : من هذا الذى تتحدث عنه ؟ ولماذا لا أصدقه ؟ وأى صحراء تعنى ؟ وأى موقع فى هذه الصحراء ؟ ومن القائمون بهذا المشروع ؟ ومن المولون له ؟ بل قد يتساءل عما إذا كان النفط يستخرج من عيون الأرض ، أو يصنع فى معامل ومصانع تقوم بتركيبه كما تركب الأدوية والمستحضرات !!

فالفهم عن طريق الوقوف على تلك الظروف والملابسات عملية تتم قبل الفهم للنص اللغوى أو العبارة المنطوق بها .

دعنا نفترض أن المشاركة قد تمت بين كل من المتكلم والسامع فى ظروف سابقة ، بحيث أصبح كل منهما يقف على كل الملابسات ، وأصبح من الممكن لهذا المتكلم أن ينطق بمثل هذه العبارة ، كما أصبح من الممكن لهذا السامع أن

يستجيب لها ، ثم دعنا بعد هذا نتساءل عن الدلالات التي يستمدها السامع من مثل هذا المنطوق :

تتضمن هذه العبارة أنواعاً من الدلالات يمكن أن تقسم بحسب مصدرها إلى ما يأتي :

١ — دلالة صوتية :

وهي التي تستمد من طبيعة بعض الأصوات في هذه العبارة ، فكلمة « تنضخ » كما يحدثنا كثير من اللغويين القدماء تعبر عن فوران السائل في قوة وعنف . وهي إذا قورنت بنظيرتها « تنضح » التي تدل على تسرب السائل في تؤدة وبطء ، يتبين لنا أن صوت الخاء في الأولى له دخل في دلالتها ، فقد أكسبها في رأي أولئك اللغويين تلك القوة وذلك العنف . وعلى هذا فالسامع يتصور بعد سماعه كلمة « تنضخ » عيناً يفور منها النفط فوراناً قوياً عنيفاً .

والفضل في مثل هذا الفهم يرجع إلى إيثار صوت على آخر ، أو مجموعة من الأصوات على أخرى في الكلام المنطوق به .

هناك إذن نوع من الدلالة تستمد من طبيعة الأصوات ، وهي التي نطلق عليها اسم الدلالة الصوتية .

ومن مظاهر هذه الدلالة الصوتية « النبر » فقد تتغير الدلالة باختلاف موقعه من الكلمة . فبعض الكلمات الإنجليزية تستعمل « اسماً » إذا كان النبر على المقطع الأول منها ، فإذا انتقل النبر على مقطع آخر من الكلمة أصبحت « فعلا » وتستعمل حينئذ استعمال الأفعال .

أما في جملتنا السابقة [هل يعقل أن تنضخ العين في وسط الصحراء في ثوان] ، فيمكن أن يزيد الضغط أو النبر على « وسط الصحراء » فيصبح موضع الغرابة

أن تنبثق بئر النفط فى وسط الصحراء ، وأن هذا من غير المألوف فى مهنة التنقيب عنه ، وإن سواحل البحار مثلا هى المكان الطبيعى لمثل هذه الآبار . أما إذا زاد المتكلم الضغط أو النبر على « فى ثوان » ، كان محل الغرابة أن تتم مثل هذه العملية المعقدة فى مثل هذا الزمن القصير .

ومن مظاهر الدلالة الصوتية ، ما نسميه بالنغمة الكلامية intonation وتلعب هذه النغمة فى بعض اللغات دوراً هاما . ففى اللغة الصينية مثلا قد يكون للكلمة الواحدة عدة دلالات لا يفرق بينها إلا اختلاف النغمة فى النطق .

خذ مثلا تلك العبارة العامية « لا ياشيخ ؟ ! » وتذكر أنك تستطيع أن تنطق بها بعدة نغمات ، وهى مع كل نغمة من تلك النغمات تفيد دلالة خاصة ، فهى مرة لمجرد الاستفهام ، وأخرى للتهكم والسخرية ، وثالثة للدهشة والاستغراب وهكذا .

فتغير النغمة قد يتبعه تغير فى الدلالة فى كثير من اللغات .

٢ — الدلالة الصرفية :

هناك نوع من الدلالة يستمد عن طريق الصيغ وبنيتها ، ففى جملتنا السابقة ، تخير المتكلم [كذّاب] بدلا من « كاذب » ، لأن الأولى جاءت على صيغة يجمع اللغويون القدماء على أنها تفيد بالمبالغة . فكلمة « كذاب » تزيد فى دلالتها على كلمة « كاذب » ، وقد استمدت هذه الزيادة من تلك الصيغة المعينة ، فاستعمال كلمة « كذاب » ، يمد السامع بقدر من الدلالة لم يكن ليصل إليه أو يتصوره لو أن المتكلم استعمل « كاذب » .

٣ — الدلالة النحوية :

يحتم نظام الجملة العربية أو هندستها ترتيباً خاصاً لو اختل أصبح من العسير أن يفهم المراد منها . تصور مثلا أن جملتنا السابقة أصبحت [لا تصدقه فى وسط الصحراء فهو هل يعقل فى ثوان النفط كذاب العين تنضخ] !!

٤ — الدلالة المعجمية أو الاجتماعية :

وهى الدلالة التى نوجه إليها هنا كل عنايتنا ، كالدلالة التى تستفاد من « التصديق »،ودلالة « الكذب »، « الصحراء »، و «النفط»، و «النضوخ» إلى آخر ما فى جملتنا السابقة .

فكل كلمة من كلمات اللغة لها دلالة معجمية أو اجتماعية ، تستقل عما يمكن أن توحيه أصوات هذه الكلمة أو صيغتها من دلالات زائدة على تلك الدلالة الأساسية ، التى يطلق عليها الدلالة الاجتماعية .

فكلمة «الكذاب» فى جملتنا الآنفة الذكر تدل على شخص يتصف بالكذب؛ وتلك هى دلالتها الاجتماعية غير أنها اكتسبت عن طريق صيغتها قدراً آخر من الدلالة يسمى بالدلالة الصرفية.

والفعل « تنضخ » كلمة تدل على تسرب السائل ، وتلك هى دلالتها الأساسية ، ولكنها فى رأى اللغويين قد اكتسبت عن طريق تكوينها الصوتى وطبيعة الأصوات فيها ، قوة وعنفا فى تلك الدلالة الأساسية .

ومع أن لكل كلمة دلالتها الاجتماعية المستقلة ،نلحظ أنه حين تتركب الجملة من عدة كلمات تتخذ كل كلمة موقفاً معيناً من هذه الجملة ، بحيث ترتبط الكلمات بعضها ببعض على حسب قوانين لغوية خاصة بالنظام النحوى ، وفيه تؤدى كل كلمة وظيفة معينة .

ولا يتم الفهم أو يكمل إلا حين يقف السامع على كل هذه الدلالات . وليس من الضرورى أن نتصور السامع على علم بالنظام الصرفى والنحوى فى اللغة على الصورة المعقدة التى نراها فى كتب النحاة الأول . ولا نفترض فى السامع لكى يتم فهمه لجملة من الجمل أن يكون قد اتصل أى نوع من الاتصال بعلوم اللغة من نحو وصرف ، بل يكفى أن يكون السامع قد عرف عن طريق التلقى والمشافهة فى تجارب سابقة الفرق بين استعمال كلمتى « الكذاب » و « الكاذب » ، وأن يكون قد تعود من المناسبات الكثيرة كيفية تكوين الجمل والربط الصحيح بين كلماتها .

ويكتسب أبناء اللغة كل هذه الدلالات عن طريق التلقى والمشافهة ، ويتطلب هذا الكسب زمنا ليس بالقصير قبل أن يسيطر المرء على لغة أبويه ، وتصبح أنظمتها بمثابة العادات الكلامية ، يؤديها دون شعور بخصائصها ، أو على الأقل دون أن يشعر بها شعور عالم النحو والصرف .

ولا تلبث الدلالات الصوتية والصرفية والنحوية بعد المران الكافى أن تحل من كل منا منطقة اللاشعورية أو شبه الشعورية يراعيها بطريقة تكاد تكون آلية دون جهد أو عناء كبير ، وتلك هى المرحلة التى يعرفها اللغويون بالسليقة اللغوية .

أما الدلالة الاجتماعية للكلمات فتظل تحتل بؤرة الشعور ، لأنها الهدف الأساسى فى كل كلام . وليست العمليات العضوية التى نقوم بها فى النطق بالأصوات إلا وسائل يرجو المتكلم أن يصل عن طريقها إلى ما يهدف من فهم أو إفهام .

وقد اختص المحدثون من اللغويين تلك الدلالة الاجتماعية بالدراسة

والبحث وجعلوا منها فرعاً دراسياً مستقلا سموه Semantics ، زادت عنايتهم به خلال القرن العشرين .

ويبدو أن بعض اللغويين من المحدثين يميلون إلى التفرقة بين الدلالة المعجمية والدلالة الاجتماعية ، إذ أن المعاجم وإن كانت مهمتها الأساسية هى توضيح تلك الدلالات الاجتماعية ، غير أنها قد تعرض لبحث مسائل من النحو والصرف . فليس من مهمة المعجم الحديث أن يبين كيف نشتق اسم الفاعل من كل فعل من أفعال اللغة ، ولا الجمع لكل اسم من أسماء اللغة ، ولكن المعجم قد يعرض لشىء من هذا حين تكون الصيغة الشائعة غير جارية على النظام المألوف لاسم الفاعل أو الجمع . فعالم اللغة يحاول تقعيد القواعد ويوقفنا على المطرد القياسى منها ليستطيع كل منا استنباطها بنفسه ، أو قياسها دون حاجة إلى سماعها من غيره ، أو الكشف عنها فى معجم من المعاجم . فإذا استقرت تلك القواعد وأصبح كل منا يدرك كيف يشتق اسم الفاعل اشتقاقا قياسياً مطردا وكيف يجمع الاسم جمعاً قياسيا مطرداً ، وكيف يستخرج المضارع من الماضى أو العكس بطريقة قياسية مطردة ، لم يعد هناك حاجة إلى النص على كل هذا فى صلب المعاجم . أما مايجرى على غير المألوف من جموع أو مشتقات فتلك هى التى يعنى بها بعض مؤلفى المعاجم ويرى من الضرورى النص عليها .

وقد أدرك هذه الحقيقة العلمية معظم أصحاب المعاجم العربية القديمة، فنراهم فى غالب الأحيان لاينصون إلا على الصيغ الغريبة غير الجارية على القياس والاطراد فى ظواهر اللغة .

فليس من الضرورى أن ينص صاحب المعجم العربى على أن جمع « سيف » « سيوف » لأن هذا هو المطرد القياسى ، ولكنه قد يرى من الضرورى أن يشير إلى أنه جمع أيضاً على (أسياف) . وليس من الضرورى أن ينص على

أن مضارع الفعل « نكح » هو « ينكح » بفتح الكاف ، ولكنه قد ينص على سماع هذا المضارع بكسر الكاف أيضا .

ومن الحق أن يقال هنا إن معاجمنا العربية القديمة لم تلتزم هذا الطريق السوى فى عرض مفرداتها ، بل جمع بعضها بين المطرد القياسى والشاذ السماعى فى كثير من الأحيان . ولعل تشعب القواعد العربية واختلاف وجهات النظر فيها ، بل واضطرابها فى بعض الأحيان ، كل هذا جعل مهمة واضع المعجم العربى عسيرة .

ولكن المعاجم قديمها وحديثها تتخذ من الدلالة الاجتماعية للكلمات هدفاً أساسياً ، وتكاد توجه إليها كل عنايتها . فلا غرابة إذن ألا يفرق بعض اللغويين بين الدلالة المعجمية والدلالة الاجتماعية ، وهذا هو ما ارتضيناه هنا أو قنعنا به . فكلما ذكرنا الدلالة المعجمية لا نعنى بها سوى الدلالة الاجتماعية .

تلك هى الدلالات المتعددة التى يمكن أن تستفاد من النص المنطوق به ، أما تلك الدلالات الأخرى التى تستمد من الظروف والملابسات أو مايسمى أحيانا بسياق الكلام ، فمتشعبة معقدة . ولعل من المفيد هنا لبيان قدر هذا السياق من التشعب والتعقيد أن نسوق حدثا لغوياً صغيراً نفترض أن يتم بين شخصين متكلم وسامع ، محاولين وصف تلك الظروف والملابسات فى كل خطوة من خطوات هذا الحدث اللغوى ، حتى يتم فهمه ، ويتحقق الهدف منه .

— ٣ —

كيف يتم الفهم ؟

تصور معى رجلا يسير فى أحد شوارع المدينة مع صبى صغير ، ثم تصور أن يمر الرجل والصبى بمطعم يعرض بعضاً من أصناف الطعام الشهى ، وتنبعث

منه رائحة مشهية لبعض الشواء ، فيسترعى كل هذا انتباه ذلك الصبى ، ويسيل له لعابه، ويحس بالجوع ، فينطق بمجموعة من الأصوات اللغوية ، ويقول للرجل جملة مثل (هات شطيرة من هذا الشواء) . وهنا نرى الرجل يتقدم نحو ذلك المطعم ، ويخرج بعضا من النقود ، ويشترى تلك الشطيرة ، ويناولها للصبي فيلتهمها التهاماً مسروراً مغتبطاً .

فى هذا الحدث الصغير على بساطته تمت عمليات كثيرة بعضها عضوى وبعضها نفسى قبل أن يتحقق على صورة من الصور . وأولى تلك العمليات أن شعاعاً من الضوء قد انعكس على عينى الصبي من ذلك الطعام المعروض ، ففسره الصبي بأن أمامه طعاماً شهيا ، وقد صحب هذا الضوء المنعكس رائحة تعود الصبي أن يشمها مع كل طعام يشتهيه ، وتصادف فى نفس الوقت أن كان الصبي يحس بإفراز فى فمه هو الذى نسميه باللعاب ، وبإفراز فى معدته فى شكل عصارة تولد الإحساس بألم الجوع .وكل عملية من تلك العمليات تتطلب من المتخصص دراسة طويلة وبحوثاً مستفيضة ، فطبيب العيون يفسر لنا فى مجلدات ضخمة كيف تنعكس أشعة الأشياء المرئية على العيون وكيف تتم الرؤية، وطبيب الأنف يوضح لنا كيف يكون الشم وكيف يرتبط بالتجارب السابقة لكل منا ، مما قد يستنفد فى بحثه زمنا طويلا ، وجهداً عقليا كبيراً . وطبيب ثالث يفسر لنا كيف يتم إفراز اللعاب ، ويوضح لنا كنه العصارة المعدية ، وما تتركب منه ، وأثرها فى شعور الإنسان ، ويتطلب كل هذا بحوثاً علمية يتوفر عليها نخبة من ذوى العقول الجبارة فى مجال من البحث يشترك فيه الطبيب والكيمائى والصيدلى وغيرهم .

وتتم كل هذه العمليات المعقدة لدى الصبي فى سرعة لا تكاد تجاوز بضع ثوان ، بعدها ينطق الصبي بتلك الأصوات اللغوية . فهى الشرط الأول الذى لابد أن يتحقق حتى يمكن أن يكون هناك مثل ذلك النطق .

أما عملية النطق فيشترك فيها هواء الرئتين ، ويشترك فيها الحنجرة واللسان والشفتان ، وتتم بعد عدة أشكال وأوضاع للسان فى الفم ، وعدة أشكال وأوضاع للشفتين . بعدها يصدر الهواء إلى الخارج ، وينتقل فى شكل موجات معينة إلى أذن السامع . فتحدث فى طبلتها أثراً خاصاً هو الذى تحمله أعصاب الأذن إلى المخ فيفسرها أو يفهمها .

وعملية النطق والفهم يعنى بها اللغوى وعالم النفس ، ويصرفان فى بحثها وتحليلها جهوداً علمية لاتقل عسراً عن الجهود التى يقوم بها من سبقوهم فى بحث العمليات التى تمهد لهذا النطق .

أما مايتم بعد النطق والفهم فـكأن يسارع الرجل إلى تلبية رغبة هذا الصبى ، ويخرج نقوده ، وينتظر دوره فى الشراء ، ويتحمل الوقوف والانتظار إلى أن يعد له صاحب المطعم ما يشتهى . وعملية الشراء ودفع تلك العملة الرمزية نظير شىء مرغوب فيه ، يستعين به المرء على دفـع ضرر محقق هو الجوع وما قـد يترتب عليه . هذه العملية الشرائية يبحثها رجل الاقتصاد فى علمه الذى ينظم المعاملات بين الناس .

بهذا نرى أن الحدث الصغير من أحداث الحياة يتطلب عمليات كثيرة معقدة ، بعضها يسبق النطق ويمهد له ، ثم عملية النطق نفسها التى بعدها تتم عمليات أخرى . وكل هذه العمليات ضرورية لصحة الفهم والتفاهم ، ولايتم هذا الفهم أو التفاهم إذا نقصت تلك العمليات عنصراً من عناصرها .

ولسنا نزعم أن الظروف التى أحاطت بالصبى فى مثلنا السابق تؤدى حتما وفى كل مرة إلى نفس العبارة التى نطق بها الصبى . فقد يرى الطعام ويشم الشواء ويحس بالجوع ، ومع هذا ينطق بعبارة أخرى أو لا ينطق ، إذ يتوقف هذا على صلة الصبى بالرجل ، وتجاربه معه ، فقد يـكون الرجل والداً لهـذا الصبى يدلله

ويلبي كل طلباته . وقد يكون الصبي خجولا فلا يتكلم ، وقد تكون تجاربه السابقة مع هذا الوالد لا تشجعه على النطق . كذلك ليس من الضروري أن يسارع الرجل إلى تلبية طلب الصبي ، فقد يكون خالي الوفاض لا يملك من المال ما يسمح بمثل هذا الشراء ، أو قد ينفر من أن يزج بنفسه في وسط الشارين المتزاحمين على الطعام ، فيعرف الصبي في رفق أو عنف ، إلى غير ذلك من الظروف والأحوال والملابسات التي لا تكاد تحصى عندما تحال مثل ذلك الحدث الصغير البسيط .

ويعنى اللغوي عادة بالتعرف على الدور الذي تقوم به العبارة المنطوقة ، أو تلك الأصوات اللغوية التي تصدر من الفم وتتلقفها الأذن . ويتضح هذا الدور حين نتصور أن الصبي كان وحده : وأحاطت به نفس الظروف من رؤية الطعام والإحساس بالجوع ، هنا نراه قد يندفع في صمت نحو الطعام ويشترى منه ، أو يختطف في خلسة بعض الشطائر . ومثله حينئذ مثل الحيوان الأعجم حين يرى الطعام أو يشمه فيندفع نحوه في شكل غرزي ليحصل منه على ما يسد رمقه ، ويمنع عنه ضرراً محققاً هو نتائج الجوع من مرض أو هزال . وقد ينجح في عمله فيحصل على الطعام وقد يفشل فيظل جائماً . فالإنسان الصامت يشبه الحيوان الأعجم إلى حد كبير .

أما الإنسان الناطق فهو في ظروف مواتية أكثر توفيقاً وأقرب إلى تحقيق أهدافه ، إذ يستعين بأخيه الإنسان ، ويتعاون معه على الوصول إلى ما يشتهى بوساطة تلك الوسيلة التي ندعوها اللغة ، والتي تنظم كل الصلات بين أفراد مجتمع من المجتمعات . فاللغة أداة لتيسير مطالب الحياة ، فهي توفر على الناطق مجهوداً عضويا كبيراً كان عليه أن يبذله لو أنه عاش وحده ، ولم يتعاون مع مجتمع إنساني ، يقوم كل فرد فيه بنصيب في تيسير سبل الحياة ومطالبها ، حتى يتمكن

من تلك الجهود مجتمعة نظام اجتماعى دقيق محكم . ومن هنا نرى الدور الذى تقوم به اللغة فى حياة المجتمع الإنسانى ، وتنظيم الصلة بين أفراده .

ويستعين اللغوى الحديث بعلم وظائف الأعضاء ، وعلم التشريح وعلم الطبيعة لتفسير تلك الأصوات التى تصدر من الفم ، وتتلقفها الآذان . فالصبى الذى نطق بقوله «هات شطيرة من هذا الشواء» قد حرك الوترين الصوتيين فى حنجرته حركات أو ذبذبات منتظمة ذات عدد خاص ، ثم جعل للسان أوضاعاً عدة ، وللشفتين أشكالا متباينة ، مما جعل هواء الرئتين يحدث موجات صوتية تحرك الهواء الخارجى ، وتنتقل إلى أذن السامع فيفسرها أو يفهمها ، ويتصرف تبعاً لها ، كالو أنه يمرّ بنفس التجارب التى يمر بها الصبى ، أو كما لو أنه تحيط به نفس الظروف التى تحيط بهذا الصبى من رؤية الطعام واشتهائه والإحساس بالجوع .

والناس فى مجتمع من المجتمعات لا يكادون يعنون بتلك الأصوات اللغوية إلا بمقدار ما تحققه لهم من أغراض دنيوية ، فهى لهم بمثابة الوسيلة لا الغاية . فالصبى يهمنيه أولا الشطيرة نفسها لأنها هى التى تسدّ رمقه ، ولا يكاد يعنى بتلك الأصوات التى تتكون من الشين والطاء والياء والراء والتاء .

ورغم أن بعض أنواع الحيوان قد تستجيب لبعض الأصوات على النحو الذى وصفناه آنفاً ، نرى أن أصوات الحيوان محدودة قليلة يمكن حصرها بسهولة . فالهرة مثلا لا تكاد تستخدم فى كل مطالبها وحاجياتها أكثر من ثلاثة أو أربعة أصوات يستطيع دارس الحيوان أن يتعرف عليها بسهولة وأن يميز بينها .

أما الإنسان فكلامه كثير التنوع متعدد الألوان ، ولا تكاد تحصى أصواته أو ألفاظه ، وهو يتخذ لكل منها دلالة معينة تحقق له غرضاً من أغراض الحياة ، تلك الأغراض التى لا تحصى ، والتى لا تنتهى إلا بانتهاء الحياة نفسها . ويتوسل الإنسان بكلامه إلى التفاهم بين أفراد مجتمعه ، كما قد يستعين به فى التأمل والتفكير ،

ولا غرابة حينئذ أن يقال إن الإنسان يفكر فى كلمات شبه منطوقة ، وإنه لا تفكير بغير تلك الكلمات والألفاظ (١) .

ومن العسير أن نتصور إنساناً ينشأ وحده فى جزيرة نائية ثم يفكر ويتأمل ويصل وحده إلى الاهتداء إلى الإله ، كشخصية حى بن يقظان التى وصفها ابن طفيل وغيره من الفلاسفة ، أو كشخصية روبنصن كروزو المشهورة فى آداب الغربيين .

أما الصلة بين تلك الأصوات وما تثيره فى الأذهان من أثر أو ما يتبعها من تصرفات ، فأمر كان ولا يزال موضع بحث العلماء والمفكرين . وسنرى فيما بعد أن فلاسفة اليونان قد اختلفوا بصدد هذه الصلة ، فكان سقراط وأفلاطون ممن يرون أن الصلة بين الأصوات والمدلولات طبيعية حتمية ، فى حين أن أرسطو كان يراها صلة عرفية لا تعدو أن تكون بمثابة رمز اصطلح الناس على وضعه للمدلول . ومثله حينئذ كمثل كل الرموز العرفية كالإشارة باليد أو إشارات التلغراف أو الشفرة ، أو الأعلام المتعددة الألوان والأشكال فى السفن ، أو الأضواء من أحمر وأخضر وأصفر حين يصطنعها الناس لتنظيم شئون الحياة .

وسواء كانت هذه الصلة طبيعية أو عرفية ، فالذى لا يزال يحير المفكرين هو كيف تثير هذه الأصوات تلك الدلالات فى الأذهان ، ولم لا تثير فى كل مرة نفس الدلالات ، أو تؤدى إلى نفس التصرفات ؟ وهنا يتدخل علم النفس ويرجع هذا إلى الحالة النفسية للمتكلم والسامع ، وهى من التعقيد والغموض بحيث يصعب الوقوف على نظامها ، ويتعسر إخضاعها للتجربة أو الملاحظة .

وعلماء اللغة صنفان من الناس (٢) :

الروحانيون : وهؤلاء يرون أن لكل منا نفساً أو عقلا . وحله الجسم

(1) Language in Society by M.M.Lewis. p. 235.
(2) Story of language. p 138. Language by Bloomfield p.142

ولكنه يختلف عن تلك المادة الملموسة المحسوسة فى كنهه ، ويمت إلى عالم آخر غير عالم المادة المألوفة لنا ، عالم روحى أو روحانى غير خاضع للملاحظة أو التجربة بالحواس كما تخضع ظواهر الطبيعة الأخرى . فقد يسهل التعرف على كل تفاعل كيميائى ، أو ملاحظة النار وأثرها فى الأشياء القابلة للاحتراق ، وقد يسهل تتبع النمو فى النبات والحيوان ، وسقوط الأمطار ، وقصف الرعد ، وضوء البرق ، وتنقل الأصوات ، وغير ذلك من ظواهر الطبيعة التى أخضعها الإنسان للملاحظة والتجربة ، واستطاع تحليلها وتفسيرها ، وجعل لها أسبابا ومسببات ، وانتهى فى شأنها بالكشف عن نظمها ، وأصبح معها يتنبأ بالنتائج من المقدمات ، ويصل إلى كليات لا تقبل الخلاف أو النزاع ، فكل ماء يطفىء النار ، وكل نار تحرق ، وفى كل يوم تشرق الشمس من الشرق وتغرب فى المغرب ، وفى كل شهر يتناقص الهلال ويكتمل ، وكل ماء يتبخر بالحرارة ويتجمد بالبرودة ، إلى غير ذلك من النظام المادى الذى استطاع الإنسان أن يفسره ويحدده فى غالب الأحيان .

ولاشك أن للنفس نظاماً آخر ، ولكنه غير خاضع للتجربة والملاحظة بوساطة الحواس ، ولا شك أن كل مقدمات فى هذا النظام النفسى تؤدى حتما إلى نتائج معينة ، فليست تسير النفوس على غير هدى ، أو دون نظام ، وإن كنا لانزال نجهله ، ولا نقف على أسراره .

فلو أننا نعرف تفاصيل هذا النظام النفسى لأمكن التنبؤ بنتيجة الكلام فى كل مرة يتم فيها النطق بتلك الأصوات اللغوية .

أما الماديون من أصحاب علم النفس فيرون أن الجسم الإنسانى جهاز شديد التعقيد ، فيه الأعصاب بمثابة الأسلاك التى تكون شبكة معقدة غاية التعقيد ، ومحكمة أدق الإحكام ، وأجزاؤه متشابكة ، ونواحيه متداخلة ، ويتأثر الجهاز كله بأقل خلل فى أى عضو ، بل فى أى شعيرة من شعيرات الشرايين .

ولو تصورنا أعقد جهاز ميكانيكى وصل إليه العقل الإنسانى من تلك الأجهزة التى لا تـكاد تحصى أجزاؤها ، والتى تستنفد فى تركيبها الشهور أو السنين وقسناه بالجهاز الإنسانى لبدا لنا كصندوق أجوف فيه عدة من الأسلاك تصل جنباته ، ولبدا الجسم الإنسانى كجهاز للإرسال والاستقبال فى الإذاعة ، وقـد شحنت جوانبه وأنحاؤه بآلاف من الأسلاك المعقدة المتشابكة ، وآلاف القطع والأجزاء التى لـكل منها وظيفة معينة فى ذلك الجهاز الضخم .

ومن طريف ما يذكر عن الجسم الإنسانى تلك الإحصائية التى قام بها الدكتور « ستيرنز » العالم الأمريكى ، والتى جاء فيها أن مجموع طول الأوعية الدموية الموجودة فى الجسم يبلغ ١٦٠ ألف كيلومتر ، وأن فى المخ البشرى ١٢ مليون خلية ، وفى الرئتين ٣٠٠ مليون خلية هوائية ، ويستبدل الجسم عشرة ملايين كرة حمراء من الدم فى كل ثانية .

ويتأثر الجهاز الإنسانى بأقل أنواع التأثر ، ومثله فى هذا مثل الآلة المعقدة حين يكفى عود من الثقاب لإدارتها أو تحريكها .

وقد عرف الإنسان حتى الآن عن ذلك الجهاز الجسمانى القليل ، أو أقل من القليل ، ولا يزال يجهل الـكثير ، بل لا يزال سره مغلقاً عليه ، ونظامه غامضاً مجهولا جهلا تاماً .

من أجل هذا يعمد أصحاب علم النفس إلى نوع من التجربة الخارجية حين شق عليهم ملاحظة ما يجرى فى داخل الجهاز الإنسانى ، وقنعوا بملاحظة الآثار التى تترتب على تلك العمليات الداخلية ، لعلهم يهتدون إلى شىء من أسراره وخفاياه فهم يضعون عدة أفراد فى ظروف معينة ، ثم يلاحظون استجابتهم لأثر خارجى معين ، ومن تلك التجارب والملاحظات الخارجية يحاولون تـكوين رأى خاص .

ومن طرقهم مساءلة المرء موضع التجربة ،وطلبهم منه أن يصف ما يشعر به ، أو يتم داخل جسمه من عمليات على إثر دافع من الدوافع الخارجية، ولكنهم فى كثير من الحالات يضلون الطريق السوى . وذلك لأن المرء يصعب عليه وصف مابه وصفاً دقيقاً ، ويشق عليه أن يتبين مكان الأثر الداخلى أو كنهه . ومثله مثل المريض حين يشير للطبيب على مكان الداء من جسمه ، ثم يكتشف الطبيب أن الداء فى موضع آخر .

هذا إلى أن المسئول قد لا يجد من اللغة الإنسانية ، ما يكفى لوصف ما يحس به فى داخل جسمه وصفاً دقيقاً ، فيتخبط فى وصفه ، ويضلل السائل .

ومن الأطباء من حاولوا الربط بين عملية النطق وعملية الفهم بملاحظة بعض الأمراض أو الإصابات التى تعترى المخ الإنسانى . وتمت لهم على إثر الحروب حالات كثيرة من المصابين فى أجزاء المخ ونواحيه . ومن هؤلاء المصابين من فقد القدرة على النطق ، وبقيت له القدرة على الفهم ، ومنهم من فقد كل ما حفظه من ألفاظ لغته طول حياته من قبل ، ومنهم من يتلعثم فى نطقه ، أو يفأفىء أو يتأتىء فى كلامه ، ومنهم من يفهم الألفاظ ولكنه لا يرتبها الترتيب المألوف حين يتكلم . إلى غير ذلك من حالات كثيرة حاولوا عن طريقها أن يبينوا لنا اختصاص كل منطقة من مناطق المخ الإنسانى بعملية معينة من عمليات الفهم والإفهام . ولكنهم مع هذا أو رغم ما بذلوه فى هذا من تجارب ومشاهدات لم يصلوا إلى رأى قاطع فى بحث الصلة بين الألفاظ ومدلولاتها ، أو ما تثيره فى الأذهان من عمليات نسميها الفهم مرة ، والتفكير مرة أخرى .

وإذا كنا قد أخذتنا حتى الآن فى دراسة هذه الظاهرة فى الفرد الإنسانى فمن الخير أن ندرسها فى الجماعات ، وذلك بأن يعرض الأثر اللغوى على أكبر مجموعة من الناس ثم نلاحظ تصرفهم إزاء هذا ، مستعينين بعلم الإحصاء للوصول

إلى أرقى مرتبة من الاحتمال . ويكفى حينئذ أن يقال إن النـــاس فى مجموعهم يتصرفون تصرفا معينا حين يسمعون جملة معينة دون أن نخصص فرداً معيناً منهم بمثل هذا الحـكم . وتـكون دراستنا حينئذ كدراسة كثير من الظاهر الاجتماعية الأخرى حين نحـكم على عدد الزيجات والطلاق والولادة والموت فى شعب من الشعوب ، دون التعرض لشخص بالذات ، أى أننا لا ندرى أو لا نحاول أن نتنبأ ما إذا كان فلان بالذات سيتزوج أو يطلق أو يولد أو يموت .

ومن حسن الحظ أن دراسة اللغة فى المجتمع لا تتطلب أحيانا الـكثير من الإحصاء أو الاستقصاء ، بل يكفى فى بعض الأحيان الحـكم على البيئة اللغوية وتصرفاتها إزاء حدث لغوى من ملاحظة هذا فى فرد واحد أو عدة أفراد .

فدارس اللغة العربية مثلا حين يسمع أحد المصريين ينطق بعبـارة مثل « صباح الخير » ، ويرى أن السامع يستجيب إلى مثل هذه العبارة ، ويقول « أهلا وسهلا » فله أن يحكم حكماً عاما على هذه البيئة اللغوية ، مقرراً أن أفرادها فى مجموعهم يستجيبون لمثل هذه العبارة هذه الاستجـابة ، ويردون عليهـا بنفس الرد .

وليس هذا الحكم بمـانع من أن بعض المصريين قد يجيب إجابة أخرى أو لا يجيب . فأفراد البيئة اللغوية يخضعون فى مجموعهم لنظام عام مطرد يألفونه ، ويشيع بينهم ؛ وكلما عرض لهم حدث من الأحداث اللغوية يتصرفون على حسب هذا النظام . فاللغوى يحكم عليهم كمجموعة لا كأفراد ، أى لا يخص فلانا بالذات بذلك الحـكم ، فلا يقول مثلا عن فلان هذا إنه حين يحييه أحد النـاس غـداً أو بعد غد فمن المؤكد أن استجابته ستـكون على نحو معـين . ولا يـكاد يعنى اللغوى بتلك الظروف الخاصة ، أو الحالة النفسية الخاصـة التى قد تدفـع متـكلما معينـا إلى النطق بغير المـألوف من الـكلام ، بل يوجـه عنايتـه إلى

ذلك النظام العام الذى ينتظم كل الأفراد ، والذى جرت به العادة فى بيئة لغوية معينة . هب مثلا أن شخصا معينا فى البيئة المصرية تعود لسبب ما أن ينطق بالتاء كالنطق الإنجليزى (أى بالتقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا) ، أو أن فى نطقه صفة الفأفأة أو التأتأة أو اللثغة ، هنا لا يصح أن تتخذ هذه الحالة الخاصة مقياسا للحكم على سائر المصريين . أو هب مثلا أن شخصا آخر تعود أن يحيي النـاس بالتحية الأجنبية « بنجور » لا يصح كذلك أن يعدّ هذا دليلا على أن التحية فى البيئة المصرية تسلك هذا المسلك .

ولذا حين نسمع زائراً لبلد من البلدان يحكم على لغته حكما ما بعد فترة قصيرة ، لا نسميه حينئذ متعجلا أو متسرعا فى حكمه ، بل نقبله على أنه الحـكم العام الذى ينطبق على المجموع لا على الأفراد كلا منهم على حدة . فالزائر لمصر لا يلبث بعد زمن قليل أن يدرك أن المصريين بوجه عام حين يطلب منهم شىء ، ويعبرون عن استعدادهم لإجابة هذا الطلب يقولون « حاضر » ، ولـكن هذا الزائر قد يحتاج إلى زمن أطول ، وتجارب أكثر حتى يعثر على أحد المصريين الذين يبدون نفس الاستعداد قائلين « ماشى » ! !

ولذا ننعى على اللغويين القدماء مسلـكهم حين خلطوا بين الصفات الخاصة والصفات العامة للغة ، فبينما نراهم يحكمون حكما عاما على لغة العرب ، نراهم فى بعض الأحيان يقحمون فى حكمهم تلك التجارب الخاصة فيقول أحدهم مثلا سمعت أعرابيا يقول كذا ، أو سمعت امرأة من غنى تقول كذا ، متخـــذين من تلك الصفات الخاصة وجوها من القول أو رخصة يضعونها جنباً إلى جنب مع الوجـه العام أو المسلك العام الذى ينتظم كل البيئة العربية .

الفصل الثالث

الصلة بين اللفظ والدلالة

— ١ —

نظرة فلاسفة اليونان

استرعت اللغة نظر المفكرين من اليونان القدماء ، فراحوا يتساءلون عن أسرارها ، ويعجبون لتلك المجموعات الصوتية التى ينطق بها المرء فتعبر له عما يدور فى خلده ، وتحقق له غرضاً دنيوياً نافعاً ، بل وتصله ببنى جنسه صلة وثيقة تجعل منهم مجتمعاً إنسانيا متعاوناً متفاهما ، وتميزهم من سائر المخلوقات الأخرى .

وكان أوضح ما استرعى انتباههم فتساءلوا عنه تلك المشكلة التقليدية فى الربط بين اللفظ ومدلوله ، وهل تلك الصلة طبيعية كالتى بين الأسباب الكونية وما يتسبب عنها . هل هى كالصلة بين النار والاحتراق ، والخصب والنماء ، وككل تلك القوانين الكونية من مغنطيسية أو كثافة أو ضوء وما يترتب عليها من استقرار الأشياء فوق سطح الأرض ، ومن عومها أو غرقها فى الماء ، ومن الرؤية والإبصار إلخ .

وبدا من سحر الألفاظ فى أذهان بعضهم ، وسيطرتها على تفكيرهم ، أن ربط بينها وبين مدلولاتها ربطاً وثيقاً ، وجعلها سبباً طبيعياً للفهم والإدراك ، فلا تؤدى الدلالة إلا به ، ولا تخطر الصورة فى الذهن إلا حين النطق بلفظ معين . ومن أجل هذا أطلق هؤلاء المفكرون على الصلة بين اللفظ ومدلوله ، الصلة الطبيعية ، أو الصلة الذاتية .

ونلحظ هذا الاتجاه من التفـكير فيما يرويه أفلاطون فى محاوراته عن أستاذه سقراط الذى كان فيما يبدو يميل إلى هذا الرأى . ولما تبين لهم غموض هذه الصلة بين ألفاظ لغتهم اليونانية ومدلولاتها ، ولم يستطيعوا لها تعليلا مقبولا تستريح إليه النفس وتطمئن إليه العقول ، أخذوا يفترضون أن تلك الصلة الطبيعية كانت واضحة سهلة التفسير فى بدء نشأتها ، ثم تطورت الألفاظ ، ولم يعد من اليسير أن نتبين بوضوح تلك الصلة ، أو نجد لها تعليلا وتفسيراً[1] !!

وأخذ سقراط فى محاوراته يعنى النفس بتلك اللغة المثالية التى تربط بين ألفاظها ومدلولاتها ربطاً طبيعيا ذاتيا كتلك الألفاظ المشتقة من أصوات الطبيعة من حفيف وخرير وزفير .

وكان بجانب هؤلاء المفـكرين طـائفة أخرى من فلاسفـة اليونان يرون أن الصلة بين اللفظ والدلالة لا تعدو أن تـكون اصطلاحية عرفية تواضع عليهـا الناس . وتزعم هذا الفريق فيما بعد « أرسطو » الذى أوضح آراءه عن اللغـة وظواهرها فى مقالات تحت عنوان الشعر والخطابة ، وبين فيها عرفية الصلة بين اللفظ ومعناه .

وظلت كلمتا « الطبيعية أو العرفية » محور الجدل والنقاش زمنـاً طويلا بين مفـكرى اليونان من لغويين وفلاسفة . وكان كل من الفريقين يؤسس رأيه على مجرد المغامرة الفـكرية دون سند علمى من ملاحظة دقيقة أو استقراء للحقائق .

ولـكنهم جميعا كما يصفهم « ستيورات شاس» Stewart Chase فى كتابه طغيان الـكلمات بقوله «إنهم مناطقة أقوياء يقـدر نظراؤهم فى العـالم إلا أنهم لم يزالوا على مقربة من المقدمات البدائية ، فلم تتخلص عقولهم من سحر الـكلمة ، وحسبوا أنها ذات قوى كامنة فيها كما قد يحسب الطفل أو معتقد الشعوذة ، ولولا

(1) Miraculous birth of language, p. 162.

ذلك لما أقاموا كل شيء على « اللوغوس » وشغلوا العقول والنفوس بهذه الفكرة إلى اليوم[١] » .

— ٢ —

علماء العرب

وورث علماء العرب عن اليونان هذا النوع من التفكير ، فشطرهم إلى فريقين أيضا : أولئك الذين كانوا ينتصرون للفكرة الطبيعية الذاتية ، وأشهر من عرف عنهم هذا الرأى من مفكرى العرب « عباد بن سليمان الصيمرى » أحد المعتزلة ، فيروى أنه كان يقول « إن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع ، وإلا كان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحا من غير مرجح » . وكان بعض من يرى رأيه يقول « إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها ، فسئل ما مسمى « إذغاغ » ، وهو بالفارسية الحجر ، فقال أجد فيه يبساً شديداً وأراه الحجر[٢] » .

ومع أن معظم اللغويين من العرب لا يأخذون بهذا الرأى ، نرى كثيراً منهم يربطون فى مؤلفاتهم بين الألفاظ ومدلولاتها ربطاً وثيقاً يكاد يشبه الصلة الطبيعية أو الذاتية . ولعل السر فى هذا الاتجاه هو اعتزازهم بتلك الألفاظ العربية وإعجابهم بها ، وحرصهم على الكشف عن أسرارها وخباياها .

فابن جنى فى كتابه الخصائص يعقد فصولا أربعة فى نحو ستين صفحة من كتابه ، ويحاول فى تلك الفصول أن يكشف لنا عن شيء من تلك الصلة الخفية بين الألفاظ ودلالتها : —

---

(١) ترجمة الأستاذ عباس العقاد فى بحثه الذى ألقاه بمؤتمر مجمع اللغة العربية سنة ١٩٥٢ .

(٢) المزهر للسيوطى صفحة ٤٧ .

١ — ففى فصل عنوانه « فى تلاقى المعانى على اختلاف الأصول والمبانى »[1] يربط ابن جنى بين كلمتى المسك والصوّار[2] ، فيقول إن كلا منهما يجذب حاسة من يشمه، أى أن المسك فى رأيه إنما سمى كذلك لأنه يمسك بحاسة الشم ويجتذبها. ويتخذ ابن جنى دليلا على قوله من كلمة المسك بالفتح ومعناها الجلد ، لأن الجلد يمسك ما تحته من جسم !!

٢ — وفى الفصل الثانى[3] يتحدث ابن جنى عما سماه بالاشتقاق الأكبر الذى فسره لنا بأن الكلمة مهما قلبتها تشتمل على معنى عام مشترك ، ويضرب لنا مثلا بمادة « جبر » فيقول [جبرت العظم والفقير إذا قويتهما ، والجبروت القوة ، والجبر الأخذ بالقهر والشدة ، ورجل مجرب إذا مارس الأمور فاشتدت شكيمته ، ومنه الجراب لأنه يحفظ مافيه والشىء إذا حفظ قوى واشتد .. الخ .

٣ — وفى فصل عنوانه « تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى » ، يعيد ابن جنى الحديث عن الاشتقاق الأكبر ، ثم يزعم أن مجرد الاشتراك فى بعض الحروف يكفى أحيانا للاشتراك فى الدلالة ، ويقارن بين الكلمتين « دمث » و« دِمَثْر » فالأولى من دمث المكان كفرح سهل ولان ومنه دماثة الخلق أى سهولته . والثانية معناها السهل من الأرض والجمل الكبير اللحم ! !

ومع اعتراف ابن جنى أن كلمة « دِمَثْر » رباعية الأصول ، يرى أن مجرد الاشتراك فى الحروف الثلاثة الأولى أدى إلى الاشتراك فى الدلالة .

بل يغالى فيعقد المقارنة بين رباعى وخماسى فيقول إن كلمة « دردب » تشترك مع كلمة « دردبيس » فى المعنى . والدردبيس كما تنص المعاجم هو الداهية ، والشيخ والعجوز الفانية ، ولسنا ندرى أى هذه المعانى يشترك مع ماتذكره

(١) الخصائص صفحة ٥٠٧ .

(٢) الفيروزبادى : الصوار الرائحة الطيبة والقليل من المسك .

(٣) صفحة ٥٢٥ وأنظر أسرار اللغة صفحة ٧٤ .

المعاجم عن الـكلمة الأخرى إذ تقول [وامرأة دردبٌ تذهب وتجيء بالليل ، وفى المثل دردب لما عضّـه الثقاف أى خضع وذل] ! ؟

ويرى ابن جنى أن هذه الظاهرة لا تقتصر على الحالات التى اتحدت فيها الأصوات ، بل قد تظهر أيضاً حين تتقارب الأصوات فى مخارجها أو صفاتها فيقول ما نصه [وقالوا الغدر كما قالوا الختل ، والمعنيان متقاربان واللفظان متراسلان . . . فالغين أخت الخاء ، والدال أخت التاء ، والراء أخت اللام] ! ! [وقالوا أفل ، كما قالوا « غبر » لأن أفل غاب ، والغابر غائب أيضاً . . . فالهمزة أخت الغين والفاء أخت الباء واللام أخت الراء] ! !

٤ — أما الفصل الرابع فعنوانه [فى إمساس الألفاظ أشباه المعانى] أى وضع الألفاظ على صورة مناسبة لمعناها ، وهنا يفترض لنا أن صيغة « الفعلان » تفيد الاضطراب كالغليان والفوران ، وأن صيغة « الفعللة » تفيد التـكرير مثل صرصر الجندب أى كرّر فى تصويته ، وأن صيغة « الفـعَـلى » تفيد السرعة مثل « الجمزى » .

كما يبحث هنا أيضاً فى مناسبة الحروف فى اللفظ لصوت الحدث ، مثل الفعل « قضم » حين يقارن بالفعل « خضم » نرى أن الأول يستعمل فى أكل اليابس ، فى حين أن الثانى يستعمل فى أكل الرطب ، ويرى ابن جنى صلة وثيقة بين القاف الشديدة والصوت الناشىء عن أكل اليابس ، كما يرى مناسبة واضحة بين الخاء الرخوة والصوت الناشىء عن أكل الرطب .

وقد أغرم بعض اللغويين القدماء بتلمس هذا الربط بين اللفظ ومدلوله ، فتراهم يقولون مثلا إنما سمى الإنسان إنساناً لأنه مشتق من النسيان ، وكثيراً ما ينسى الإنسان ! وبلغ بابن دريد وعنايته بهذه الناحية الاشتقاقية أن وضع كتاباً سماه الاشتقاق ، وحاول فيه تعليل الأعلام العربية كأسماء القبائل والأمكنة فى جزيرة العرب ، فيقول مثلا إن « قضاعة » سميت كذلك لأنها رحلت من

جنوب الجزيرة إلى شمالها فهى مشتقة من انقضع الرجل عن أهله أى بعد ! !

ووضع ابن فارس معجماً سماه مقاييس اللغة طبع حديثاً فى ستة أجزاء ، وجه فيه كل عنايته لاستنباط الصلات بين الألفاظ ودلالاتها ، على نحو ماعالجها به ابن جنى فى فصوله الأربعة السابقة ، غير أن ابن فارس قد بلغ الذروة فى معجمه، فغالى وأسرف فى استنباطه ، وتلمس من الصلات ما لا يخـــلو من التعسف والتكلف . فهو يسوق فى معجمه الـكلمات التى تشترك فى أصول ثلاثة ويشرح معانيها مع ذكر تقلبات تلك الأصول . فيقول مثلا إن « الميم والراء والضاد ، مادة يمـكن أن تنشأ منها صور متعددة [مرض ، رمض ، ضرم ، ضمر ، رضم ، ومضر] ، ثم يحاول تلمس الصلة المشتركة بين معانى كل هذه الصور ، مستنبطاً معنى عاماً لهذه المادة . وفى بعض الأحيان يسوق كلمات كثيرة لا تشترك إلا فى حرفين ، ويحاول أيضاً أن يبين الصلة بين معانيها على أساس الاشتراك فى هذين الحرفين .

ويبدو أن هؤلاء الاشتقاقيين قد اقتبسوا فـكرة تقلبات الأصول من معجم العين وأمثاله ، فقد سلك صاحب العين وصاحب الجمهرة وغيرهما مسلـكا عجيباً فى ترتيب الـكلمات ، فـكان كل منهم حين يعرض لشرح كلمة من الـكلمات يذكر معها تقلباتها ، ويذكر معنى كل صورة من صورها ، دون التعرض لربط بين دلالات تلك الصور . فهى طريقة إحصائية أو قسمة عقلية لجأ إليها أصحاب هذه المعاجم بغية حصر كل المستعمل من كلمات اللغة وخشية أن يندّ بعضها عن أذهانهم . فلما جاء أصحاب المدرسة الاشتقاقية كابن جنى وابن فارس ربطوا أيضاً بين دلالات تلك الصور ، واستنبطوا معانى عامة مشتركة بينها فـكلفهم هذا الصنيع من العنت والمشقة قدراً كبيراً .

— ٣ —

رأى المحدثين

يلخص « جسبرسن[1] » آراء المحدثين فى الصلة بين الألفاظ والدلالات فيعرض أولا لمقال « همبلت » الذى يزعم فيه أن اللغات بوجه عام تؤثر التعبير عن الأشياء بوساطة ألفاظ أثرها فى الآذان يشبه أثر تلك الأشياء فى الأذهان .

أى أن «همبلت» كان من أنصار المناسبة الطبيعية بين الألفاظ والدلالات . وقد عارضه فى هذا الرأى «مدفيج»، وساق له كثيراً من الكلمات التى لا تتضح فيها هذه الصلة ، غير أن «مدفيج» فى رأى جسبرسن كان متجنيا على «همبلت»، لأنه لم يدع أن مثل هذه الظاهرة تطرد فى كل كلمات اللغة ، ولأنه بين فى ثنايا هذا الرأى أن الكلمات بدأت واضحة الصلة بين أصواتها ودلالاتها ، ثم تطورت تلك الأصوات أو تلك الدلالات ، وأصبحت الصلة غامضة علينا .

ويبدو أن جسبرسن ، كان ممن ينتصرون لأصحاب المناسبة بين الألفاظ ودلالاتها ، غير أنه حذرنا من المغالاة فى هذا ، إذ يرى أن هذه الظاهرة لا تكاد تطرد فى لغة من اللغات ، وأن بعض الكلمات تفقد هذه الصلة على مر الأيام ، فى حين أن كلمات أخرى تكتسبها وتصبح فيها واضحة بعد أن كانت لا تلحظ فيها .

ويسوق لنا جسبرسن أمثلة لتلك النواحى التى نلحظ فيها وثوق الصلة بين الألفاظ والدلالات منها :

(ا) وأوضح تلك النواحى ما يسمى Onomatoopeia وهى الألفاظ التى

(1) Language its nature, development & origin:Chapter.XX.

تعد بمثابة الصدى لأصوات الطبيعة . وهذه ظاهرة واضحة فى كل اللغات ، وهى تشبه ما عندنا فى العربية من أمثال الحفيف ، والخرير ، والزفير والصهيل والهزيم والعواء والزئير إلى غير ذلك من كلمات استمدت ألفاظها من الأصوات الكونية وأصوات الحيوانات .

(ب) يؤكد لنا « جسبرسن » أن الألفاظ التى تعبر عن الصوت الطبيعى قد تنتقل ، وتصبح معبرة عن مصدر هذا الصوت ، وذلك كأن يصبح الزئير اسماً من أسماء الأسد . فى أوربا طائر يظهر فى الربيع ويصيح « كوكو » ، وكان من الممكن أن تقنع هذه اللفظة بالتعبير عن صوت هذا الطائر ، ولكنها تستعمل الآن للطائر نفسه. كذلك قد تسمى حركات الإنسان بما ينبعث عنها من أصوات، فصوت المشى قد يطلق على المشى نفسه .

فالصفع مثلا كلمة بدأت فيما يبدو بمثابة صدى لوقع اليد على الوجه فهى حكاية صوت لتلك الحركة الإنسانية ، ثم أصبحت تعبر عن نفس الحركة .

ويبدو أن هذا النوع من الألفاظ يكثر فى اللغات البدائية ، أو بين الأمم المتخلفة ، فقد لاحظ بعض الباحثين فى لغات وسط افريقيا أن الفعل الواحد قد يوصف بكثير من الألفاظ المعبرة عن حالاته المتعددة . فمثلا فى لغة « اليوربا » نرى أن الفعل « يمشى » هو Zo ، فإذا شاء أحد أبناء هذه اللغة التعبير عن المشى منتصب القامة استعمل بعد الفعل Zo لفظاً يعبر عن هذه الهيئة أو يوحى بها ، وإذا أراد التعبير عن المشى بنشاط وحماس استعمل لفظاً آخر . وقد جمع أحد اللغويين نحو ثلاثة وثلاثين لفظاً مختلفاً تتخذ لوصف الحالات المتعددة لعملية المشى أو الفعل Zo وحده . ومن تلك الحالات (١) :

١ — يمشى منتصب القامة	Zo Ka Ka
٢ — يمشى بنشاط وحماس	Zo dze dze

1) Language Families of Africa, p.47

٣ ـ يمشى بسرعة	Zo tya tya
٤ ـ يمشى متثاقلا لضخامة جسمه	Zo boho boho
٥ ـ مشية الرجل المتزن الطويل القامة	Zo tyo tyo
٦ ـ مشية المرأة فى هدوء ونبل	Zo wudo wudo

(حـ) كذلك قد ترتبط الألفاظ بالدلالات فى بعض الحالات النفسية كالكلمات التى تعبر عن الغضب أو النفور والكره . كما قد ترتبط بحجم الأشياء أو أبعادها ، فقد لوحظ أن « الكسرة » وما يتفرع عنها من « ياء المد » ترمز فى كثير من اللغات إلى صغر الحجم أو قرب المسافة . فى العربية مثلا نجد أن « الياء » هى علامة التصغير ، وأن الكسرة علامة التأنيث [١] .

(د) كذلك يشير « جسبرسن » إلى ما عرف عند علماء العربية من أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، فحين نقارن بين « صر الجندب » ، و « صرصر الجندب » نرى أن صيغة « صرصر » تفيد تكرير الصوت ، وحين نقارن بين « كسر » و « كسّر » نرى أن التضعيف فى الصيغة الثانية قد زاد فى دلالتها .

ويختتم « جسبرسن » هذا الفصل الذى يدعوه « رمزية الألفاظ » بقوله : إن كلمات اللغات تزداد مع الأيام إيحاء للدلالات ، وتكتسب الألفاظ بمرور الزمن قدراً أكبر من تلك الرمزية . ويتنبأ من أجل هذا بتلك النبوءة المتفائلة التى كان يحلم بها فلاسفة اليونان من أن يأتى اليوم الذى تصبح فيه الصلة بين الألفاظ ودلالاتها أكثر وضوحاً وأوثق ربطاً مما عرف أجدادنا القدماء .

ويعد دى سوسير de Saussure من أشهر المعارضين لأصحاب الصلة بين الألفاظ والدلالات ، إذ يراها اعتباطية لا تخضع لمنطق أو نظام مطرد . ومع

---

(١) أنظر اللهجات العربية صفحة ٨١ .

اعترافه بتلك الصلة فى الألفاظ التى تعد بمثابة الصدى لأصوات الطبيعة والتى تسمى onomatopoeia يقرر أنها من القلة فى اللغات ، ومن الاختلاف والتباين باختلاف اللغات الإنسانية ، بحيث لا يصح أن نتخذ منها أساساً لظاهرة لغوية مطردة أو شبيهة بالمطردة . هى إذن فى رأيه مجرد ألفاظ قليلة تصادف أن أشبهت أصواتها دلالاتها .

والأمر الذى لم يبد واضحا فى علاج كل هؤلاء الباحثين هو وجوب التفرقة بين الصلة الطبيعية الذاتية والصلة المكتسبة. ففى كثير من ألفاظ كل لغة نلحظ تلك الصلة بينها وبين دلالاتها ، ولكن هذه الصلة لم تنشأ مع تلك الألفاظ أو تولد بمولدها ، وإنما اكتسبتها اكتساباً بمرور الأيام وكثرة التداول والاستعمال .

وهى فى بعض الألفاظ أوضح منها فى البعض الآخر ، ومرجع هذا إلى الظروف الخاصة التى تحيط بكل كلمة فى تاريخها ، وإلى الحالات النفسية المتباينة التى تعرض للمتكلمين والسامعين فى أثناء استعمال الكلمات . فإذا تصادف أن عنى أحد المتكلمين بأصوات لفظ من الألفاظ ، واسترعى انتباهه أكثر من غيره ، لا يلبث أن يعقد الصلة الوثيقة بينه وبين دلالته ، ويتصور نوعا من المناسبة بين تلك الأصوات وما تدل عليه ، ويحاول نقل شعوره إلى غيره ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فإذا تصادف أيضا أن أحس فريق من الناس بنفس الإحساس ، بدأت عملية ذهنية أخرى هى الربط بين هذه الأصوات وأشباهها فى الكلمات الأخرى ، لأن الذهن الإنسانى يميل إلى التجميع والتعميم . وتلتقى تلك العملية بعملية نفسية أخرى هى التى تسمى بتداعى المعانى ، أى أن المعنى حين يخطر فى الذهن يدعو ما يشبهه أو يقاربه . وهنا قد يخطر فى الذهن فكرة الربط بين مجموعة من الألفاظ المتشابهة المتقاربة ، بمجموعة من المعانى المتشابهة

أو المتقاربة ، ويترتب على هذا أن يشيع بين أبناء اللغة نوع من الوهم يشعرون معه بوثوق الصلة بين الألفاظ والدلالات .

فالألفاظ لا تعدو فى حقيقتها أن تـكون بمثابة الرموز على الدلالات ، كل لفظ يصلح أن يتخذ للتعبير عن أى معنى من المعانى ، فما يسمى « بالشجرة » يمـكن أن يسمى بأى لفظ متى اصطلح الناس عليه ، وتواضعوا على استعماله فليس فى لفظ « الشجرة » ما يوحى بفروعها وجذورها وأوراقها وخضرتها .

وقد كان من الممكن أن يعبر عن هـذه المعانى برموز أخرى غير صوتية كالإشارة ونحوها . ولـكن الإنسان بدأ منذ أمد بعيد جـداً يتخـذ من أصواته رموزاً للتعبير عما يخطر فى ذهنه ، واستغل فى هذا ما نسميه بجهاز النطق الذى وظيفته الأصلية الطبيعية المضغ والبلع والتنفس .

دعنا نتذكر علامات المرور من أحمر وأصفر وأخضر التى يرمز كل لون منها إلى دلالة معينة اصطلح المجتمع عليها وتقبلها قبولا حسناً . فحين يرى السائق اللون الأحمر يخطر فى ذهنه دلالة معينة هى وجوب الوقوف ، فإذا رأى اللون الأخضر عرف أنه يرمز له بالسماح بالمرور . وليس بين هـذه الألوان وما تدل عليه أى مناسبة طبيعية ، وكل ما بينها لا يعدو أن يكون اصطلاحا ومواضعة هى من صنع الناس .

وكذلك الألفاظ اصطنعها الإنسان للتعبير عما يخطر فى ذهنه ، غير أنهـا اكتسبت مع الزمن صفة ليست فى غيرها من الرموز الاصطلاحية ،ومن المجازفة أن ينظر إلى تلك الألفاظ الآن على أنها مجرد رموز ، فقـد ارتبطت بالفـكر الإنسانى ارتباطاً وثيقاً ، وأصبح من الصعب أن نتصور أى نوع من التفـكير بغير هذه الألفاظ . فالإنسان يفـكر بوساطة هذه الألفاظ ، والدلالة التى ليس لها لفظ لا وجود لها إلا فى مخيلة بعض الفلاسفة . حتى ما يسمى بالتفـكير

الصامت أو التأمل لا يؤدى إلا بعملية نطقية يقوم بها المتأمل ، وإن لم يسمعها أحد ممن حوله . فعضلات نطقه تقوم بنفس الحركات اللسانية التى يقوم بهـا فى الـكلام المسموع . وقد برهنت التجارب الـكثيرة على هذه الحقيقة العلمية ، فالمرء قد يشعر بإرهاق فى عضلات نطقه بعد سمـاعه لخطيب يخطب أمامه لمدة طويلة ، وذلك لأن عضلات نطق السامع تتحرك حركات خافتة تشبه ما تقوم به عضلات نطق الخطيب تمام الشبه .

بل لقد لوحظ أن لاعب البيانو حين يستمع لعزف غيره مدة طويلة ، قد يشعر بعدها بتعب أنامله وأصابعه ، فـكأنما قد مارس هو العزف بنفسه .

وليس يعترض على هذا بأن يقال إن الذى يولد أصم يدرك الأشياء والحوادث دون أن يكون له أى نصيب من تلك الألفاظ اللغوية ؛ وذلك لأن إدراك الأصم مولدا أدنى كثيراً من إدراك السامع ، فإدراكه للأمور إدراك ناقص ، ومع هذا لا يتم له هذا الإدراك الناقص إلا عن طريق رموز أخرى تحل محل الرمـــوز الصوتية كالإشارة ونحوها . بل إن مشاهد السينما الصامتة لم يكن يستطيع إدراك ما يراه إلا بعد ترجمته فى ذهنه إلى ألفاظ يعرف دلالتها ، ولو قد عرض عليه من الأشياء أو الحوادث ما لا يستطيع ترجمته إلى الألفاظ ، لمرت بذهنه مروراً عابراً غامضاً لا يترك أثراً ، ولا يبعث على تفـكير أو رغبة فى مشاهدتها .

فاصطناع الألفاظ للتعبير عما يجول فى الأذهان قد مرت به مئات أو آلاف من القرون جعلت من تلك الألفاظ شيئاً أرقى من مجرد رموز . فليست كإشارات المرور أو العلامات التلغرافية أو الشفرة ، بل هى بالنسبة للإنسان مصابيح تهديه فى ظلمات الحوادث ، وتعينه فى معترك الحياة ، وتجعل منه مخلوقاً اجتماعياً نافعاً . وهو لهذا يعتز بها ، ويقدسها ، وينقب عما تتضمن من أسرار ، وينسب لها فوق مالها فى الحقيقة والواقع . فهى التى ميزته عن سائر المخلوقات ، ويسرت له التفـكير ولا غرابة إذن أن يوصف الإنسان بأنه المخلوق الناطق .

وقد اكتسبت تلك الألفاظ شيئاً من القدسية بعد أن حملت إلى الناس أرق ما ينتجه العقل البشري من آداب وعلوم ، وبعد أن اتخذت وسيلة لإيصال الوحي الإلهي إلى عقول البشر ، فكتبت بها أسفارهم المقدسة ونزلت بها الكتب السماوية .

أما كيف ربط الإنسان الأول بين الألفاظ ودلالاتها ، ولماذا اختص العربي « الشجرة » بهذا اللفظ « والبحر » بلفظ آخر ، واختصتهما الشعوب الأخرى بألفاظ أخرى ، ومتى بدأ أو تم للإنسان هذا الربط ، فكل هذه أسئلة حيرت عقول المفكرين منذ قرون سحيقة ولا تزال تحيرها حتى الآن .

الفصل الرابع

استيحاء الدلالة من الألفاظ

كثيراً ما نتساءل عن ذلك القدر من الدلالة الذى يمكن أن يستوحيه المرء من أصوات ألفاظ لا يعرف معناها ؟ ! وللإجابة عن هذا السؤال لجأنا أولا إلى بعض الألفاظ المرتجلة رجاء أن نستشف من أصواتها دلالة ما لدى سماعها .

فهب مثلا أنك ارتجلت كلمة مثل « تَزلَع » ، وطلبت إلى صديق لك أن يخمن لها دلالة ؛ فستراه يضع لها دلالة ما يستخرجها من تلك الذخيرة اللفظية التى يختزنها فى ذهنه والتى اكتسبها فى مراحل تعلمه لغة قومه . فإذا عرضت نفس الكلمة على صديق آخر يشبه الأول فى وسطه الاجتماعى وفى ثقافته فقد يستخرج لك نفس الدلالة ، أو شيئاً شبيهاً بها أو قريباً منها . وهنا ندهش لمثل هذه الظاهرة ، ويراها اللغوى المحافظ مظهراً من مظاهر السليقة اللغوية التى تتصل بالوراثة ، والتى فطر عليها أفراد كل بيئة من البيئات اللغوية .

غير أن اللغوى الحديث لا يرى فيما يسمى بالسليقة اللغوية إلا المران الكافى ولا يفسرها الا على أنها ملكة مكتسبة وليس للوراثة أو الجنس أثر فيها .

لهذا يلتمس تفسيراً آخر لتلك الظاهرة ، وينسبها الى ما نسميه هنا بوحى الأصوات . فالمرء يتعلم لغة أبويه ، ويربط منذ طفولته بين ألفاظ قومه ودلالاتها ربطاً وثيقاً ، وتختزن فى ذهنه تلك الألفاظ مع دلالاتها فى شىء من التنظيم والترتيب يساعد على أن يدعو بعضها بعضاً ، ويذكر بعضها ببعض .

ويقضى المرء فى اكتساب تلك الملكة اللغوية زمناً طويلا من حياته

أو شبابه حتى يسيطر على قدر كبير من الألفاظ ودلالاتها ، وتتألف فى ذهنه تلك الذخيرة اللفظية الدلالية ، وعلى أساس ما اكتسب من ألفاظ ودلالاتها يستطيع استنباط مدلول اللفظ الجديد على سمعه . ومع أن الناس يختلفون فى تجاربهم مع الألفاظ والدلالات ، تتكون لديهم تلك القدرة على استيحاء الدلالة المجهولة ، أو طرف منها من لفظ معلوم ، وذلك لأنهم لا يزالون يشتركون فى اختزان ألفاظ معينة هى ألفاظ بيئتهم . وعلى قدر اشتراك الناس فى الوسط الاجتماعى والثقافة العامة يكون اشتراكهم أو تقاربهم فى استيحاء تلك الدلالات المجهولة . فإذا عرضت تلك الكلمة المرتجلة على جماعة من وسط واحد وثقافة متقاربة رأينا تشابهاً عجيباً فى استنباطهم لدلالتها . فعرض هذه الكلمة على مجموعة من طلبة الجامعة ينتج غير ما ينتجه عرضها على مجموعة من القرويين مثلا .

وعلينا أن نتذكر مع ما تقدم أن لكل لغة نظاما خاصا فى تأليف ألفاظها ، فما يشيع فى إحداها قد يندر فى الأخرى . فألفاظ اللغة العربية تتألف من تلك الحروف الهجائية المألوفة لنا ؛ ويتكون لتلك الألفاظ العربية نسج خاص ، إذا حاد عنه اللفظ قيل إنه غير عربى . وكان القدماء يشعرون بشىء من هذا حين أكد لنا بعضهم أنه لا تجتمع الجيم مع القاف فى كلمة عربية مثل « المنجنيق » ولا تجتمع الصاد والجيم فى كلمات العرب ، فكلمة مثل « صولجان » غريبة عن النسج العربى ، ولا تكون النون قبل راء إلا فى الكلمات الأعجمية مثل « نرجس » ، ولا تكون الزاى بعد دال كما فى كلمة « مهندز » الأجنبية التى صارت فى لهجاتنا الآن « مهندس » ! ولا تكون الشين بعد لام ، ولا تجتمع الباء والسين والذال فى كلمة عربية ، ولا تعرف لغتنا العربية الزاى ، والذال مع السين إلا فى تلك الكلمة المعربة التى ننطق بها على صورة (ساذج) ،

ولا تجتمع الصاد والطاء ، وندر اجتماع الراء مع اللام ولابد من وجود حرف من حروف الذلاقة (م ن ر ل ب ف) فى الرباعى والخماسى[1].

نقرأ مثل هذه الملاحظات السريعة فى كتب القدماء ، ولـكن الأمر أعمق من مثل تلك الملاحظات القليلة ، ويحتاج إلى استقراء أوفى وأتم حتى نستطيع الوقوف على نسج الـكلمة العربية . فما يمـكن أن يتألف من حروفنا الهجائية يجاوز ١٢ مليوناً من الـكلمات ، قرر هذا الخليل من قبل ، وتقر صنعه الآن العمليات الحسابية الحديثة . ولـكن المستعمل من الألفاظ لا يكاد يجاوز ثمانين ألفاً ، فيها يشيع حرف أكثر من حرف ، بل قـد تختلف فيها نسبة شيوع الحروف على حسب موضعها من الـكلمة . فلو أن اللغة كانت تسمح باستعمال كل تلك الملايين من الألفاظ لأشبهت الحروف بعضها بعضاً فى شيوعها ، ولا يتكون للغة حينئذ نسج خاص تتميز به . ولـكن اللغة قد تخيرت مجموعات صوتية معينة هى التى اختصتها بالدلالة ، وأهملت الـكثرة الغالبة .

ونـكتسب نحن ألفاظ اللغة كما وردت إلينا ، ونختزن قدراً كبيراً منها يتألف على نظام معين ، ويمكن أن نقرر بعد دراسة واستقراء أن نسبة شيوع « السين » مثلا فى كلام فلان هى كذا ، ونسبة الميم فى كلامه هى كيت ، وتوالى الفاء والدال فى ألفاظه أقل من توالى الفاء والجيم مثلا ، واجتماع اللام والعين والباء أكثر من اجتماع اللام والعين والقاف ، وغير ذلك من نسب كثيرة قـد يهدينا إليها الاستقراء . فالمرء إذن يخضع لما يـكتسبه من ألفاظ ، ويتأثر بنظام تلك الألفاظ ونسجها وتركيبها . ومع هذا فأفراد البيئة قد يشتركون فى شىء من هذا ، ويتأثرون جميعاً بمجموعة كبيرة جداً من الألفاظ المشتركة بينهم .

---

(١) شفاء الغليل للخفاجى صفحة ٧ .

غير أن هذا الاشتراك يكثر أو يعظم فى الأوساط المتشابهة ، ولدى أصحاب الثقافات المتقاربة .

وعلى هذا فمجرد النطق بتلك الكلمة المرتجلة يدعو إلى الذهن لفظاً آخر معروفاً يشترك معها فى بعض حروفها أو صفات تلك الحروف ، ويفد ذلك اللفظ المعروف ومعه دلالته فيوحى بشىء من دلالة ذلك اللفظ المرتجل .

ويغالى بعض اللغويين فيتصورون من أجل هذه الظاهرة أن هناك ربطاً طبيعياً بين الألفاظ ودلالاتها ، ولا يخطر ببالهم أن القدرة على استيحاء الدلالات مرجعها إلى ما يكتسبه المرء من ألفاظ معينة ، ومن ربطه بين تلك الألفاظ ودلالاتها ربطاً وثيقاً . فالعملية كلها مكتسبة لا سحر فيها ولا غموض ، ويمكن أن يستدل على صحتها بالتجربة كما سنرى .

ويرى فندريس أنه من الحمق الحكم بوجود علاقة ضرورية بين أصوات الكلمة ودلالتها . وقد سخر من أولئك الذين نادوا بهذا الرأى أمثال « سان توماس الأكوينى » غير أنه اعترف بأن بعض الألفاظ أقدر على التعبير من البعض الآخر ، ولكن المرء فى رأيه حين يقيم ائتلافاً بين اللفظ ومدلوله إنما يسير على نهج عادة قديمة جداً حين كانت الألفاظ تعد جزءاً لا يتجزأ عن الأشياء ، وحين كان الاسم له منزلة الجسد والروح كما هو الحال الآن عند بعض الأمم البدائية الذين يعتقدون أن الإنسان يتكون من الروح والجسد والاسم .

ويختتم فندريس كلامه بما نصه [كل كلمة أيا كانت توقظ دائماً فى الذهن صورة ما ، بهيجة أو حزينة ، رضية أو كريهة ، كبيرة أو صغيرة ، معجبة أو مضحكة ، تفعل ذلك مستقلة عن المعنى الذى تعبر عنه ، وقبل أن يعرف هذا المعنى فى غالب الأحيان . اذكر اسم إنسان ما أمام شخص لم يره قط ، فإنه يكوّن عنه فكرة فى الحال ، فكرة زائفة على وجه العموم ، فاذا قدمت له هذا

المجهول أجابك على الفور « أهو هذا ؟ ما كنت أظنه هكذا ». ومثل هذا الشيء نفسه يحصل بالنسبة لكلمات اللغة . فإدراكنا للأشياء خاضع لانطباعات فجائية منبعثة من الاسم الذى يدل عليها] [١].

ويبدو من هذا النص أن فندريس يرى أن تلك الصورة التى تنطبع فى الأذهان لدى سماع الكلمة المجهولة لا تكاد تمت إلى الدلالة الحقيقية بأية صلة ، وهو بهذا يتجاهل أثر التجارب السابقة فى ذهن كل منا ، وما تخضع له كل لغة فى نظام مجموعاتها الصوتية ، وارتباط كل مجموعة منها بدلالة معينة . فمجرد النطق باللفظ يستدعى إلى الذهن أمثاله من الألفاظ ، ويستدعى معها دلالاتها ، ويستوحى المرء من كل هذا دلالة لذلك اللفظ المجهول على أساس ما اختزنه فى حافظته . وقد يوفق فى هذا الاستيحاء كل التوفيق أو بعضه ، ولكنه على كل حال يجد نفسه قريباً من الدلالة الحقيقية فى نسبة غير قليلة من الحالات ، وهو ما برهنت عليه تجاربنا مع بعض طلاب الكليات والمدارس .

سجل أبو حيان التوحيدى[٢] فى رسالة له كتبها فى الانتقاص من الصاحب ابن عباد لموقف له مع أحد الشعراء حين أنكر على هذا الشاعر أن يتجرأ على قول الشعر وهو يجهل كثيراً من الغريب . ثم سرد الصاحب على مسمع الشاعر طائفة كبيرة من الكلمات النادرة المهجورة التى كان يفخر بمعرفتها والإحاطة بدلالاتها منها : —

الهبلع ، الجرفاس ، الخيتعور ، النعثل ، القهبلس ، القذعملة ، الطُّربال ، الشنعوف ، العثلط ، القفندر .

وقد عرضنا هذه الألفاظ على مجموعة من طلبة الليسانس بكلية دار العلوم

(1) Language p.-237

(٢) العربية تأليف المستشرق يوهان فك ترجمة عبد الحليم النجار صفحة ١٦٢ .

عددهم أربعة وعشرون ، ثم عرضناها مرة أخرى على طلبة التوجيهية فى إحدى المدارس الثانوية وعددهم ثلاثة وعشرون ، وطلبنا من كل طالب أن يسجل ما توحيه كل لفظة من دلالة فى ذهنه .

ولكن رغبة فى ألا نترك الطالب فى ظلام دامس، رأينا أن نلمح له بما يحصر تخمينه فى نطاق محدود ، فقلنا له إن الهبلع والجرفاس والخيتعور والنعثل صفات للرجل ، وإن القهبلس والقذعملة من صفات المرأة ، وإن الطربال صفة للبناء ، وإن الشنعوف جزء من الجبل وإن العثلط صفة للبن ، وإن القفندر لواحد من الجمال أو القبح فأيهما تختار ؟

ويلاحظ فى التجربة أن بعض طلبة دار العلوم لم يجيبوا بشىء عن بعض الكلمات . وذلك لأننا طلبنا منهم عدم الإجابة حين يكون أحدهم على علم بمدلول الكلمة من قبل . وها هى ذى إجابات طلبة كلية دار العلوم :

١ — الهبلع :

فسرها تسعة من الطلبة على أنها « الأبله العبيط » ، وفسرها أربعة منهم على أنها « الأكول النهم » وهو المعنى المعجمى الصحيح ، وفسرها أربعة على أنها « الضخم المهول » ، وفسرها ثلاثة من الطلبة على أنها « القصير » أما باقى الطلبة فتباينت إجاباتهم .

وهكذا نرى أن مجموعة كبيرة من هؤلاء الطلبة تشترك فى الدلالة ، ونسبتهم ٣٧٪ أى ٩ من ٢٤ .

٢ — الجرفاس :

أجاب نحو ١٤ طالبا مفسراً الكلمة على أنها « القوى الضخم والشجاع الخشن » وتلك هى دلالات متقاربة بنسبة ٥٨ ٪ .

أما باقى الإجابات فمتباينة . والمعنى المعجمى لهذه الـكلمة هو « الضخم » .

٣ — الخيتعور :

أجاب ثمانية من الطلبة مفسراً الـكلمة على أنها « الذليل الضعيف الجبان الـكسلان »، ولم يجب بشىء ستة من الطلبة ، أما الباقى فإجابتهم متباينة ، أى أن نسبة الاشتراك فى الإجابة ٤٤ ٪ . والمعنى المعجمى لهذه الـكلمة هو « الخداع المخاتل » ، فليس منهم من استطاع تخمين المعنى الصحيح .

٤ — النعثـل :

لم يجب عن هـــذه الـكلمة غير ١٣ طالباً ، منهم ثمانية فسروها على أنها « الهادىء النائم الوديع » . أى أن نسبة الاشتراك فى الإجابة ٦١ ٪ . والمعنى المعجمى لهذه الـكلمة هو « الشيخ الأحمق » .

٥ — القهبلس :

لم يجب غير عشرين من الطلبة ، منهم عشرة فسروها على أنها « المرأة الضخمة البدينة » ، أى أن نسبة الاشتراك فى الإجابة ٥٠ ٪ . والمعنى المعجمى هو « المرأة الضخمة » .

٦ — القذعملة :

أجاب ١٧ طالباً ، منهم ١٤ فسروها على أنها القصيرة القميئة ، وتلك هى الدلالة المعجمية الصحيحة فتكون نسبة الاشتراك هنا ٨٢ ٪ .

٧ — الطربال :

أجاب ١٧ طالبا ، منهم٩ فسروها على أنها « البناء الضخم العالى الشامخ » ، وتلك هى الدلالة المعجمية الصحيحة فتكون نسبة الاشتراك ٥٣ ٪ . وأجاب ثلاثة فقط فوصفوا البناء بأنه « المتهدم المنهار » . أما الباقى فإجاباتهم متباينة .

٨ — الشنعوف :

أجاب عشرون طالبا ، منهم ١١ فسروها بأنها « قمة الجبل » أى أن نسبة الاشتراك ٥٥ ٪ ، فى حين أن ثلاثة فقط قالوا عنها إنها « أسفل الجبل » ، وأربعة من الطلبة وصفوها بأنها « طرف بارز رفيع » . والمعنى المعجمى لهذه الكلمة هو « القمة » .

٩ — العثلط :

أجاب عنها ٢١ طالبا ، منهم ١٧ وصفوه بأنه « اللبن المتجمد المتخمر » ، وتلك هى الدلالة المعجمية ، أى أن نسبة الاشتراك ٨٠ ٪ .

١٠ — القفندر :

أجاب عنها ٢٠ طالبا ، منهم ١٢ قالوا عنها إنها صفة للجميل ، ٨ من الطلبة قالوا عنها إنها صفة للقبيح . أما المعنى المعجمى للكلمة فهو « القبيح المنظر » .

وهكذا نرى أن مجموعة من الطلبة الذين ينتمون إلى وسط اجتماعى واحد ، ويشتركون فى الثقافة والبيئة التعليمية ، قد استنبطوا دلالات مشتركة بينهم بنسبة ٦٠ ٪ فى المتوسط . ولم يبق سوى النسبة القليلة التى يمكن إرجاعها إلى التجارب الخاصة والأمزجة المختلفة . كذلك نرى أن الدلالات المشتركة لم تكن دائما الدلالة المعجمية الصحيحة، فلا تكاد تجاوز الإجابة الصحيحة نسبة ٤٢ ٪ ، أى أن استنباط الدلالة الصحيحة من اللفظ أمر عسير حتى على أبناء دار العلوم الذين قطعوا شوطا بعيداً من الثقافة اللغوية .

أما إجابات طلبة التوجيهى فى المدرسة الثانوية ، فكانت نسبة الاشتراك فى المتوسط نحو ٦٠ ٪ أيضا ، ولكن الإجابة المطابقة للدلالات المعجمية لم تجاوز نسبتها ٣٠ ٪ لأنهم أقل اتصالا بالثقافة اللغوية العربية من أبناء دار العلوم .

فهم لأنهم من وسط واحد وعلى قدر واحد من الثقافة العامة اشتركوا فى استيحاء الدلالات بنسبة كبيرة ، ولكن إجاباتهم كانت مختلفة عن إجابات أبناء دار العلوم بشكل ملحوظ .

١ — الهبلع :

هنا رأينا ١٦ طالبا تحوم إجاباتهم حول جو واحد من الدلالة فمعظمهم وصف الكلمة بأنها « الأبله العبيط » ، وبعض هؤلاء قالوا عنها إنها « الطويل » ، ومن السهل علينا الربط بين الدلالتين . أى أن نسبة الاشتراك ٦٩٪ (١٦ من ٢٢)

٢ — الجرفاس :

أجاب عنها ١٢ طالبا بدلالات متقاربة تتلخص فى القوة وما يصحبها من شر أو شجاعة ، أى أن نسبة الاشتراك ٥٢٪ .

٣ — النعثل :

أجاب عنها ١٥ طالبا بدلالات متقاربة هى « النعسان النائم الهادى. » ، إى أن نسبة الاشتراك ٦٥٪ .

٤ — القهبلس :

أجاب ١٢ طالبا بقولهم إنها « الغانية الجذابة غير الشريفة » ، أى أن الدلالة فى أذهانهم حامت حول الجاذبية الجنسية ، فكانت نسبة الاشتراك ٥٢٪ .

٥ — القذعملة :

أجاب ١٦ طالبا فأصابوا فى استنباط المعنى المعجمى الصحيح وقالوا إنها « القصيرة » أى أن نسبة الاشتراك ٦٩٪ .

٩ — الشنعوف :

أجاب ١٣ طالباً فقالوا عنها « القمة »، وتلك هي الدلالة المعجمية الصحيحة، أن أن نسبة الاشتراك ٥٦٪.

٧ — الطربال :

أجاب ١٦ طالبا فوصفوا البناء بدلالات متقاربة مثل « العالى الشاهق الضخم » ، أى أن نسبة الاشتراك ٦٩٪ .

٨ — العثلط :

وصفه ١١ طالبا بأنه « الجامد الرايب المقطع » ، أى أن نسبة الاشتراك ٤٨٪ .

٩ — القفندر :

وصف ١٤ طالبا هذه الكلمة بأنها تعبر عن الجمال . أى أن نسبة الاشتراك ٦٠٪ .

ولسنا نزعم أن مثل هذه النسب تطرد فى كل تجربة من هذا النوع ، فقد تكون بعض الكلمات أكثر إيحاء من البعض الآخر ، وقد تختلف ظروف التجربة فلا تؤدى إلى نفس النتيجة فى كل مرة . ولكن الذى نؤكده هو أن نسبة كبيرة من الاشتراك فى استيحاء الدلالات تتم فى الوسط الموحد الثقافة ، والمتقارب فى التجارب . وتأيد هذا لدينا من تجارب أخرى متعددة أسست على كلمات أخرى مجهولة الدلالة .

ننتهى من هذه التجارب إلى أن اللغة تخضع لنظام خاص فى تركيبها من الحروف الهجائية ، وأن بعض هذه الألفاظ يختزنها المرء فى حافظته ، وهى وإن خضعت للنظام العام للغة تتميز بصفات معينة ، وتترك أثراً قويا فى ذهن من

يعيها ويحفظها . فاذا دل استقراء المستعمل من ألفاظ اللغة على أن نسبة توالى الفاء والجيم مثلا أكثر من توالى الفاء والصاد ، فقد يتصادف أن ما يحفظه المرء من ألفاظ يعطى نسبة أخرى قد تكون عكسية ، فيها توالى الفاء والصاد أكثر من توالى الفاء والجيم . ويقال حينئذ إن توالى الفاء والصاد فى ذهن شخص معين أوضح وأكثر شيوعا منه فى ذهن آخر ، ولكن الشخصين يخضعان معا للنظام العام الذى تجرى عليه ألفاظ اللغة .

تلك هى الصفة التى تميز شخصا من شخص ، وتجعل استيحاء الدلالة من اللفظ تختلف فى بعض الأحيان بين شخصين من وسط اجتماعى واحد وثقافة واحدة .

وتختلف نسبة شيوع المجاميع الصوتية فى ذهن كل منا ، فبعضها أوضح من الآخر وأقرب إلى التذكر ، فمجموعة مثل « ملع » تدعو إلى ذهن بعض الناس مجموعة مثل « دلع » ، وفى ذهن الآخرين مجموعة أخرى مثل « لمع »، ولذا نرى أن « ملع » قد يوحى إلى الفريق الأول دلالة « الدلع والميوعة والتخنث »، وقد يدعو إلى ذهن الفريق الآخر دلالة « اللمعان والبريق والضوء » .

هذا هو وحى الأصوات أو استيحاء الدلالات من الألفاظ ، وقد أطلقنا عليه الوحى لأنه لطيف لا يدرك إلا بعد التجارب والدراسة المستفيضة ، ولأنه عمل من أعمال العقل الباطن أو اللاشعور ، يحس به المرء دون أن يدرى كيف أحس به .

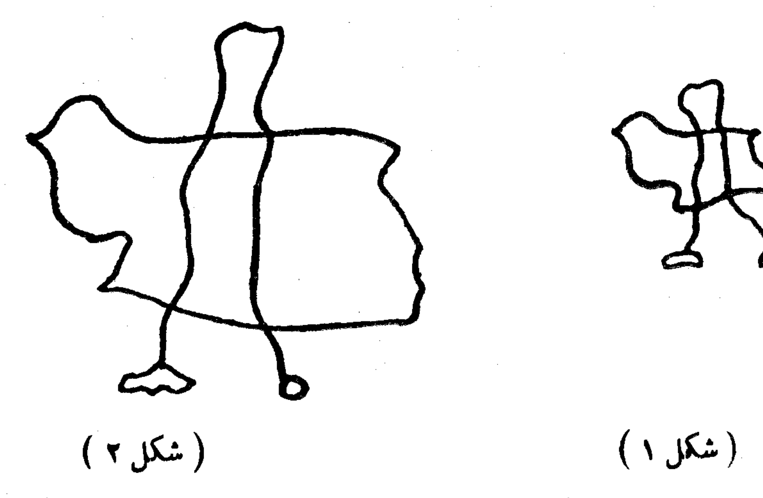
وللأدباء بصدد هذا الاستيحاء قدرة أخرى فوق ما للمرء العادى، يستمدونها من خيالهم وتبنيهم للألفاظ . وتمدهم هذه القدرة بظلال من الدلالات لا تكاد تخطر فى ذهن الآخرين . وليس من مجال هذا البحث التعرض لما يخطر فى ذهن الأدباء والشعراء ، ولذا نؤثر الابتعاد عنه ، تاركين تلك الظلال الدلالية الخاصة بهم لدارسى النقد الأدبى .

وكما توحى الألفاظ بالدلالات ، قد توحى الأشكال والمناظر بشيء من الدلالات أيضا . وذلك لأن المرء يعي فى ذهنه تلك الأشكال كما يعي الألفاظ ، ويربطها ربطاً وثيقا بالألفاظ الدالة على مناظر أو أشكال شبيهة بها . فصغر الشكل يدعو إلى الذهن الألفاظ التى تدل على صغر الحجم ، وتركب الشكل أو تعقده يوحى بالألفاظ الدالة على الجمع أو الكثرة .

وللغات فى هذه الظاهرة حال تبعث على العجب والدهشة . فإذا تصادف أن ألفاظ اللغة التى تدل على صغر الحجم تشتمل فى مجموعها على صوت معين ، نرى أن المرء قد يستوحى لدى رؤية شكل صغير لفظا مشابهاً لتلك الألفاظ ، ومشتملا أيضا على ذلك الصوت المعين . وقد دلت الملاحظة على أن « الكسرة » وما يتفرع منها « كياء المدّ » تكون عنصراً أساسياً فى كل الألفاظ الدالة على صغر الحجم . ولا تقتصر هذه الملاحظة على اللغة العربية ، بل لوحظت أيضا فى بعض اللغات الأخرى ، ولا غرابة إذن أن يقال إن الأشكال توحى بألفاظ معينة ، أو تجعل الرائى يؤثر لفظاً على لفظ ، ويستتبع هذا أنها تتدخل فى استيحاء الدلالات .

وقد قمنا بعدة تجارب اتضح لنا منها أن الكسرة أو ياء المدّ توحى بصغر الحجم ، وأن حروف التفخيم توحى بضخامة الحجم ، وأن الشكل المتعدد الأطراف أو الأجزاء قد يوحى بفكرة الجمع وهكذا .

وبدأنا تلك التجارب بعرض شكلين خياليين لا يمثلان فى الحقيقة شيئا ، ولا فرق بينهما سوى أن أحدهما كبير الحجم والآخر صغيره مثل :



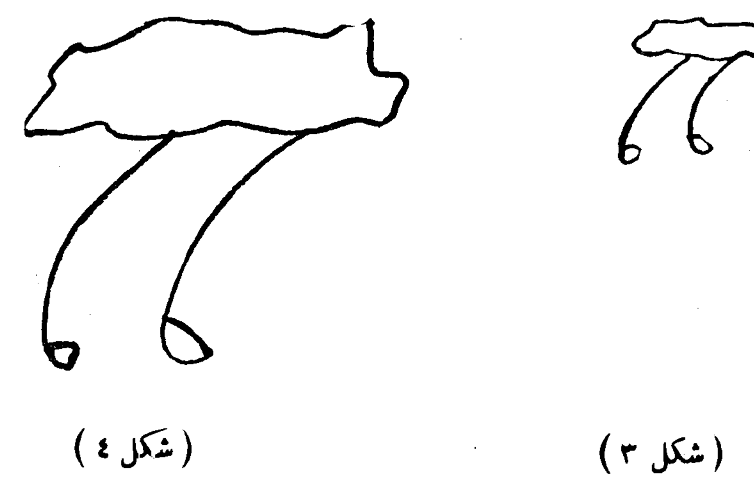
(شكل ٢)　　　　(شكل ١)

ثم طلبنا من مجموعة كبيرة من الطلبة أن يتخيروا أحد اللفظين المرتجلين (زليع ، زلوع) للشكل الأول ، وأن يتخيروا اللفظ الآخر للشكل الثانى ووجدنا أن نحو ٦٠ ٪ من الطلبة اختاروا لفظ « زليع » للشكل الصغير . ولا تختلف هذه اللفظة عن الأخرى إلا أنها تشتمل على (ياء المد) فى حين أن الأخرى تشتمل على واو المد ، مما يؤكد تلك الملاحظات التى أبداها بعض العلماء من ارتباط الكسرة وياء المد بصغر الحجم وضيق الوقت فى بعض اللغات(١) .

ثم عرضنا شكلين آخرين يختلفان فقط فى الحجم وطلبنا اختيار أحد اللفظين المرتجلين (ستين ، سليفة) للشكل الأول واللفظ الآخر للشكل الثانى ، فوجدنا أن الكثرة الغالبة قد اختارت لفظ (سليفة) للحجم الصغير . وهذا اللفظ يوحى بفكرة التأنيث ، وترتبط هذه الفكرة بصغر الحجم والرقة وضعف الأنوثة ، والشكلان هما :

---

(١) جسبرسن صفحة ٤٠٢ .
Language., its nature, development and origin.



(شكل ٤) (شكل ٣)

ثم عرضنا أشكالا أخرى لا تختلف إلا فى الحجم وعرضنا معها ألفاظاً مرتجلة مثل (الظاقع ، السالع) ، (السنيم ، الطقيخ) . فوجدنا أن الكثرة الغالبة كانوا يختارون اللفظ المشتمل على حروف التفخيم كالقاف والطاء والظاء والخاء للشكل كبير الحجم .

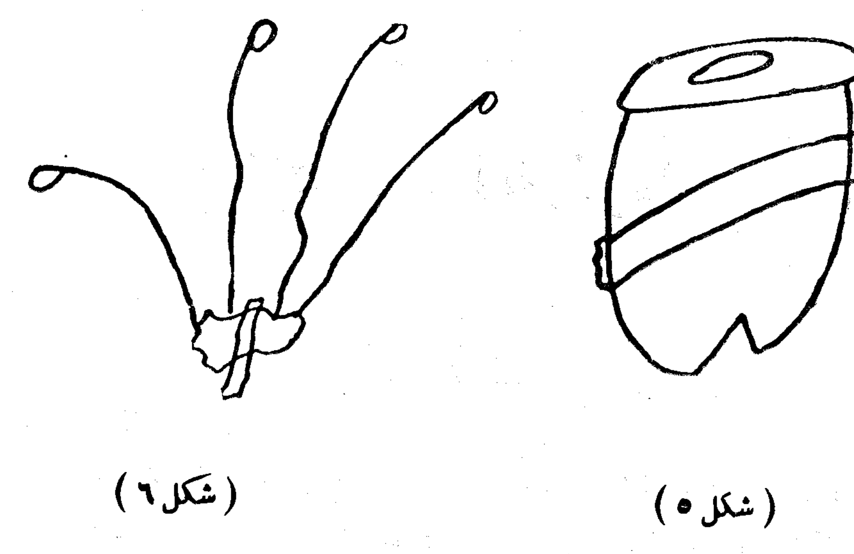
ويقرر بعض الباحثين فى اللغات الحامية أنها بوجه عام تميز بين المذكر والمؤنث بإضافة حرف « الكاف » فى آخر المذكر ، وإضافة حرف « التاء » فى آخر المؤنث (١) .

وبالمقارنة بين الحرفين نرى أن « الكاف » حرف يمكن أن يعد مفخما إذا قيس بنظيره الأمامى وهو « التاء » . أى أن فكرة ارتباط حروف التفخيم بالرجولة والقوة والضخامة ، وارتباط حروف الترقيق بالأنوثة والضعف وصغر الحجم أمر غير مقصور على ألفاظنا العربية .

وعرضنا أشكالا أخرى مثل :

---

(1) The Language families of Africa P. 91 by Werner .



(شكل ٦)　　　　(شكل ٥)

ومعها ألفاظ مرتجلة مثل (السفآن ، الأفناس)،(والشواجن، الشنغاف) ، ووجدنا أن الكثرة الغالبة كانوا يستوحون من الشكل الثانى فكرة الجمع أو الكثرة ، ويربطونه بما يوحى بتلك الفكرة من الألفاظ السابقة مثل (أفناس ، شواجن) ، فصيغة كل منهما تمثل صيغة مشهورة من صيغ جمع التكسير .

ومع اعترافنا بأن التجارب السابقة قد تمت فى نطاق ضيق نستطيع أن نتنبأ ونحن مطمئنون إلى أن إجراءها فى نطاق أوسع سيؤدى إلى نفس النتيجة أو ما أشبهها شبهاً كبيراً .

ونختتم هذا الفصل بأن نشير إلى أن استيحاء الدلالة غير مقصور على حروف اللفظ وأصواته ، بل قد تتدخل الصيغة أو بنية اللفظ فى هذا الاستيحاء . فمجرد النطق بألفاظ مرتجلة مثل ، (سنيم ، مطافع ، عفول) يوحى إلى الذهن أنها أوصاف أو أسماء ، فى حين أن صيغاً أخرى مثل: (ملع ، بلهط ، يسافع ، انشكع) توحي إلى الذهن أنها أفعال.

الفصل الخامس

اكتساب الدلالة ونموها

— ١ —

لدى الأطفال

تنشأ الدلالة لدى الطفل ، ولكنها ليست كنشأتها الأولى لدى الإنسان الأول ، فليست خلقاً جديداً حين يدركها أطفالنا ، بل هي أمر شائع مألوف عند الكبار حولهم . وكذلك الألفاظ التي ترمز لهذه الدلالة ليس فيها من جديد ، بل هي أيضاً معروفة مألوفة عند جميع أفراد البيئة اللغوية .

ولا يكاد يمر الطفل بمرحلة المناغاة حتى يدرك من طريق سمعه أن هناك مجموعة صوتية ينطق بها الكبار حوله وهي التي تسمى بالألفاظ ، وأن هذه الألفاظ تحقق للطفل رغباته كلما حاول النطق بها .

ويبدأ الطفل بعد السنة الأولى من عمره يربط بين ما يسمع وما يترتب على هذا الذي يسمعه من أحداث ، ونقول حينئذ إن مرحلة الفهم قد بدأت لدى هذا الطفل . وقدرة الطفل على الفهم أكبر من قدرته على النطق في السنة الثانية من حياته ، لذا يقال دائماً إن فهم الأطفال لمدلولات الألفاظ يسبق القدرة على تقليد تلك الألفاظ . فهو يفهم مدلول كلمة « العين واليد والرجل والرأس » وغيرها من ألفاظ كثيرة الشيوع في محيطه قبل أن يغامر فينطق بمثل هذه الألفاظ .

ثم لا يلبث الطفل أن ينطلق من عقاله فيقلد الكبار في نطق ألفاظهم ، ويوجه كل عنايته لإجادة النطق بها ؛ لأنها الوسيلة لإدراك رغباته والحصول

على ما يشتهى . وليس يقلد تلك الألفاظ حبا فيها لذاتها ، وإنما لما يترتب على النطق بها من أحداث وأعمال .

ويخطىء بعض الآباء والأمهات حين يتصورون أحيانا أن أطفالهم الصغار لا يكادون يفهمون شيئاً مما يدور حولهم ، ثم قد يندمون فيما بعد حين يتبين لهم أن هؤلاء الأطفال يفهمون أكثر مما يتصور أهلوهم !!

وكذلك قد يغالى بعض الأمهات والآباء فينسبون لأطفالهم قدرا من الفهم هو فى الحقيقة فوق مداركهم ، ولم يخطر فى أذهان هؤلاء الأطفال .

لهذا تجب الحيطة فى الحكم إلا بعد أن يألف الطفل النطق بالألفاظ فى سياق الحوادث ، ويمرن على تكوين العبارات والجمل التى تبين بوضوح مقدار هذا الفهم ، ونصيبه من الصحة والصواب .

وتتكرر الحوادث أمام الطفل مصحوبة بتلك المجموعات الصوتية التى تسمى بالألفاظ ، فيوثق الطفل الربط بين هذه الحوادث وتلك الألفاظ . ثم تتكرر تجاربه وتتنوع ، ويشعر بمتعة كبيرة حين يجرب النطق بلفظ من الألفاظ فيتحقق له نتيجة هذا النطق ما كان يرغب ويشتهى .

ويبدأ الطفل إدراكه للدلالات فى صورة ناقصة قاصرة تسمى أحيانا بمرحلة الدلالات الخاصة أو مرحلة العلمية . فكل لفظ يسمع للمرة الأولى يتلقاه الطفل وكأنه علم من الأعلام لا يطلق إلا على ذلك الشىء المعين الذى ارتبط به فى تلك التجربة المعينة . فالطفل فى أواخر السنة الأولى وأوائل الثانية حين يسمع كلمة (السرير) ويربط بينها وبين سريره الصغير ، يأخذها على أنها علم لذلك الشىء الذى ينام فيه والذى يحل مكانا معينا فى حجرته والذى غطى بغطاء ذى لون معين أحمر أو أخضر .

ثم تتكرر التجارب ويسمع الطفل لفظ « السرير » يطلق على سرير

أخيه الكبير وسرير أبويه ، وهما يشتركان مع سريره فى صفات ويختلفان فى صفات أخرى . وهنا يبدأ عملية التعميم لعله يصل إلى المعنى الكلى للأشياء ، فيتلمس وجوه الاختلاف بين تلك الأشياء التي يطلق عليها لفظ « كرسى » مثلا ، ويحاول تمييز الصفات الأساسية من الصفات العرضية ، ولكنه فى هذه المحاولة قلما يصيب الهدف ؛ بل يتعثر ويخلط بين تلك الصفات ، وقد يجعل من الصفات العرضية صفات أساسية . فإذا رأى شخصا يجلس على صندوق مثلا خيل إليه أن الصفة الأساسية لما يسمى بالكرسى هى إمكان الجلوس عليه ، وهنا قد يطلق على الصندوق كلمة « كرسى » !! .

وليس منا من لم يمر بمثل هذه التجربة مع الأطفال ، « فالكنبة » عند بعضهم « سرير » ، و « المكتبة » عند آخرين « دولاب » و « المكتب » « ترابيزه » وهكذا . ويشغف الطفل بعالم الحيوان شغفاً كبيراً ، ولا يلبث أن يلتقط ألفاظاً مثل الحمار ، الحصان ، الجمل ، البقرة على حسب ما تسمح به بيئته . فالطفل فى المدن قد يسمع لفظ « الحمار » قبل أن يسمع لفظ « البقرة » . فإذا تكررت أمامه رؤية « الحمار » ، وتكرر سماعه لهذا اللفظ ، ثم تصادف أن رأى للمرة الأولى « حصانا » فقط يطلق عليه لفظ الحمار ، بل قد يطلقه على الجمل أو البقرة ؛ لأن الصفة الأساسية فى كل هذه الحيوانات أنها تمشى على أربع .

ويخلط الطفل كذلك بين أنواع الطيور ، فقد يسمى « الببغاء » « فرخة » ، و « الحمامة » « عصفورة » ، والحدأة غرابا ، على حسب ما تسمح به تجاربه ، وما تسمح به البيئة التى ينشأ فيها .

ولعل كلمة الأب والأم من أسبق الألفاظ إلى ذهن الطفل ، ولا يلبث هذا الصغير أن يتخذ لمدلول لفظ الأب صفات غير أساسية يلتمسها من صفات أبيه ، ثم يخلع لفظ الأب على كل من يتصف بهذه الصفات العرضية . فإذا كان أبوه

مطر بشأ وله شوارب طويلة ويمسك عصا فى يده ، ثم تصادف أن رأى رجلا يتصف بمثل هذه الصفات العرضية أطلق عليه فى براءة الأطفال كلمة الأب .

والطفل فى الوقت الذى يحاول فيه تعميم الدلالة ، نراه أحياناً يخصص من العام ، ويقصر ما هو عام الدلالة على شىء معين مر به فى تجاربه مرتبطاً بذلك اللفظ ذى الدلالة العامة . فقد يتصادف أن يسمع الطفل ممن حوله وفى أثناء لعبه عبارات مثل : خذ لعبتك ، هات لعبتك ، لعبتك حلوة ، وكانت لعبته حينئذ على صورة حيوان أو طيارة أو قطار ، نرى الطفل يربط بين لفظ « لعبة » ذى الدلالة العامة ، وبين لعبته المعينة . ويصر على عدم استعمال هذا اللفظ إلا حين تكون اللعبة على ذلك الشكل المعين .

نرى من كل هذا أن الطفل يقضى زمناً غير قصير يحاول فيه تعميم الخاص من الدلالات وتخصيص العام ، ويلاقى فى هذه المحاولة عنتاً ومشقة قبل أن يهتدى إلى الدلالة الصحيحة على النحو الذى يدركه الكبار حوله .

ويتسبب بعض الآباء دون عمد أو قصد فى تضليل أطفالهم إزاء لفظ من الألفاظ يستعمله الكبار استعمالا غامضاً ، فيرتبط فى ذهن الطفل بمدلول غامض لا يتخلص منه إلا بعد تجارب كثيرة .

فقد يقف بعض الكبار حول الطفل ينظرون وهو يجرب لعبة جديدة للمرة الأولى ويحسن تجربتها ، فيصيح أحدهم دهشاً متعجباً « هايل » ! فيأخذ الطفل هذه اللفظة ويطلقها على كل لعبة من هذا النوع ، وقد يطلب إلى طفل من جيرانه أن يحضر ليلعب معه « بالهايل » !! .

كذلك قد تكرر الأم أمام الطفل عبارة مثل « تعالى نام جنبى » فلا يلتقط منها الطفل سوى كلمة « جنبى » التى يفهمها على أنها تعنى عملية محببة لكل الأطفال وهو النوم فى أحضان أمهاتهم ، ولا نلبث أن نسمع حينئذ ذلك الطفل يصيح متوسلا إلى أمه وناطقاً بكلمة « جنبى » بمعنى « النوم » ! .

ويستمتع بعض الكبار بمثل هذا الانحراف فى الدلالة لدى الأطفال ، فيضحكون ، وقد يستعملون اللفظ على غرار ما فعل الطفل ، فيثبتون الخطأ فى ذهنه وتظل تلك الأخطاء الدلالية موضع السمر والفكاهة فى الأسرة زمناً طويلا .

ويميز الطفل بعد زمن قليل بين المفرد والجمع أو بين القليل والكثير من الأشياء ، ولكنه يظل يتعثر فى الأعداد زمناً طويلا . وقد يعلمه والداه النطق بالأعداد من واحد إلى عشرة فيردد ماتعلم وما لقن دون فهم حقيقى لمعناها ، حتى إذا جئته بعدد من التفاح أو البرتقال وطالبته بعدها شاهدت تعثره وخلطه بين الأرقام .

ويصادف الطفل إزاء طائفة معينة من الألفاظ صعوبات جمة تعقد الأمر عليه وتزيد فى عثراته ، وتلك هى :

(ا) الألفاظ ذات الدلالات المتقابلة أو المضادة مثل « فوق ، تحت » و « سخن ، بارد » و « عالى ، واطى » و « يمين ، شمال » . فيخلط بينها ويستعمل إحداها مكان الأخرى زمناً غير قصير .

(ب) المشترك اللفظى ، وذلك كأن يدل اللفظ الواحد على أكثر من دلالة ، « فالسيجارة » فى يد أبيه غير « السيجارة » فى يد أمه أثناء الرفى أو الخياطة ، و « الملف » قد يسمعه من أبيه الموظف ويسمع « ملفاً » آخر من الحوذى أمام بيته ، و « الكتاب » فى يد أخيه التلميذ « والكتاب » فى ليلة عرس لعمته أو خالته . ويتضاحك الناس فى أمثالهم على مثل هذا الخلط بين الدلالات ونسمع منهم ذلك المثل المصرى :

[قال أبوى من خيار الناس ، قال يابا هات لى خيار]

(حـ) كلمات متشابهة الأصوات مثل :

[النعناع والمقلاع ، الخنطور والطرطور ، العياقة والليـاقة ، والاقتراح والاختراع ، الصورة والسورة]

فإذا تصادف أن سمع الطفل للمرة الأولى كلمتين من هذا النوع فى ظرفين مختلفين سبب له هذا بعض الحيرة والدهشة ، فيقابلهما أحياناً بالصمت ، وأحياناً بالتساؤل والاستفسار . ويظل بعد هذا يخلط بينهما زمناً ما إلى أن تتضح له معالم كل من الـكلمتين . بل إن الخلط بين هذه الـكلمات غـير مقصور على صغار الأطفال ، فـكثيراً ما يقع فيه الـكبار ، وهو ما يفسر لنـا الخلط بين شبابنا المتعلم فى كلمتى « العتيق والمتيد » وجعلهما بمعنى واحد . ومن التلاميذ من لا يفرقون بين « الظرافة » من الظرف ، « الزرافة » للحيوان المعروف ، بين الزكاء للنماء والذكاء ضد الغباوة ،وبين ذلَ ، زلّ .

(د) كلمات تختلف دلالاتها باختلاف السياق كـكلمة « صاحب » التى يسمعها الطفل فى عبارة مثل « صاحب البيت » أى المالك ، ويسمعها مرة أخرى تشير إلى صديقه فى مثـل « صاحبك » . وأسبق هذا النوع من الـكلمات إلى محيط الطفل تلك التى نسميها بالضمائر . فالطفل يسمع أباه يقول « أنا » ويسمع أمه تقول « أنا » ويسمع الخادم يقول « أنا » ، فلا يدرى أى هؤلاء هو « أنا » الحقيقى ؟ ولا ندهش من أجل هذا أن نسمع طفلا يقول لأبيـه [أنا روح يريد [أنت اذهبْ] ،أو حين يشير إلى نفسه بالضمير « أنت » ويقول [أنت نـنّـه] أى أريد أن أنام . ويزيد بعض الـكبار صعوبة هـذه الضمائر حـين يستعملون فى خطاب الأطفال الأسماء بدلا منها فيقولون مثلا (توتو دحّـة) و « توتو » هنا طبعا اسم الطفل ، فيعوقون سيطرة الطفل على الضمائر والتفرقة بينها . وقد كان بعض فلاسفة الألمان يحتفل باليوم الذى يستطيع فيه طفله استعمال الضمير « أنا » ، متخذاً من هذا دليلا على بدء شعور الطفل بكيانه واستقلاله .

ومما يعقد الأمر على أطفالنا فى تلك الضمائر ، المتصلة منها والمنفصلة ، فيظل الطفل يتعثر فيها إلى سن الثالثة أو الرابعة أحيانا . فيقول الطفل مثلا « تو توخد اللعبة من انت » بدلا من « منك » ، أو يقول « من أنا » بدلا من « منى » ، و « جزمة انت » بدلا من « جزمتك » ، و « من هوه » بدلا من « منه » وهكذا ...

فليس الأمر كما يتصور بعض الدارسين من أن الطفل يسيطر على دلالة الألفاظ فى غير عنت أو مشقة ، بل الصحيح أنه يصادف فى هذا صعوبات كثيرة تظل تلازمه زمنا طويلا . فقد يسيطر على الأصوات وتراكيب الجمل وطرق النفى والإثبات والتوكيد وغير ذلك من الظاهر الصوتية أو النحوية قبل التحاقه بإحدى المدارس . فلا يكاد الطفل الأوربى يمر بمرحلة التعليم الثانوى حتى يصبح الخطأ فى مثل هذه الظواهر أمراً غير مألوف ولكن الطفل فيما يتعلق بالدلالات يظل يتعثر فيها طول حياته ، ويختلف فهمه لها مرحلة بعد أخرى ، فهى تضيق حيناً ، وتتسع حيناً آخر ، وتتجدد وتتنوع وتنمو مع الزمن ، فلا يكاد يسيطر على بعضها بعد سن معينة حتى يصادفه سيل جارف منها يستأنف الصراع معها . فنحن نقضى كل حياتنا فى صراع مع تلك الدلالات ، ويندر أن يسيطر أحدنا على دلالات كل ألفاظ اللغة ، بل يكاد يكون هذا مستحيلا .

وتعد أجزاء الجسم من أسبق الألفاظ إلى سمع الطفل ولسانه ، فهو يعرف كل أو جل أجزاء جسمه فى سن الثانية : كالعين والأنف والأذن والإصبع والظفر والرجل واليد والبطن والرأس والشعر .

وهى لذلك تعد من أقدم الألفاظ فى اللغات البشرية . ويكفى أن نقارن بين ألفاظ عدة لغات من فصيلة واحدة ليتضح لنا أنها تشترك فى مثل هذه الألفاظ ، لأنها استمدت من الأم الأصلية لهذه اللغات ، فانحدرت إليها جميعاً

على صورة واحدة ودلالة متحدة . فحين نقارن بين العربية والعبرية ونستعرض منهما تلك الألفاظ التي تدل على أجزاء الجسم نراهـا فى اللغتين متحـــدة الصورة والدلالة:

راس = ראש	شعر = שֵׂעָר	آذن = אֹזֶן
أنف = אַף	عين = עַיִן	فوه، فم = פֶּה
ذقن = זָקָן	شفة = שָׂפָה	يد = יָד
رِجْل = רֶגֶל	بطن = בֶּטֶן	جسم = גֶּשֶׁם
كبد = כָּבֵד	كتف = כָּתֵף	

وتنتقل دلالات هذه الألفاظ القديمة إلى الجمـاد فنتصور للكرسى رجلا ويداً ، ونقول مثلا : أسنان المشط والمنشار ، يد السكين ، عين الإبرة ، أذن الإبريق ، فم النهر ، عنق الزجاجة ، لسان الجزمة ... ونحو ذلك من مجازات واضحة العلاقة سهلة التفسير يتقبلها الطفل الصغير دون غرابة أو دهشة ، لأن الاستعمال الجديد يشترك فى المظهر الخارجى مع القديم . ويساعدعلى تقبل الطفل لهذا النوع من المجاز أنه يعيش زمناً غير قصير فى عالم الخرافات والخيال، ويشخص الأشياء فيجعل منها مخلوقات حية أوشبه حية .

ويعد هذا الانتقال فى الدلالة من المجازات العامـة ، التى تنشأ بين أفراد البيئة اللغوية ، رغبة فى توضيح الحديث وإبراز صوره . ولا تتطلب تلك المجازات من جمهور الناس مهارة خاصة ، أو حذقا خارقا للعادة للاهتداء إليها ، فليست كتلك المجازات التى يبتكرها الشعراء والكتاب ، ويجهدون قرائحهم فى الغوص عنها . ولذلك تعد تلك المجازات من أقدم أنواع المجاز ، فلم تعد تثير فى الأذهان غرابة أو طرافة ، وأصبحت بعد شيوعها من الحقيقة .

وكما يستعير الناس أجزاء الجسم ويخلعونها على الأشياء ، قد يستعيرون أيضاً أجزاء الحيوان والنبات ويلصقونها للجماد فيقولون مثلا :

جناح الطائرة ، ذيل الفستان ، جذور الأسنان .

وهكذا يمرن الطفل منذ صغره على نقل الدلالة من مجالها إلى مجال آخر ، ويدرك أن الدلالة لا تكاد تستقر على حال واحدة ، وأنها قابلة للتغير والتطور .

وكثيراً مايعتمد الطفل فى فهم الدلالة على الاستنباط من سياق الحديث والحوادث ، فيحدد قيمتها على حسب فهمه واستنباطه ، وترتبط فى ذهنه بتلك التجارب السابقة التى تعلم منها اللفظ .

وقد يسأل الطفل عن دلالة لفظ من الألفاظ فيجيبه أبوه أو أمه إجابة دقيقة أحيانا وغامضة أحيانا ، فتأخذ الدلالة فى ذهنه حدوداً خاصة تختلف فى كثير من الأحيان عما فى أذهان الكبار حوله .

فدلالات الأشياء ترتبط فى أذهان الأطفال بتجاربهم السابقة ارتباطا وثيقاً ، وعلى قدر اختلاف تلك التجارب تختلف الدلالات فى أذهانهم . فالطفل الذى تعود منذ صغره أن يكون له كلب صغير يدلله ويؤاكله ويلاعبه ، وقد ينام معه فى سريره ، يدرك من دلالة لفظ « الكلب » غير مايدرك طفل آخر كل تجاربه مع الكلاب تتلخص فى أن أحدها قدعضه فى رجله فى يوم من الأيام !! .

والطفل فى القرية الذى تعود منذ صغره أن يقود البقرة أوالجاموسة إلى الحقل ، ويناولها طعامها ، ويداعب قرونها وقد يركب عليها ، يدرك من مدلول هذين اللفظين حدوداً من الدلالة واضحة التفاصيل والمعالم ، فى حين أن الطفل بالمدن يظل زمنا طويلا غير مستطيع التمييز بين البقرة والجاموسة ، وتبقى دلالتهما فى ذهنه غامضة وقتا غير قصير .

وموقف الأمم البدائية من دلالة الألفاظ يشبه إلى حد كبير تلك المرحلة التى

فيها نرى الأطفال لا يكادون يميزون بين الدلالات الكلية والدلالات الخاصة ، والتى لا يتصورون عندها أنه من الممكن أن يوجد فى الدنيا أب غير أبيهم أو أم غير أمهم أو سرير غير سريرهم ، فالكلمات عندهم أعلام أو مايشبه الأعلام ، لا تطلق إحداها إلا على شىء معين .

فيحدثنا بعض الباحثين ممن درسوا لغات الأمم البدائية أن الهنود الحمر ليس لديهم كلمة يمكن أن تطلق على شجر البلوط بأنواعه المختلفة وألوانه المتباينة ولكنهم يختصون « البلوط الأسود » بكلمة معينة ، والبلوط الأحمر بكلمة أخرى لا تمت للأولى بأى صلة ، فهم لا يكادون يدركون الدلالة الكلية للأشياء ، بل يتخذون لكل نوع كلمة خاصة تدل عليه . فما تدل عليه كلمة مثل « شجرة » لامفهوم له فى أذهانهم ، وإنما الذى يدركونه هو نوع معين من الشجر ، كشجرة الكافور أو شجرة الموز أو شجرة التوت ، فلكل من هذه الأنواع كلمة خاصة فى لغتهم .

كذلك يحدثوننا أن الهورونيين (سكان أمريكا الشمالية) ليس فى لغتهم مايعبر عن عملية الأكل بمعناها العام ولكنهم يتخذون لأكل اللحم كلمة خاصة، ولأكل الخبز كلمة أخرى ، ولأكل الموز كلمة ثالثة وهكذا .

ومما حدثونا به أن سكان جزيرة تسمانيا (قرب استراليا) لا يكادون يستعملون اللغات بمعناها العام ، فصفة الطول لا وجود لها بين ألفاظهم ، وهم من أجل هذا يلجأون إلى التشبيه للتعبير عن هذه الصفة ويقولون، مثلا هو « كالشجرة أو النخلة » — أى أنه طويل أو مفرط فى الطول .

وفى بعض لغات وسط أفريقيا اختلط الأمر على أصحابها ، ولم يربطوا بين الأشياء التى من نوع واحد فلم تتكون لها فى أذهانهم دلالة كلية ، فليس لديهم

كلمة للتعبير عن «السمك» بأنواعه ، ولـكنهم يصطلحون كلمة خاصة لـكل نوع من أنواع السمك المعروفة لهم . وقد أدى هذا إلى أن لغتهم قد خلت أو كادت من الفـكرة المجردة للجمع ، فلا يجمعون الاسم المفرد ، أو يتخذون للجمع صيغة مخالفة لصيغة المفرد ، فإذا اضطروا فى النادر من الأحيان للتعبير عن الجمـــع أو الـكثرة لجأوا إلى وسائل أخرى غير مألوفة فى اللغات المشهورة(١).

كذلك مما حدثنا به هؤلاء الدارسون أن بعض القبائل فى وسط البرازيل يتخذون كلمة خاصة لـكل نوع من أنواع الببغاوات ولـكل نوع من أنواع النخيل ؛ وأن الموهاكيين mohicans لايعرفون كلمة للتعبير عن القطع بمعنـاه العام ، بل تختلف الـكلمة عندهم باختلاف المقطوع ، وأن قبيلة « الزولو » تصطنع كلمة خاصة للبقرة البيضاء ، وأخرى للبقرة الحمراء ؛ وأن فى « شيروكى » يختلف الغسيل باختلاف المغسول فلديهم كلمة لغسل اليد وأخرى لغسل الثوب وثالثة لغسل الأطباق !! .

وليس فى كثير من اللغات البدائيه كلمة للأخ، بل هناك كلمة للأخ الـكبير وأخرى للأخ الصغير .

كذلك يقال لنا إن كلمات الألوان فى « ليتوانيا » تختلف باختلاف الشىء الملون ، فـكلمة « الأزرق » حين يوصف بها الصوف تختلف عنها حين يوصف بها البحر . ويشبه هذا مانعرفه عن كلمة « أدهم » العربية التى يوصف بهـــا الفرس الأسود ، ولـكن لايقال عن الثوب الأسود إنه ثوب « أدهم » مثلا!

ومما يروى لنا عن لغات « أميرندا » أن ألفاظ الأعداد فيها تختلف باختلاف المعدود. ويشبه هذا مايزال شائعاً حتى الآن فى بعض اللغات من حيث المقاييس والموازين .

1—Language families oi Africa, p. 43.

وأخيراً وليس آخراً فقد ظهر لهؤلاء الدارسين أن الشعر القوطى Gothonic يشتمل على كلمات مترادفة كثيرة للتعبير عن [السيف والبحر والمعركة والأبطال] ونحو هـذا مما تضمنته ملاحمهم . وكانت كل كلمة من تلك المترادفات تتميز بصفات معينة ، ثم تنوسيت تلك الصفات فتولد الترادف بين كلمتين أو أكثر ، أى أن ماحدث فى بعض المترادفات العربية حدث مثله فى لغة الشعر «القوطى» ، ففى العربية مثلا ألفاظ كثيرة للسيف رويت لنا على أنها ألفاظ مترادفة ، ولكن كلا منها كان فى وقت من الأوقات يتميز بشىء ليس فى الألفاظ الأخرى . فلما أهملت الفروق أو نسيت نشأ الترادف بين ألفاظ السيف .

وفى رأى هؤلاء الدارسين أن أوضح ماتتصف به اللغات البدائية هو ذلك العدد الوفير من ألفاظ يمكن الاستغناء عنها لو أن الفكرة الكلية فى الدلالة قد اتضحت فى أذهان أصحاب هذه اللغات . ومع مابها من ألفاظ لاحاجة إليها تعوزها ألفاظ كثيرة جداً للتعبير عن الدلالات المجردة والمعانى العقلية السامية . ولعل ما يسيطر على هؤلاء القوم من التطير والتفاؤل والتشاؤم كان من أهم الأسباب فى كثرة كلماتهم ذات المعانى المتقاربة . فكثيراً ما يهجرون ألفاظاً ويتبنون أخرى مكانها للتعبير عن نفس المعنى .

— ٢ —

الدلالة لدى الكبار

حدود الدلالة :

هناك أمور ثلاثة يجب التمييز بينها وهى : اللفظ ، الشىء ، الصورة الذهنية . فكلمة « التفاح » لفظة تتكون من عدة أصوات يعرف دارس الأصوات كيف تصدر من الفم ، وصفات كل صوت منها ، وما تحدثه من اهتزازات

وذبذبات حين النطق بها . و« الشيء » بالنسبة لـكلمة التفاح هو تلك الفاكهة اللذيذة المعروفة ، أما الصورة الذهنية فهى ما يتصوره كل منا حين يسمع تلك الـكلمة . والربط الحقيقى لا يـكون إلا بين الشيء وصورته الذهنية ، أى أن اللفظ شيء أجنبي عنهما اتخذ دليلا عليهما أو رمزاً لهما ، ولـكنه اكتسب مع الزمن صفة سمت به فوق اعتباره مجرد رمز من الرموز .

ونحن فى تجاربنا العادية نتعرف على التفاح للمرة الأولى برؤيته والاستمتاع بأكله ، ونحدد له فى أذهاننا صورة ندعوها كلما سمعنا هذا اللفظ ، وتتـكرر تجاربنا مع التفاح فتزداد تلك الصورة الذهنية وضوحاً ، ونصف أنفسنا حينئذ بأننا ندرك دلالة هذا اللفظ .

ونتعود منذ الصغر على التمييز بين الصفات الأساسية والصفات العرضية لهذا الشيء ، فلا نتخذ من الحجم أو اللون صفة مميزة للتفاح ، ولا نخلط بين التفاح والـكمثرى والبرتقال ، بل يستطيع الطفل الصغير أن يميز بينها بسهولة بمجرد رؤيتها . فالصورة الذهنية لـكل منها واضحة جلية ، غير أنه حين نسائل أنفسنا عن تلك الصفات الأساسية التى تجعلنا نسمى التفاح تفاحاً ، والتى تميزه من البرتقال مثلا ، نجد أنفسنا فى حيرة ويصعب علينا وصفها أو تحديدها ، بل إنها تتطلب عالما إخصائياً ليحدد تلك الصفات تحديداً دقيقاً [1] . ونـكتفى فى غالب الأحيان حين يسألنا أحد الناس عن معنى التفاح ، بأن نعرض عليه تفاحة ، أو أن نصفها وصفاً تقريبياً بعيداً عن الدقة ومشتملا على بعض الصفات العرضية . ويتقبل السامع هذا الوصف التقريبي ويقنع به ، بل قد يستعمله حين يسأل عن معنى التفاح دون محاولة الغوص عن دقائقه وحدوده المميزة .

ولا يجد المرء متسعاً من الزمن أو فرصاً من المعرفة ليتعرف على كل ما حوله فى صورة دقيقة المعالم والحدود ، وهو مع ذلك فى حاجة إلى التعبير عما حوله

---

1 — The Story of Language. p. 113.

فى حديثه اليومى مع أفراد بيئته . ولذا يقنع بما يشيع بين الناس من فهم قاصر للدلالات ، ويظل يتعامل بها معهم حتى تتاح له فرص من العلم يدرك بعدها أن فهمه لتلك الدلالات، كان غير دقيق ، فكلنا نعرف معنى السكّر وإن صعب علينا وصفه ، ولكن دارس الكيمياء يعرف كيف يتكون ، ومم يتكون ، ويؤلف لنا معادلة كيميائية تعد فى الحقيقة التعريف الصحيح الدقيق لهذا الشىء المألوف لنا جميعا .

على أنه إذا أمكن لدارس الكيمياء أن يحدد لنا معنى «الملح» أو «السكر» فسنظل فى حيرة أمام تلك الدلالات المجردة كالحب والكره والسعادة ، وغير ذلك من ألفاظ تكون الكثرة الغالبة فى معظم اللغات . فالدلالات تنمو معنا ، وتتحدد معالمها على قدر ما نصل إليه من معرفة . فدلالات الأطفال هى أطفال الدلالات ، نتبناها منذ صغرنا ، ونغذيها بما يتاح لنا من علم وتجارب ، فتتغير وتتطور مع الزمن حتى تستقر على حال معينة فى ذهن كل منا .

وتكتسب القلة من الدلالات هذا الاستقرار منذ التجارب الأولى ، ولكن الكثير منها يتطور مع الزمن ومع التجارب المتعددة . فالحوت يظل فى أذهاننا فى صورة السمكة الكبيرة حتى نتعلم شيئاً عنه فندرك أنه حيوان ثدبى يتنفس الهواء مباشرة .

وتقنع كل لغة بذلك الفهم التقريبي ، ويقنع معها اللغوى عادة بما يشيع بين الناس من دلالات قاصرة ، فيضع معجمه ويفسر ألفاظه على قدر فهم جمهور الناس لها ، لا على قدر فهم العلماء المتخصصين تاركا تلك الدلالات الدقيقة للمعاجم العلمية وكتب المصطلحات.

وتتأثر الدلالة فى نموها وتطورها بمؤثرات أوضحها أنها تختلف لدى كل منا باختلاف التجارب التى نمر بها، والظروف المحيطة بهذه التجارب . فالطفل يرى التفاح للمرة الأولى فى صورة معينة وفى حجم معين ولون معين ثم تتكرر

تجاربه ويراه فى صورة أخرى، وظروف أخرى ، مرةوهوسليم معافى وأخرى وهو مريض لا يشتهى ، فلا تكاد تتفق التجارب فى حياتنا إزاء شىء معين . ويتكون فى آخر الأمر من كل تلك التجارب المختلفة لدى كل منا صورة ذهنية معينة ، نستحضرها كلما سمعنا لفظ التفاح . فمنا من يستحضر صورة التفاح لدى سماع لفظه ، كبير الحجم أحمر وقد وضع فى إناء بلورى كبير ، ومنا من تكون صورته الذهنية عن التفاح أن نصفه أحمر ونصفه أصفر ، وفريق ثالث يستحضرون صورة ذهنية عن التفاح الأصفر الذهبى اللون .

ومتى سلمنا باختلاف تجارب المرء نفسه فى الظروف المختلفة ، فأجدر بنا أن نسلم باختلاف التجارب باختلاف الأشخاص . فالصورة الذهنية عن المحراث فى ذهن الفلاح غيرها فى ذهن أهل المدن . فليس منا من لم ير المطر أو يجرب سقوطه تجارب لاحصر لها وفى ظروف لاحصر لها أيضا ، فإذا سمع لفظة المطر أدرك مدلولها ، ولـكننا وقد اختلفنا فى التجارب المرتبطة بهذه اللفظة يتـكون فى ذهن كل منا دلالات مختلفة فى نواح ومتفقة فى نواح أخرى ، ولايقال حينئذ إن دلالة المطر فى أذهاننا متحدة ، بل تصطبغ فى ذهن كل منا بصبغة خاصة .

هذا إلى أننا نختلف فى أجسامنا بين صحة ومرض أو ضعف وقوة، ونختلف فى تركيب أعصابنا وأمزجتنا ، وفيما يرثه كل منا من أبويه وأجداده، ويترك كل ذلك أثراً كبيراً فى فهمنا للأمور ، وتحديدنا للدلالات . وهكذا نرى أن الدلالة أمر فردى لاتـكاد تتحد فيه الأذهان ؛ بل تتباين تبايناً كبيراً .

ورغم كل ذلك لا يقف اللغوى أمام تلك الدلالات المتباينة مـكتوف اليدين ، بل يحاول تحديدها فى معجمه على أساس مشترك بين جمهور الناس ، أو بين طبقة متميزة منهم ، وقد يلجأ فى تحديد الدلالة إلى خبرة الخبراء وأهل العلم فيستعين بمعلوماتهم فى تحديدها ، ويكون وصفه لها أقرب إلى المصطلحات العلمية .

ولـكن الناس فى حياتهم العامة يعمدون إلى التعاون والتفاهم ، ولا يمـكن أن يتم هذا إلا بعد أن يتنازل كل منهم عن تلك الفروق التى تميز شخصاً من شخص ، أو فهماً من فهم ، حتى يمـكن أن يتحقق التعاون بين أفراد المجتمع . ومع ذلك فـكثيراً ما يحدث الشقاق بين الناس ، ويشتد النقاش والجدل نتيجة تلك الفروق التى فى ذهن كل منهم عن دلالات الألفاظ .

ومع قدر من هذا التسامح والتنازل يستطيع اللغوى أن يحدد الدلالات فى معجمه ، وأن يقول إن لفظ كذا مدلوله فى اللغة العربية مثلا هو كذا ، دون التعرض لقوة هذه الدلالة ، أو ضعفها ، ودون الإشارة إلى وضوحها أو إبهامها ، لأن مرجع كل هذا إلى الأفراد وتجاربهم المختلفة .

وأذكر بهذه المناسبة أن صحفياً طلب إلىّ فى يوم من الأيام أن أخبره عن « أحزن » كلة و « أمرّ » كلة فى اللغة العربية ! ! فحدثته عن أن هذا يختلف باختلاف تجارب الأفراد ، وأنه ليس هناك شىء يسمى « أحزن » كلة أو «أمر» كلة فى اللغة العربية ، وإنما الواجب أن يسأل فرد عن « أحزن » كلمة فى قاموسه « وأمر » كلمة فى هذا القاموس الخاص .

ومن هنا جاءت فـكرة المركز والهامش فى الدلالة ، وهو ما سنحاول علاجه فى الفصل التالى .

* * *

الفصل السادس

المركز والهامش فى الدلالة

يعيش الناس فى مدينة القاهرة حياة اجتماعية تتضمن قدراً كبيرا من التعاون وتبادل المصالح ، فيتصل بعضهم ببعض ، وينتفع بعضهم ببعض ، ولا يقتصر هذا الاتصال أو تلك المنفعة على حدود ضيقة كالأسرة أو الأقارب ، بل يسعى الفرد منهم وراء رزقه ومصالحه يوما فى شمالها وآخر فى جنوبها ، وساعة مع باعتهـا ، وأخرى مع موظفيها ، ويتخذون فى هذا الاتصال وسيلة واحدة هى اللغة التى تنتظمهم جميعاً ، وتيسر عليهم ذلك التعاون الاجتماعى المنشود ، وهم مع هذا ربما نشأوا فى بيئات مختلفة ، وتأثروا بتجارب متباينة فى حياتهم السابقة ، مما قد يترك أثراً قوياً فى فهمهم للألفاظ ، ولـكنهم رغم ذلك يتعاملون بتلك الألفاظ ، ويتنازل كل منهم عن تلك الفروق التى تلون الدلالات بلون خاص فى ذهن كل منهم ، ويقنعون فى تلك الحياة الاجتماعية بقدر مشترك من الدلالة يصل بهم إلى نوع من الفهم التقريبى الذى يكتفى به الناس فى حياتهم العامة .

وهذا القدر المشترك من الدلالة هو الذى يسجله اللغوى فى معجمه ، ويسميه بالدلالة المركزية ، وقد تـكون تلك الدلالة المركزية واضحة فى أذهان كل الناس كما قد تـكون مبهمة فى أذهان بعضهم . ويمـكن أن تشبه الدلالة بتلك الدوائر التى تحدث عقب إلقاء حجر فى الماء ، فما يتـكون منها أولا يعد بمثابة الدلالة المركزية للألفاظ ، يقع فهم بعض الناس منها فى نقطة المركز ، وبعضهم فى جوانب الدائرة أو على حدود محيطها . ثم تتسع تلك الدوائر وتصبح فى أذهان القلة من الناس وقد تضمنت ظلالا من المعانى لا يشركهم فيها غيرهم .

وأقصى ما يطمع فيه اللغوى هو أن يجعل تلك الدلالة المركزية واضحة فى أذهان الناس ، ولذا يعمد إلى ذلك القدر المشترك فيحدده ويشرحه فى معجمه ، مستعينا فى هذا بطبقة المثقفين من جمهور الناس ، ومتخذاً منهم نماذجه الدلالية فى ذلك المعجم .

فالدلالة المركزية لكلمة مثل « الشجرة » تتضح فى ذهن الطفل منذ السنين الأولى من حياته ، وتظل واضحة فى ذهنه طول حياته دون زيادة كبيرة فى دلالتها المركزية ، فى حين أن كلمة أخرى مثل « الحزن أو الغضب » تتطور دلالتها المركزية معنا ، وتأخذ وضعاً فى طفولتنا غير الذى تأخذه فى شبابنا ، ثم تستقر على حال معينة فى شيخوختنا .

ومع اختلاف كثير من الناس فى تلك الدلالة المركزية ، لا يعوقهم هذا الاختلاف عن التفاهم وتبادل وجهات النظر ، لأنه خلاف فى نسبة الوضوح لتلك الدلالة ، فهى عند بعضهم أوضح منها عند آخرين ، ولكنها على كل حال واضحة وضوحاً كافياً عندهم جميعاً .

أما الدلالة الهامشية فهى تلك الظلال التى تختلف باختلاف الأفراد وتجاربهم وأمزجتهم وتركيب أجسامهم وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم . فالمتكلم ينطق باللفظة أمام السامع محاولا بهذا أن يوصل إلى ذهن السامع دلالتها ، فتبعث تلك اللفظة فى ذهن السامع دلالة معينة اكتسبها هذا السامع من تجاربه السابقة ، ويفترض بعد سماعها أن مادار فى خلد هذا المتكلم يطابق تمام المطابقة ما يدور بخلده . فهو لم يتغلغل فى عقل ذلك المتكلم ، ولم يكشف عن حقيقة ما يجول فى ذهنه ، ولم يقف على حدود دلالته وما حولها من ظلال أو هالة ، وإنما بنى فهمه وأسسه على تجاربه هو وفهمه الخاص لمثل تلك اللفظة .

فهناك شاب يسمع لفظ « المسدس » ويدرك من توه دلالته المركزية ، ولكن هذا اللفظ لا يكاد يثير مع دلالته المركزية ، شيئاً من ظلال المعانى ،

أو ربما يذكره بطفولته وملاعب صباه حين كانت له لعبة صغيرة فى صورة « المسدس » يطلقها فى الهواء فتبعث شرراً أو تقذف قطرات من الماء أمام لداته من الأطفال ، والجميع يضحكون ويمرحون ، وهو بلعبته فخور مسرور .

وهناك شاب آخر مر به فى حياته حادث أليم رأى فيه مجرماً أثيما يصوب مسدساً نحو أبيه أو أحد أقاربه ، ثم يطلقه فينبعث منه طلق يدوى فى أنحاء المكان ، ويخر الأب بعده صريعاً تتدفق الدماء من صدره . فلفظ المسدس أمام هذا الشاب لا يصور تلك الدلالة المركزية وحدها ، بل يبعث فى ذهنه صورة بغيضة مؤلمة تختلف كل الاختلاف عن تلك التى تجول فى ذهن زميله الآخر .

ولفظ « البنسلين » أمام قروى صحيح البدن إن دل على شىء فإنما تقتصر دلالته على نوع من الدواء سمع عنه أو رآه ، ولكن نفس اللفظ يقع من أذن المريض وقعاً آخر بعد أن جرب آلام الحقن عدة مرات ، وقاسى عذاب المرض زمناً ما ، فأحيط لفظ البنسلين فى ذهنه بظلال من المعانى لا أثر لها فى ذهن القروى .

وأصحاب الأمزجة المرحة يسمعون لفظ « الموت » فلا يفزعهم ، فى حين أن المتشائم يجفل لدى سماعه ، وترتعد فرائصه ، وقد يتصور ملاك الموت مقبلا عليه فى صورة بشعة مخيفة .

من أجل هذا اختلفت الدلالة الهامشية باختلاف تجارب الناس وأمزجتهم وما ورثوه من أسلافهم .

فبينما تجمع الدلالة المركزية بين الناس ، تفرق بينهم الدلالة الهامشية ، وبينما تساعد الأولى على تكوين المجتمع وتعاونه وقضاء مصالحه ، قد تعمل الثانية على خلق الشقاق والنزاع بين أفراده . ولكن الناس فى حياتهم العامة يعتمدون على الدلالات المركزية ويكتفون بها عادة ، وهو من يمن الطالع أو رحمة الخالق

بعباده ، وإلا كانت الحياة جحيما لا يطاق ، كلها شقاق ونزاع وسوء فهم بعضهم لبعض .

وتسود الدلالة الهامشية فى بعض مجالات الحياة ، وتصبح حينئذ شرا مستطيراً لبنى الإنسان . وأوضح مجال للدلالة الهامشية المجال السياسى .

المجال السياسى :

هنا تفرق الدلالة الهامشية بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وتنفر الشعوب بعضها من بعض ، وتقيم بينهم أسوارا وحواجز ، بل قد تدفعهم إلى الحروب وويلاتها . فالديمقراطية كنظام سياسى يفهمها الروسى فهماً مبايناً لفهم الأمريكى لها ، والاشتراكية عند الإنجليز غيرها عند الألمان أيام هتلر ، والحرية لدى هؤلاء وهؤلاء تتخذ مظاهر متباينة .

ويعمد السياسيون أحياناً إلى شحن تلك الألفاظ السياسية بقدر كبير من الدلالات الهامشية ، ويستغلونها أسوأ استغلال فى دعاياتهم ، وفرض آرائهم وعقائدهم على جمهور الناس . فالفدائى يجعلونه إرهابياً ، والوطنى قد يصفونه بالتهور المتعصب ، والهزيمة يصورونها فى صورة النصر المبين .

فألفاظ السياسة فوق أنها ألفاظ كاذبة الدلالة فى غالب الأحيان تحاط عادة بهالة من الدلالات الهامشية التى تؤثر فى عقول الناس ونفوسهم ، وتوجههم توجيها معينا نحو الخير حينا ونحو الشر أحيانا .

وإذا صح ما يقوله بعض علماء الفرنسيين من أن الإنسان إنما يتكلم ليخفى ما يدور فى ذهنه، فليس ينطبق هذا القول على شىء مثل انطباقه على لغة السياسة ومؤتمرات السياسيين . ففيها يحتدم النقاش ، ويشتد الجدل حول مدلولات الألفاظ لأنها شحنت فى أذهان المؤتمرين بظلال من المعانى تفرق بين وجهات النظر وقد تؤدى إلى فشلهم فى الوصول إلى حل من الحلول .

وفى مثل هذه المجالات السياسية لا تحقق اللغة الهدف الأساسى لها ، بل تصبح نقمة على بنى الإنسان ، وهى التى أريد بها أن تـكون نعمة لهم .

ولا تفشل المؤتمرات السياسية لتباين العقائد والمبادىء وحدها ، بل كثيراً ما تفشل لتباين دلالات الألفاظ ، وما تتضمن فى الأذهان من دلالات هامشية مختلفة .

أمام القضاء والمحاكم :

تهدف الشرائع السماوية والقوانين الوضعية إلى الوئام والتعاون وتبادل المصالح بين الناس ، ولـكن الناس لا يزالون يختصمون ، لما فطر عليه بعضهم من شر أو أنانية . ولـكن ذلك الخصام يزداد اشتعالا ، ويعتد لهبه نتيجة تلك الدلالات الهامشية التى تختلف فى أذهانهم وتباعد بينهم . ويشهد القضاء كل يوم صراعاً قوياً نشأ عن تلك الدلالات الهامشية ، فيحاول المشرع سد الثغرات ، وتحديد الدلالات ولـكن هيهات .

حتى الألفاظ القرآنية نراها أحياناً مثار النزاع فى تفسيرها بين الأئمة وعلماء الشريعة ، فهم جميعاً يقرأون : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » ، ويختلفون فى مدلول « القرء » ، ويرتبون على هذا الخلاف أحكاما شرعية .

ولعل رجال القانون يدركون أكثر من غيرهم أثر تلك الدلالات الهامشية فى النزاع بين الناس . فيسمع القاضى للمتخاصمين وقد احتدم بينهما الجدل لا لشىء سوى أن أحدهما قـــد لون دلالته للفظ من الألفاظ بلون خاص ، واصطبغ هذا اللفظ فى ذهن الآخر بصبغة أخرى ، ثم يحـكم القاضى متأثراً فى حكمه بدلالته الخاصة ، وفهمه الذى اكتسبه من تجاربه السابقة ، لا تجارب المتخاصمين أو فهمهم .

وقليل من الألفظ القانونية تلك التى تكتسب صبغة الاصطلاح ، فتصبح كالمصطلحات العلمية فى الهندسة أو الكيمياء أو الطب ، وذلك لأن الكثرة الغالبة من ألفاظ القانونيين تتصل اتصالا وثيقاً بحياة الجمهور ومعاشهم ، وتصف مشاكلهم ، وتدبر شئونهم ، وترعى مصالحهم . فألفاظ الخطاب هى ألفاظ القانون فى غالب الأحيان . والقانونى يحاول فى تشريعه أن يحدد معالم تلك الألفاظ ، ويلقى فى هذا من العنت والمشقة الشىء الكثير ، ولكن الناس مع هذا لايزالون يختصمون .

فالمشرع ينص على وجوب « إعلان المدعى عليه فى موطنه » ، قانعاً بمثل هذا النص ، معتقداً أن كلمة « الموطن » ذات دلالة محددة فى أذهان الناس ، ثم لا يلبث أن يخيب ظنه حين يفد المتقاضون يتنازعون حول هذه الكلمة التى لها فى أذهانهم ظلال من المعانى متباينة .

وليس من الضرورى أن نفترض المغالطة فى كل نزاع من هذا النوع فقد يكون النزاع حول مدلول اللفظ عن عقيدة وإيمان بين كل من المتخاصمين .

فالقضاة والمحامون يقضون نصف حياتهم أو حياتهم كلها فى صراع مع تلك الألفاظ ومدلولاتها ، وحدود تلك الدلالات ، فيوفقون حيناً ويفشلون حيناً آخر .

يقف الدائن ويعلن أن مدينه أفلس ، فيصر الخصم على أن هذا لا يسمى إفلاسا ، وهنا يشتد الجدل حول معنى « الإفلاس » ! !

يقف المتقاضون فيدعى بعضهم أن المبلغ كان بمثابة تأمين ، فيصيح الخصم بل وديعة ، أو أنه بمثابة « عربون » فيقول الخصم بل هو « خلو رجل » ! ! ولذا لا ندهش حين نقرأ تلك المذكرات المسهبة التى يحاول فيها القانونى شرح لفظ من الألفاظ وتحديد دلالته .

فعملية « النصب » قد يفسرها المحامى أحياناً بأنها لا تعدو أن تـكون « كذبا » جاز على عقل أحـــد المغفلين ، ولا يحمى القانون أمثال هؤلاء المغفلين ! !

بل قد تـكون الدلالة للفظ من الألفاظ مسألة حياة أو موت ، فـكلمة « العمد » تـكون ركناً أساسياً فى الجنايات الخطيرة . فإذا اقتنع القاضى بنية « العمد » فى سلوك الجانى فقد يدفع به إلى حبل المشنقة ، وإلا تحولت الجناية إلى جنحة ، وعدَّت الجريمة من قبيل الخطأ . ولـكن هل من اليسير تحديد معالم تلك الدلالة المجردة فى كلمة « العمد » ؟ أليس مرجعها أولا وقبل كل شىء إلى النية وإلى الضمير ؟ ولا غرابة إذن حين يثبت ركن العمد عند قاض وينتفى عند آخر فى نفس الجريمة ، لأن دلالة « العمد » فى ذهن كل منهما متأثرة بتجاربهما الخاصة ، وبتلك الظلال الهامشية التى تختلف باختلاف الناس .

فى كل يوم نقرأ على صفحات الجرائد عن جدل ثار أمام القضاء حول تفسير لفظ أو مدلول كلمة . ولما صدر قانون التشرد حار رجال القانون فى تحديده وتـكييفه حتى استقرت دلالته أو كادت بعد حين من الزمن . ومنذ صدور قانون القمار والمحاكم فى صراع حول حدوده ، ولا يزالون حتى الآن يختلفون فى مدلول « القمار » الذى عناه المشرع وأوجب تحريمه .

وعلى قدر ما يتاح للمرء من تجارب تصطبغ دلالته بصبغة خاصة وتتلون بلون خاص ، وتحاط بظلال من المعانى لا يشركه فيها غيره من الناس . وتصبح وقد شحنتها تلك التجارب بما نسميه بالدلالة الهامشية .

وليست تقتصر تلك التجارب على الأحداث وفرص السماع ، بل إن الرقى العقلى ، وما يكتسبه المرء من علم ومعرفة ، وما يتاح له من فرص ثقافية ، كل هذا يترك أثراً قوياً فى دلالته ، ويصبغها بصبغة متميزة ، فليست كلمة « البيع »

فى ذهن البائع المتجول تؤدى ماتؤديه فى ذهن أستاذ كنجيب الهلالى الذى أخرج لنا كتاباً ضخماً جعل عنوانه « البيع » ، وعالج فيه تلك العملية الشرائية التى تتم بين الناس صغيرهم وكبيرهم فى كل لحظة من لحظات النهار وطرفاً من الليل .

وهل « الملكية » فى ذهن رجل أمى من أصحاب الأملاك أو الضياع ، هى « الملكية » التى كانت فى ذهن الدكتور كامل مرسى حين ألف كتابه المشهور وجعل عنوانه « الملكية » ؟ .

ولعل من تتمة الفائدة أن نشير هنا إلى وقائع معينة ، أو قضايا مشهورة كانت فيها الدلالة محل نزاع وجدل فى تاريخنا الحديث .

فلنتذكر مثلا محاكمة الشيخ عبدالعزيز جاويش بسبب مقاله المشهور فى ذكرى دنشواى ، وما فيه من ألفاظ فهمتها النيابة على أنها « إهانة » ، وفسرها الدفاع على أنها من القذف المباح . وإن ماثار فى تلك المحاكمة من جدل ونقاش بين النيابة والدفاع حول مدلول الألفاظ لما يثير الدهشة والعجب . ولنتذكر أيضاً كتاب « وطنيتى » للشيخ الغاياتى ، ومحاكمة محمد فريد والشيخ جاويش لكتابتهما مقدمة لهذا الكتاب ، وما ثار فى هذا الشأن من نقاش وتأويل وتخريج مرة على لسان النيابة وأخرى على لسان الدفاع . ولنبتسم معاً لتلك العبارة التى جاءت مرتين على لسان النيابة ، ولنتساءل ماذا كان النائب يعنى بقوله[1] . [وهل من أصالة الرأى إنهاض الهمم] ؟ ! [أفلا يدل هذا على أن الجماعة إنما قصدوا إنهاض الهمم] ؟ ! .

ولعل الإمام أباحنيفة حين اشترط لنفاذ عقد الزواج أن يكون الزوج كفئاً ، لم يخطر فى ذهنه أن الناس سيختلفون من بعده فى مدلول «الكفاءة» وحدودها . ولم يخلف لنا ذلك الإمام المشهور من معالم تلك الصفة التى يجب أن تتوفر

---

(١) المرافعات فى أشهر القضايا لمحمود عاصم صفحة ١٠٨ المجموعة الثانية .

فى الزوج سوى لفظ « الكفاءة »: وترك الناس بعده يذهبون فيها كل مذهب ، إلى أن كانت تلك القضية المشهورة فى تاريخنا الحديث حين تزوج الشيخ على يوسف صفية السادات ، واعترض ولى أمرها على هذا الزواج . وقد شغلت هذه القضية الرأى العام شهوراً فيها كان الناس يتساءلون عن معنى الكفاءة وحدودها وعما إذا كان من المقبول المعقول أن يوصف كاتب مشهور من كتاب مصر ، وصاحب جريدة المؤيد بأنه غير كفء ؟ ! ولم يشفع له أنه استحق التكريم من حاكم البلاد فمنحه الباشوية ، ولم تشفع له شهرته السياسية ولا ثقافته ولا ماله .

ومثل هذه القضية ترينا إلى أى حد يمكن أن يختلف الناس فى دلالات الألفاظ ، عن هوى حينا ، وعن إيمان وعقيدة حينا آخر ، والدلالة فى كلتا الحالين قد شحنت بظلال من المعانى ، وأحيطت بصفات هامشية يستمسك بها كل فريق ، ويناضل عنها نضال المستميت .

أمام القضاء الإنجليزى .

كنا فى لندن سنة ١٩٣٦ حين أبرمت المعاهدة المشهورة ، ودعى أحد الصحفيين المصريين لإلقاء محاضرة فى النادى المصرى ، ولا أدرى ما إذا كان هو الذى اختار عنوانها ، أو اختارته له اللجنة التنفيذية للنادى . وكان عنوان المحاضرة على كل حال [واجبنا بعد المعاهدة] . فتصدى له الأستاذ (ق) وحاول أن يوجه المناقشة نحو البحث فى نصوص المعاهدة ، معلنا أنه من المستحيل أن نعرف واجبنا بعد المعاهدة ما لم ندرس المعاهدة ذاتها ، ونتعرف على مزاياها ونقائصها . وكان من المعروف حينئذ عن هذا الأستاذ أنه من المعارضين للمعاهدة ، فتكهرب جو المحاضرة . وخشى رئيس النادى والمشرف على المحاضرة الدكتور (م) أن يتورط الأعضاء فى نقاش سياسى معارض قد تكون عاقبته وخيمة . فحال بين الأستاذ (ق) ومنعه من الاسترسال فى الكلام ، فكان بينهما نقاش

حاد تبودلت فيه بعض العبارات القاسية ، وانصرف الأستاذ (ق) مهدداً متوعداً .

ثم انعقدت اللجنة التنفيذية لتنظر فى أمر الأستاذ (ق) بوصفه عضواً من الأعضاء ، ورأت أن قانون النادى يسمح لها بإحالته إلى مجلس تأديب ما لم يعتذر عما صدر منه

وأصر كل على موقفه ، واستحال التفاهم ، وتطور الأمر ولم يعتذر الأستاذ (ق) ، وقررت اللجنة تنفيذ نصوص القانون . وكان لهذا القانون صورتان إحداها بالعربية ، وأخرى بالإنجليزية فيها ترجمت عبارة « مجلس تأديب » بالعبارة الإنجليزية Disciplinary Council .

وأحيل الأستاذ (ق) إلى مجلس تأديب ، ووضع القرار فى لوحة الإعلانات بالنادى كما هى العادة فى كل قرارات اللجنة التنفيذية .

وهنا رفع الأستاذ (ق) أمره إلى القضاء الإنجليزى مدعيا أن فى إعلان هذا القرار تشهيراً به ، وقذفا فى حقه ترتب عليه خسارة مادية وأدبية . فهو بوصفه من أصحاب الأعمال فى لندن ، وأصحاب السمعة الطيبة بين المتعاملين قد لحقه من هذا الإعلان ضرر بليغ فى سمعته وفى ماله . وكلف « السير ستافورد كريبس » بإقامة الدعوى على أعضاء اللجنة التنفيذية الخمسة ، وكلهم الآن فى مراكز كبيرة ، متضامنين مع مدير البعثات حينئذ والمستشار السياسى للسفارة المصرية [ع ح].

وكان أهم ما استند إليه الأستاذ (ق) فى دعواه أن كلمة « تأديبى » تناظر الكلمة الإنجليزية Punitive ، فهى فى رأيه كلمة مهينة فيها قذف وتشهير .

وظلت القضية ثلاث سنين حار فيها القضاء الإنجليزى بصدد ترجمة كلمة

« تأديبى » الواردة فى الإعلان ، هل هى Disciplinary أو Punitive وانتدب للشهادة بعض المصريين من المتخصصين فى اللغتين العربية والإنجليزية ، فلم يجمعوا على رأى ، واختلفت وجهات النظر ، أو بعبارة أخرى ظهر ما لدى كل فريق من دلالة هامشية إزاء هذه الكلمة . وتحملت الحكومة المصرية آلافاً من الجنيهات فى هذه القضية العجيبة ، كما تحمل الأستاذ المدعى آلافاً أخرى ، وانتهت القضية بأن تدخل بعض أعضاء البرلمان الإنجليزى من أصدقاء الطرفين للتوفيق بين فريقين من المصريين فى لندن . وكانت اجتماعات ومداولات شهدتها حجرة خاصة فى البرلمان الإنجليزى ، ثم تصافى الفريقان ، وتنازل الأستاذ عن قضيته ، دون الاهتداء إلى رأى حاسم قاطع فى دلالة كلمة « تأديبى » !!

من كل ماتقدم نرى كيف تسيطر الدلالة الهامشية على أذهان بعض الناس ، وكيف تثير بينهم النزاع والشقاق ، وكيف فشلت اللغة فى أداء مهمتها حين استعملت فى المجال السياسى أو فى فض المنازعات القضائية ، وكيف يمكن أن تسمى الأشياء بغير أسمائها ، أو يزاد أو ينتقص من دلالاتها . وسواء كانت تلك الدلالة الهامشية سببها الهوى والغرض ، أو عن عقيدة وإيمان ، فهى تتصل اتصالا وثيقاً بما يسميه علماء النفس بالعاطفة .

وقد أحس الفلاسفة قديما وحديثاً بغموض الدلالات ، وأن الألفاظ سرعان ما تتحكم فى تصور الناس للأشياء ، مما ساعد السفسطائيين القدماء على استغلال ذلك الغموض فى دلالة الألفاظ ، فتمكنوا عن طريقه من هدم حقائق العلم ومبادىء الأخلاق ، بل استطاعوا تأييد موضوع ما ومعارضته فى وقت واحد .

ولذا دعا « أرسطو » إلى تحديد معانى الألفاظ ، وتعرف مدلولاتها على وجه دقيق ، حين كان يناقش موقف السفسطائيين .

وليست تلك الدلالة الهامشية كلها شراً ، فقد تكون سبباً من أسباب المتعة

لبني الإنسان حين يستغلها الأدباء والشعراء الذين لايقنعون فى غالب الأحوال بتلك الدلالات المركزية ، ويعدون ما يقتصر عليها من الأساليب ، أسلوبا علمياً لايهدف إلا إلى إيصال الحقائق دون زيادة أو مغالاة .

فكلمة « الربيع » حين يقتصر فى شأنها على الدلالات المركزية تصبح كما يصفها علماء الطبيعة بقولهم مثلا « الربيع أحد فصول السنة يحل لأسباب طبيعية خاصة وفى شهور معينة وتصحبه خضرة فى الأشجار واعتدال فى الطقس» ، ولكن الربيع فى رأى الأديب حين يستغل عاطفته ، ويشحن دلالاته بصفات هامشية يصبح شيئاً آخر (١)

فالدلالة الهامشية هى المسئولة عن روائع الآداب ، وهى التى خلقت علماً يسمى بالنقد الأدبى ، ألفت فيه الكتب ووضعت له الأسس والمقاييس . ويعرض أصحاب النقد العربى إلى مايسمونه بالذوق العام والذوق الخاص ، ولا شك أن ذلك الذوق الخاص يتأثر إلى حد كبير بما نسميه بالدلالة الهامشية التى تختلف باختلاف الناس ، وتجاربهم وأمزجتهم ، وعواطفهم ، وبيئاتهم .

ويتضح أثر الدلالة الهامشية فى تلك الأمثلة الكثيرة التى يسوقها نقاد الأدب فى كتبهم ، ولاسيما حين ينصب نقدهم على دلالة لفظ من الألفاظ . وفى كتاب الموشح للمرزبانى ، والموازنة بين الطائيين للآمدى ، والعمدة لابن رشيق والصناعتين لأبى هلال العسكرى ، وأسرار البلاغة للجرجانى ، والمثل السائر لابن الأثير وغيرها ، أمثلة كثيرة نكتفى هنا بعرض طرف منها لتوضيح أثر الدلالة الهامشية فى الحكم على دلالة الألفاظ العربية .

ولسنا فى اقتباس هذه الأمثلة القليلة من كتب النقد الأدبى نحاول اقتحام هذا الميدان أو الزج بأنفسنا فى مجال الأدب ونقده .

---

(١) أصول النقد الأدبى للشايب صفحة ٦٢ .

١ ـ روى أن الأصمعى كان يعيب على ذى الرمة الشاعر قوله :

تفار إذا ما الروع أبدى عن الورى   ونقرى عبيط الشحم والماء جامس

فيقول : إنما يقال للجامد من السمن وما أشبهه جامس ! ! فدلول كلمة (جامس) فى ذهن الأصمعى مقصور على الدهن وما شاكله، والماء المتجمد لا يقال له «جامس». فكيف تمت هذه الصورة فى ذهن الأصمعى إلا عن طريق تجاربه مع نصوص أخرى تصادف أن سمعها وتأثر بها، وتصادف أن استعملت فيها هذه الكلمة مع السمن والدهن ونحوها من السوائل . ولكن ذا الرمة الشاعر العربى قد تعود مع نفس الكلمة غير ما تعود الأصمعى ، ولعله عرفها فى نصوص أخرى وقد استعملت مع الماء ، أو لعله خلع عليها من الدلالة الهامشية ما سمح له بمثل هذا الاستعمال . فلكل من الرجلين تجاربه الخاصة ، ومزاجه الخاص ، ولا يشتركان إلا فى الدلالة المركزية وهى تجمد السائل ، متخذا هذا التجمد فى ذهن كل منهما صورة معينة ، ولا يقال حينئذ إن أحدهما أصاب وإن الآخر أخطأ ، ولا يصح أن نجعل أحدهما أو غيرهما حكما فى مثل هذا الأمر لأن الدلالات الهامشية فى أى لغة من اللغات مسألة فردية شخصية لا تكاد تعرض لها المعاجم أو تعنى بها .

فالشاعر يصف قومه بحب الغارات وشنها كلما ثارت حرب بين الناس ، وأنهم فى نفس الوقت كرماء يقدمون لضيوفهم أشهى الطعام فى أيام الشتاء حين يقل الخير ، ولا يجد الناس ما يسد الرمق .

٢ ـ وكان الأصمعى أيضاً يعيب قول عدى بن الرقاع :

لهم راية تهدى الجموع كأنها   إذا خطرت فى ثعلب الرمح طائر

فيقول : الراية لا تخطر إنما الخطران للرمح ! !

٣ ـ وعاب النقاد على أبى تمام قوله :

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت في أنه ثوب

فيقول أحدهم : ماعلمت أحدا من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقة وإنما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والثقل والرزانة ! !

٤ — وعجب أحد النقاد لأن أبا العتاهية مقدم بين الشعراء مع قوله :

رويدك يا إنسان لا أنت تقفزُ

ورأى هذا الناقد أن كلمة « تقفز » لم تخرج من فم شاعر محسن قط ! !

فأى ثأر بين هذا الناقد وهذه الكلمة ، إلا أن تكون قد ارتبطت في ذهنه بدلالة هامشية خاصة نتيجة تجاربه السابقة ، مما بغضه فيها، وصور دلالتها في ذهنه على صورة بغيضة كريهة لاتليق بالشعر والشعراء .

فلما قال : أبو العتاهية في نسيبه أو تشبيبه بإحدى الحسان قوله :

إني أعوذ من التي شغفت مني الفؤاد بآية الكرسي

قال النقاد : آية الكرسي يهرب منها الشياطين ، ويحترس بها من الغيلان!! ولا يخطر في أذهانهم أن لآية الكرسي دلالة هامشية خاصة في ذهن الشاعر تختلف عما في أذهانهم ، أو بعبارة أخرى لم يسمحوا للشاعر أن يستمد من تجاربه الخاصة ومزاجه الخاص دلالة هامشية لهذه الكلمة تباين ماعندهم .

٥ ـ ولما حملت قطر الندى بنت خماريه إلى الخليفة المعتضد وكتب معها أبوها يذكره بخدمة سلفها ، أمر الخليفة وزيره بالجواب عن الكتاب ، وكلف الوزير أحد كتابه بالرد ، فغاب أياما وأتى بنسخة يقول فيها « وأما عن الوديعة فهي بمنزلة شيء انتقل من يمينك إلى شمالك ، عناية بها وحياطة عليها »

ثم أقبل على الوزير معجباً بحسن ماوقع له من هذا وقال: تسميتي لها بالوديعة نصف البلاغة ! ! فقال الوزير ماأقبح هذا ! تفاءلت لامرأة زفت إلى صاحبها بالوديعة ، والوديعة مستردة !!

فالـكلمة الوديعة فى ذهن كل من الرجلين دلالة هامشية خاصة تتصل بتجارب كل منهما ، ولذا حسنت فى عين أحدهما ، وقبحت فى عين الآخر .

ومما تقدم نرى أن قدراً غير قليل من أحكام النقد الأدبى مرجعها إلى تلك الدلالة الهامشية التى تختلف باختلاف الأفراد فى البيئة الواحدة ، ويعظم اختلافها باختلاف الناس فى البيئات المتباينة . فليست ريح الشمال لدى سكان جزيرة العرب كريح الشمال لدى المصريين ، فهى فى شبه الجزيرة ترتبط بالبرد والجدب والعسر ، فهى بغيضة وكريهة لدى سكانها ، ولـكنها محببة فى مصر تعدّ النوافذ والشبابيك وواجهات البيوت لاستقبالها والتمتع بنسيمها .

فى الأدب الحديث :

ولعل من تتمة الفائدة بصدد هذه الدلالة الهامشية أن نسوق هنا مثلا من الأدب الحديث لـكاتب كبير هو الأستاذ عباس العقاد ، حين يحدثنا فى مقال ممتع نشر فى إحدى الصحف الأسبوعية عن كلمتى السعادة والخير فيقول : أيهما نتمناه لو أعطينا منانا ؟ نتمنى الخير أو نتمنى السعادة ؟ ونرجو أن نوصف بالأخيار أو نرجو أن نوصف بالسعداء ؟ بغير حاجة إلى استفتاء خاص أو عام يمـكننا أن نجزم بأن السعادة تظفر بأكثر الأصوات فى انتخابات الأمنية المشتهاة . وبغير حاجة إلى استفتاء على الإطلاق يمـكننا أن نقول إننا فى الواقع نختار اسماً جذاباً حين نختار السعادة ، وقلما نتريث أو نتدبر فى حقيقة معناه » . إلى أن يقول « وإذا تصورنا السعادة فصورتها أمامنا صورة فتاة حسناء تمتع الحس والنفس وتشبع اللذة والأمل . ولـكننا لا نتصور الخير فى صورة أنثوية ، ويغلب على الخيال أنه يرسمه لنا فى صورة شيخ جليل مهيب الطلعة طويل اللحية ، ولعلنا نتصوره فى الصورة الأنثوية ، ونخلع عليه سمت الأمومة التى تتقاضانا الجد والأدب ، ولا ترتضى منا أن نتلقاها باللعب والمزاح . وشتان بين الصورتين » .

« أما بعد الروية فالأمر يختلف . بعد الروية ترجح أصوات الخير على أصوات السعادة فى معركة الانتخابات . فالسعادة فى تعبير الأكثرين نوبة فرح طافية ، وليس من طبيعة النوبات أن تدوم . ونكاد أن نقول إنها كالطعام الحسن الشهى الذى نستحب مذاقه ، ولكننا نسأمه ونعافه إذا تكرر علينا ولم نذق معه شيئاً يخالفه ، ولو لم يكن مقبول المذاق كما نتمناه . والخير لا سآمة فيه . لأنه حالة تحتوينا ولا نحكم عليهـا بإحساسنا ، وإنما تعترينا السآمة من جانب الإحساس ... » إلى أن ينتهى من مقاله بقوله : « والشرق إذن أدرى بما يقوله فى أعياده وتهنئاته لأنه يتمنى لأبنائه الخير كل عام ، ولا يرتضيه أن تكون التهنئة بالعام السعيد » .

تلك هى دلالة السعادة ودلالة الخير عند كاتب كبير جرب من شئون الحياة تجارب كثيرة متنوعة قلما يشركه فيها غيره ، وتثقف بثقافات متباينة منها ماطبع بالطابع العربى الشرقى ، ومنها ما اصطبغ بصبغة أوربية حديثة ، فكان له من مزيج الثقافات ووافر العلم والتجربة شخصيته المتميزة التى لونت مدلول كلمتى السعادة والخير على النحو الآنف الذكر . ولكنا رغم تلك الصورة الممتعة التى صورها لنا الكاتب سنظل نختلف فى دلالة السعادة ودلالة الخير .

وأفراد البيئة اللغوية رغم اختلافهم فى تلك الدلالات الهامشية ، يشتركون فى إحساس لطيف غامض يصعب تحديد مداه ، ولم يفطن له معظم اللغويين ، وهو ما نكتسبه من كثرة تجاربنا مع ألفاظنا ودلالاتها من إمكان التنبؤ بالدلالة أو جزء منها لدى سماع ألفاظ لم نسمعها من قبل ولم نتعلم شيئاً عنها ، وذلك هو ما سميناه بوحى الأصوات .

الفصل السابع

تطور الدلالة

— ١ —

ظاهرة التطور

يدرك دارس اللغة الإنجليزية فى مراحلها التاريخية أن كثيراً من الألفاظ قد أصابها مع الزمن تطور وتغير فى صورتها حيناً ، وفى دلالتها حيناً آخر . فلم يكد يمر بعد عهد « تشوسر » فى القرن الرابع عشر الميلادى نحو قرنين ونصف من الزمان حتى ظهر « شكسبير » ، وشهدنا أدبه يتضمن من دلالات الألفاظ ما لم يخطر فى ذهن من سبقوه . فكثير من تلك الألفاظ التى ألفها الناس فى زمن تشوسر ـ أبو الشعر الإنجليزى كما يسمونه ـ قد أصبحت تحتاج فى عهد شكسبير إلى مترجم أو مفسر لدلالتها، رغم أنْ ما مر بينهما من الزمن يعد قصيرا فى تاريخ الأمم . ذلك لأن اللغة الإنجليزية فى تلك الفترة قد تركت نهبا للتطور والتغير ، ولم تقيد بقيود تحول بينها وبين ذلك التطور السريع ، بل تركت وشأنها حرة طليقة تصيب حظها الأوفر من الحياة والنمو . وقد كان من الممكن أن يتم لألفاظ هذه اللغة بعد عهد شكسبير من التطور فى دلالاتها مثل الذى حدث بعد تشوسر لو لم يستقر الأدب الإنجليزى بعض الاستقرار خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . فقد عنى علماء اللغة حينئذ بتسجيل آثار شكسبير وروايتها ، هو ومن عاصره أو جاء بعده من الأدباء والشعراء . وبدأوا يثبتون ظواهر اللغة الإنجليزية ، ويحددون من دلالات ألفاظها بعد أن استقر لهذه

الأمة من الوضع السياسى ما جعلها أشهر الأمم فى القرن الثامن عشر أو أقواها، وما جعل أهلها يعتزون بتراثهم الأدبى وتاريخهم الثقافى .

ومع هذا أو رغم هذا تطورت دلالات كثير من الألفاظ ، وأصبح الناس الآن لايكادون يفهمون ما فى أدب شكسبير من دلالات بعض الألفاظ ، ويحتاجون إلى معاجم تاريخية للكشف عنها . وكان لهذا أستاذ الأدب الإنجليزى يحذرنا من تلك الألفاظ التى نظن أننا نفهم معناها ، ويقول لطلابه إننى لا أخشى عليكم فى أدب شكسبير من تلك الألفاظ الغريبة التى لم تصادفوها فى نصوص أخرى، أولم تسمعوا بها من قبل ، ولكنى أخشى عليكم من تلك الألفاظ التى لا تزال تشيع بصورتها القديمة فى الأدب الانجليزى الحديث، والتى يخطر فى أذهانكم لأول وهلة أن دلالتها واضحة مألوفة لكم جميعاً . فهى محط الزلل والخطأ لأن كثيراً منها قد تطورت دلالته وتغيرت مع الزمن . أما الأولى فأمرها هين لا تكلفكم سوى البحث عنها فى مظانها والوقوف على معناها .

كذلك يدرك دارس اللغة الإنجليزية أن نحو نصف الألفاظ التى استعارتها الإنجليزية من اللغة اللاتينية قد أصبحت ذات دلالات مغايرة لما كانت عليه فى لغتها الأصلية المستعار منها . أى أن تطور الدلالة لا يقتصر على الألفاظ الأصلية فى لغة من اللغات ، بل قد يجاوزها إلى الألفاظ المستعارة من لغة أخرى [1] .

فتطور الدلالة ظاهرة شائعة فى كل اللغات يلمسها كل دارس لمراحل نمو اللغة وأطوارها التاريخية . وقد يعده المتشائم بمثابة الداء الذى ينـدر أن تفر أو تنجو منه الألفاظ ، فى حين أن من يؤمن بحياة اللغة ومسايرتها للزمن ينظر إلى هذا التطور على أنه ظاهرة طبيعية دعت إليها الضرورة الملحة .

ودارس التطور الدلالى فى لغة من اللغات يستعرض أمامه « فيلما » من الأحداث التاريخية لتلك الأمة التى تتكلم بهذه اللغة ، وتلقى دراسته ضوءا

(1) The Story of Language. p. 144.

قويا على تطور حياتها الاجتماعية ، لأن دلالات ما ننطق به من ألفاظ تتضمن كل ما لدينا من فنون وعلوم وحرف ومهن، وكل مظاهر حياتنا العامة والخاصة.

فيحدثنا بعض اللغويين المحدثين أن لقب « القيصر » فى اللغة الألمانية Kaiser ، والمعروف فى اللغة الروسية فى صورة « السار Tsar »، إنما يعود إلى اسم علم اشتهر به أحد أباطرة الرومان وهو المسمى « بيوليوس قيصر » ، ثم تطورت دلالته وأصبحت عامة تطلق على كل حاكم عظيم الشأن يحكم إمبراطورية عظيمة. وقد اشتق اسم ذلك الإمبراطور الرومانى من فعل لاتينى ومعناه (يقطع أو يشق)، ذلك لأنه ولد بعد عملية شق البطن فأطلق عليه هذا الاسم ، ولا يزال الأطباء والجراحون يسمونها بالعملية القيصرية Caesarian operation [(١)].

دعنا بعد هذا نستعرض طائفة من الألفاظ الشائعة الآن فى لهجات كلامنا لنرى إلى أى حد تطورت دلالاتها :

١ ـ كلمة « بايخ » العامية مألوفة المعنى فى لهجات الخطاب ،وقد انحدرت من فعل عربى صحيح قصر استعماله على النار والغضب، فيقال باخ الرجل أى سكن غضبه ، وباخت النار أى سكنت وفترت .

٢ ـ كلمة « مبطوح » أى مجروح فى رأسه ، اتخذت هـذه الدلالة من الفعل الصحيح بطحه على وجهه ألقاه ، مما قد يترتب عليه جرح الرأس .

٣ ـ « البغددة » بمعنى التدلل ، والتى يـكاد يقتصر استعمالها على وصف المرأة ، جاءت إلينا من استعمال قديم هو « تبغدد الرجل أى انتسب إلى بغداد وأهلها » أى أصبح متحضراً راقياً فى سلوكه ، لأن نظرتهم إلى « بغـداد » حينئذ كانت كنظرة بعضنا الآن إلى المدن الأوربية .

---

(1) Bloomfield: Language. p. 429.

٤ - « البهدلة » ذات معنى مألوف فى لهجات الخطاب يخالف ما كانت عليه فى العربية الصحيحة من معنى « الخفة » .

٥ - نقول فى خطابنا (بص) بمعنى انظر ، ومعناها القديم هو « بص » برق ولمع وتلألأ .

٦ - « الأرف » نعاف شيئاً فنقول فى خطابنا « إيه الأرف ده » ! .

والمعنى القديم لكلمة « القرف » هو التهمة ومنه الفعل « قرفت » الرجل أى عبته ووصفته بالعيب .

٧ - يقال للطفل حين يكثر بكاؤه أو كلامه « أر » وقد يستعمل للكبير فى استعمالات مألوفة معروفة ، غير أن « القر » بمعناه القديم هو ترديدك الكلام فى أذن الأبكم حتى يفهمه ! .

٨ - يقال للمرء إذا رجع عن رأيه أو تردد « اتمحك » والدلالة هنا فيها من الهزء والسخرية ما هو مألوف معروف ، فى حين أن الدلالة القديمة لا تكاد تتضمن شيئاً من هذا . وذلك أن « المحك » المنازعة فى الكلام والتمادى فى اللجاجة عند المساومة ، وتماحك البيّعان والخصمان تلاجّا .

٩ - فى لهجات الخطاب فعل مشهور ينطق به « باظ » ومعناه فسد ماديا أو خلقياً ، فإذا نحن أرجعناه إلى الفعل العربى الصحيح « باز يبوز » بمعنى زال من مكانه إلى مكان آخر ، أو أرجعناه إلى فعل آخر هو « باظ يبوظ » ودلالته تتصل بالعملية الجنسية دون أن تتضمن وصمة أو تجريحاً ، شهدنا فى كلتا الحالين تطور الدلالة .

١٠ - « حرامى » للص ، هو فى الحقيقة نسبة إلى الحرام ، وتخصصت دلالته واستعمل بهذه الدلالة الخاصة فى القرن السابع الهجرى فى بعض النصوص المروية (١) .

(١) راجع المحكم فى أصول الكلمات العامية ، لأحمد عيسى صفحة ٦٢ .

١١ — « الحريم » فى الاستعمال القديم هو الذى حرم مسه ، ولكنه اشتهر فى لهجات الخطاب بوصف المرأة .

١٢ — « حصان » التى تستعمل فى لهجات الخطاب بمعنى الفرس ، هى فى الاستعمال القديم وصف لها فيقال « فرس حصان بين التحصن يمنع صاحبه من الهلاك » .

١٣ — « الخبص » فى لهجاتنا بمعنى الكذب والافتراء والنميمة ، وقد يستعملها بعض الناس بمعنى التردد على المواخير ولكنها فى المعنى القديم مجرد خلط الشئ بالشيء .

١٤ — « الشنب » فى لهجات الخطاب بمعنى الشارب ، وفى الاستعمال القديم ماء ورقة وعذوبة فى الأسنان !! .

١٥ — « السفرة » من حجرة السفرة ، أصل معناها طعام المسافر .

١٦ — بل إن بعض الألفاظ المستعارة من الفارسية قد تطورت دلالتها فى لهجات خطابنا :

فكلمة « بشت » كلمة فارسية « پشت » بمعنى العجز والظهر .

وكلمة « فهلوى » كلمة فارسية بمعنى شجاع رياضى مصارع محارب .

أضيف إلى ما تقدم أن « طول اليد » كان وصفاً للسخاء والجود فأصبح الآن يوصف به السارق ، وأن (الطهارة) شاعت الآن فى الختان ، وأن (الكبش) عند القدماء هو سيد القوم ، وأن الترعة عندهم هى فوهة الجدول من الماء ، وأن الرحمة فى القرافات هى الفطير وما شاكله ، وأن الوظيفة معناها القديم أجر العمل ، وأن الذقن فى لهجات الخطاب تطلق أيضاً على اللحية . إلى آخر ما هناك من ألفاظ كثيرة تغيرت دلالتها فى لهجات الخطاب ، أقول إذا أضيفت تلك الطائفة

من الـكلمات وجدنا أنفسنا أمام قدر كبير من الألفاظ التى تبرهن بوضوح على تطور الدلالة مع الزمن ، وهنا يجدر بنا أن نعرض لتلك الظاهرة البلاغية التى سميت فى بحوث القدماء « بالحقيقة والمجاز » ، لأنها لا تعدو أن تـكون مظهراً من مظاهر التطور فى دلالة الألفاظ .

— ٢ —

الحقيقة والمجاز

كثر حديث القدماء عما يسمى الحقيقة والمجاز ، فوصفوا الحقيقة بأنها الدلالة الأصيلة للفظ من الألفاظ ، وأن المسئول عنها هو الواضع الأول للغة ، كما وصفوا المجاز بأنه ما أريد به غير المعنى الموضوع له فى أصل اللغة . وجعلوا كلا من الحقيقة والمجاز أقساماً منها اللغوى ومنها الشرعى ومنها العرفى خاصاً أوعاماً[١] .

ويذكر ابن الأثير[٢] أن فريقاً من العلماء كانوا يرون أن الـكلام كله حقيقة ، وأن آخرين كانوا يزعمون أن كله مجاز ولا حقيقة فيه ، ثم يبرهن فى حديث مسهب على فساد هذين المذهبين ، وينتصر للرأى الذى ساد بين الدارسين من جمهور العلماء من أن اللفظ قد يستعمل استعمالا حقيقياً وقد يستعمل استعمالا مجازيا .

ويلخص السيوطى تلك المذاهب المختلفة فينسب « لابن فارس » القول بأن أكثر الـكلام حقيقة ، وينسب لابن جنى رأياً آخر مجمله أن الـكلام أكثره مجاز ، ثم ينتهى برأى اسحاق الاسفرايينى وهو من ينكر المجاز ويأباه[٣] .

(١) شروح التلخيص جـ ٤ ص ٢٤ .
(٢) المثال السائر ص ٢٤ . (٣) المزهر جـ ١ ص ٢٠٧ .

ونحن فى بحثنا هذا للدلالة الحقيقية أو الدلالة المجازية لا نعرض لتلك الناحية البلاغية ، فلا نسلك مثلا مسلك القدماء حين كانوا لا يذكرون شيئاً من المجاز إلا قالوا أنه أبلغ من الحقيقة ، وحين كانوا يلتمسون فى المجاز عناصر بلاغية أو جمالية أولى بها مجال النقد الأدبى . ولكنا ننظر إلى ما يسمى بالحقيقة والمجاز على أنه مظهر للتطور الدلالى فى كل لغة من اللغات .

وأبرز نواحى الضعف فى علاج القدماء للحقيقة والمجاز أنهم وجهوا كل عنايتهم إلى نقطة البدء فى الدلالة ، وركزوا نظرتهم نحو نشأتها ، فتصوروا ماسموه بالوضع الأول ، وتحدثوا عن الوضع الأصلى ، كأنما قد تم هذا الوضع فى زمن متعين ، وفى عصر خاص من عصور التاريخ . ولم يدركوا أن حديثهم عن نشأة الدلالات ليس فى الحقيقة إلا خوضاً فى النشأة اللغوية للإنسان ، تلك التى أصبحت من مباحث ما وراء الطبيعة ، والتى هجرها اللغويون المحدثون بعد أن يئسوا من إمكان الوصول فى شأنها إلى رأى علمى مرجح ، وأصبحوا الآن يقنعون ببحث اللغة وتطورها فى العصور التاريخية ، التى خلفت لنا آثاراً لغوية مدونة أو منقوشة .

كذلك يبدو من بحوث القدماء من علماء العربية أنهم نظروا إلى كل عصور اللغة على أنها عصر واحد ، ومن هنا ظهرت بعض الألفاظ على أنها حقيقة بعد أن شاع أمرها وتنوسيت مجازيتها فقال من قال إن الكلام كله حقيقة ، وتبين لآخرين من العلماء أن معظم الألفاظ لها تاريخ مجازى ، فخيل إليهم أن كل الألفاظ تبدأ مجازية الدلالة وأن لا حقيقة فيها . وكان كذلك الفريق الثالث وهم جمهور العلماء الذين اعترفوا بكل من الحقيقة والمجاز على أساس الأصالة والفرعية فى دلالة اللفظ .

وبحوث القدماء على استفاضتها ودقتها وحسن عرضها قد تجاهلت أمراً هاماً هو فى الواقع الأساس الأول للحكم على الدلالة . ذلك هو أثرها فى الفرد حين يسمع اللفظ أو يقرؤه ، فهو وحده الذى يستطيع الحكم على الحقيقة والمجاز .

ذلك لأن الحقيقة لا تعدو أن تكون استعمالا شائعاً مألوفاً للفظ من الألفاظ ، وليس المجاز إلا انحرافاً عن ذلك المألوف الشائع ، وشرطه أن يثير فى ذهن السامع أو القارىء دهشة أو غرابة أو طرافة . وحدود تلك الغرابة أو الطرافة تختلف باختلاف تجارب المرء مع الألفاظ ، وباختلاف وسطه الاجتماعى أو الثقافى ، فقد تضعف تلك الغرابة أو الطرافة فى ذهن السامع إزاء استعمال أحد الألفاظ ، ويوشك اللفظ حينئذ أن يكون كالحقيقة رغم انحرافه عن المألوف الشائع ، وقد تقوى فتحرك من السامع مشاعره وعواطفه فتنال إعجابه أو سخريته على حد سواء ، لأنه مجاز فى كلتا الحالين ، أو خروج عن المألوف المعروف فى دلالة اللفظ .

فنحن مثلا حين نقرأ ما يروى عن المعظم عيسى بن الملك العادل حين قال فى صفة مشروب يعالج به داء الذنوب :

[شراب مركب نافع ، لشاربه يوم الفزع الأكبر شافع ، يؤخذ من مستحكم مرير الصبر ، وما احلولى من لذيذ الذكر ، فيغربلان بغربال التفكر السهرى ، ويدافان بماء العين النظرى ، ثم يصفى المجموع بأباب العلم التجردى ، ثم يعجن بعسل المحبة الإلهية] .

أقول إن المرء عادة حين يقرأ مثل هذه القطعة لا يكاد يتمالك نفسه من الابتسام أو الضحك ، لأن ما يثيره استعمال ألفاظها قد جاوز الحدود المألوفة لها مجاوزة كبيرة ، جعلت من المجاز فكاهة وسخرية ، ومع ذلك فقد يقف الصوفى من مثل هذه القطعة موقفاً مبايناً ، فيتبين فيها نواحى من الجمال ، وتحل من نفسه ومن قلبه محل الرضا والإعجاب .

ومن خلال هذه النظرة الفردية للألفاظ يستطيع الباحث أن يتبين ما يمكن أن يسمى بالحقيقة العامة أو المجاز العام فى بيئة معينة ، وفى جيل معين من الناس . فرغم اختلاف الأفراد إزاء كل لفظ نرى قدراً كبيراً من الاشتراك بينهم ، وذلك القدر المشترك فى فهم الدلالات هو الذى يكون الحقيقة العامة أو المجاز العام .

فهناك لفظ مجازى لدى فلان من الناس بلغت به المجازية حدود الإسراف ، وأوشكت أن تصبح هزؤا وسخرية ، ولـكنه لدى آخر من نفس البيئة معتدل المجازية لا إسراف فيه ولا مغالاة . وإذا تتبعنا هذا اللفظ لدى مجموعة كبيرة من الأفراد فقد نراهم جميعاً يشتركون إزاء اللفظ فى قدر من المجازية ، ولا يختلفون إلا فى نسبتها أو درجتها ، ويقال حينئذ إن مثل هذا اللفظ من المجاز العام فى تلك البيئة . وهو وأمثاله من الألفاظ المسئول عما يسمى بالمجاز فى لغة من اللغات . ومثل هذا يمكن أن يقال عن الألفاظ الحقيقية الدلالة .

فاللفظ قد يشيع استعماله فى جيل من الأجيال للدلالة على أمر معين ، وكلما ذكر اللفظ خطرت نفس الدلالة فى الأذهان دون غرابة أو دهشة ، وهو من أجل هذا مما يسمى بالحقيقة . فإذا انحرف به الاستعمال فى مجال آخر ، فأثار فى الذهن غرابة أو طرافة قيل حينئذ إنه من المجاز . وتلزمه تلك الغرابة أو الطرافة فى الاستعمال زمناً ما بعده قد يفقدها ، ويصبح من الألفة والذيوع بحيث تنسى مجازيته ويصير من الحقيقة .

وينحرف الناس عادة باللفظ من مجاله المألوف إلى آخر غير مألوف حين تعوزهم الحاجة فى التعبير ، وتتزاحم المعانى فى أذهانهم أو التجارب فى حياتهم ، ثم لا يسعفهم ما ادخروه من ألفاظ ، وما تعلموه من كلمات ! فهنا قد يلجئون إلى تلك الذخيرة اللفظية المألوفة ، مستعينين بها على التعبير عن تجاربهم الجديدة لأدنى ملابسة أو مشابهة أو علاقة بين القديم والجديد .

وتظل هذه الظاهرة تلازمنا طول الحياة ، إذ يلجأ الطفل الصغير إلى ذلك المجاز الضرورى ، كما يلجأ إليه الـكبير . فالطفل قد يرى ثقباً فى رأس الأبرة التى بيد أمه وهى تخيط له الثياب ، فلا يتردد فى أن يقول « عين الإبرة صغيرة » . أى أنه عمد إلى لفظ مألوف له منذ كان لا يستطيع النطق بكلمة واحدة من لغة أبويه ، وانحرف به عن ذلك المجال المألوف حين دعته الضرورة إلى ذلك .

وكذلك الكبير قد يرى الراديو للمرة الأولى ، ثم يشهد من يجـــربه أمامه فلا يتردد فى التساؤل عن « الزر » الخاص بعلو الصوت أو انخفاضه ، وعن « الزر » الخاص بتغيير الموجات ، أى أنه ينتقل بكلمة « الزر » من مجالها المألوف الى آخر جديد .

وقد لا تدعو الضرورة إلى مثل ذلك الانحراف بالألفاظ ، ومع هذا أو رغم هذا يلجأ كثير من الناس فى حياتهم العادية إلى الخروج بالألفاظ عن مألوفها رغبة فى التغيير ، وفراراً من الاستعمال الشائع وما قد يصاحبه من ملل أو سأم ، رغبة فى زيادة التوضيح والتجلية للدلالة . ويتم كل هذا فى حياة الناس العادية ، ومنه يتكون نوع من المجاز الذى لا ينتمى إلى فرد معين بقدر ما ينتمى إلى بيئة معينة أو وسط معين خاص .

وتظل الألسنة والأسماع تتلقفه حتى يذيع ويشيع ويصبح من المألوف أو مما يسمى بالحقيقة .

وهناك نوع آخر من المجاز يتميز بالطرافة ، ويصادف من جمهور الناس الإعجاب ، وينظر إليه على أنه نوع من الابتكار والاختراع ، وذلك هو ماتتفتق عنه قرائح الأدباء والشعراء والصفوة من أصحاب البلاغة واللسن ، حين يعمدون إلى الألفاظ فينحرفون بها عن عمد وقصد إلى مجال آخر ، وتلك هى الصفة التى يتنافس فيها أصحاب الشعر والأدباء ، وتقاس بها مهارتهم وقدرتهم . ويظل هـــذا الاستعمال الأدبى محل الإعجاب والثناء زمناً أطول ، ولـكن مصيره مع هذا إلى الشيوع والألفة فى زمن ما عنده يصبح من الحقيقة ، ويفقد ما لازمه من الطرافة والجدة ، ونراه قديماً بالياً فى عصر من العصور .

ولا يكون الحـكم صحيحاً على الحقيقة والمجاز فى الألفاظ إلا إذا اقتصر على بيئة معينة وجيل خاص ، فالمجاز القديم مصيره إلى الحقيقة ، والحقيقة القديمة قد يكون مصيرها إلى الزوال والاندثار ، وتبقى الألفاظ إذا قدر لها البقاء تنتقل

من مجال إلى آخر جيلا بعد جيل ، وذلك هو التطور الدلالى . فكثير من الدلالات التى كانت سائدة شائعة فى العصر الجاهلى قد أصابها البلى ، ولم نعد نراها إلا فى المعاجم كرموز متحفية تشبه ما نراه فى المتاحف من قطع خزفية لم تعد صالحة للاستعمال . أى أن أسمى درجات الجدة والطرافة فى الاستعمال هو ما يسمى بالمجاز ، ثم تتقلص تلك الجدة مع الزمن ويؤول أمرها إلى الألفة والذيوع ، وتصبح ما نسميه بالحقيقة التى قد ينتهى أمرها إلى الاندثار والزوال بتطور الحياة الاجتماعية للإنسان .

تلك هى الظاهرة التى جهلها أو تجاهلها الزمخشرى حين عرض للحقيقة والمجاز فى معجمه أساس البلاغة . ففى رأيه أن « الكتابة والقراءة ، والخلق والهجاء » كلها من المجاز ، ويقول إن الدلالة الحقيقة للفعل « كتب » هو فى مثل « كتب السقاء أى خرزه بسيرين » أى بمعنى الضم والجمع ، أما الكتابة المألوفة فدلالتها مجازية ، وكان أيضاً يقول إن الدلالة الحقيقية للقراءة هى الجمع والضم ، وإن الدلالة الحقيقية للفعل « خلق » هى التى فى مثل [خلق الحذاء الأديم والخياط الثوب قدره قبل القطع] ، « ومن المجاز خلق الله الخلق » ! ! وكان يزعم أن معنى « هجا الحروف يهجوها عددها ، ومنها عن طريق المجاز [الهجاء بمعنى تعدد المعايب] ! !

هو إذن يفترض أن العرب قد عرفوا من « الكتابة » خرز السقاء قبل أن يعرفوها بمدلولها الشائع الآن ، وتلك قضية ليس من اليسير البرهنة عليها حتى مع علمنا بشيوع الأمية لدى العرب القدماء . ومع هذا فإذا سلمنا جدلا بصحة تلك الأصالة والفرعية فى دلالة « الكتابة » ، فمن الواجب ألا يفوتنا أن الدلالة الحقيقية قد تتعدد ، أى أن اللفظ ينحرف من مجاله الحقيقى إلى مجال مجازى ثم يشيع ذلك المجاز حتى يصبح مألوفاً ، ويعد حينئذ من الحقيقة ، وتظل تلك الدلالة القديمة ملازمة للفظ فى حدود ضيقة ، ويكون للفظ دلالتان أو استعمالان

وكلاهما من الحقيقة ، غير أن إحدى الدلالتين تكون أكثر شيوعا من الأخرى، بل قد يصل الأمر إلى أن تصبح الدلالة القديمة من الندرة وقلة الاستعمال بحيث تسترعى الانتباه ، وتكاد تعد بمثابة المجاز حين تقارن بالدلالة الجديدة الشائعة المألوفة . . ومثلهما حينئذ كمثل الشيخ والشاب كلاهما معروف موجود فى بيئته غير أن أحدهما فى طريقه إلى الزوال والآخر فى عنفوانه . ومن النادر أن يكون للفظ الواحد دلالتان مشهورتان بنفس النسبة فى وسط من الأوساط .

الفصل الثامن

عوامل التطور فى الدلالة

رأينا آنفاً كيف أن كثيراً من ألفاظ اللغات تتطور دلالتها بمرور السنين وتوالى العصور . ويعنينا هنا البحث عن أسباب ذلك التطور الدلالى أو عوامله ، فنراها ذات شطرين ، منها تطور لاشعورى يتم فى كل لغة ، وفى كل بيئة ، ثم لا يفطن إليه إلا بعد المقارنة بين عصور اللغة . ومنها ذلك المقصود المتعمد الذى يقوم به المهرة فى صناعة الكلام ، أو تقوم به المجامع اللغوية ، لهدف ما أو لآخر . وهذا التطور المقصود المتعمد أقل أثراً فى اللغات بوجه عام ، ويعدّ من تطور الطفرة فى دلالة الألفاظ ، ولذا قد نراه فى الجيل الواحد من الناس ، ويشهده المرء خلال حياته القصيرة . ويمكن أن نعزو التطور الدلالى إلى عاملين أساسيين لكل منهما عناصره ومقوماته :

— ١ —

الاستعمال

ذلك لأن الألفاظ لم تخلق لتحبس فى خزائن من الزجاج أو البلور ، فيراها الناس من وراء تلك الخزائن ، ثم يكتفون بتلك الرؤية العابرة ! ! ولو أنها كانت كذلك لبقيت على حالها جيلا بعد جيل دون تغير أو تحول ، ولكنها وجدت ليتداولها الناس ، وليتبادلوا بها فى حياتهم الاجتماعية ، كما يتبادلون بالعملة والسلع. غير أن التبادل بها يكون عن طريق الأذهان والنفوس تلك التى تتباين بين أفراد الجيل الواحد والبيئة الواحدة ، فى التجربة والذكاء ، وتتشكل وتتكيف الدلالة تبعاً لها . ومع اشتراك الناس فى ناحيتها المركزية نراهم يختلفون فى حدودها

الهامشية وفى ظلالها ، وما يكتنفها من ظروف وملابسات تتغير كل يوم ، وتتنوع بتنوع التجارب والأحداث . فإذا ورثتها الأجيال الناشئة واتخذتها أيضاً للتعامل والتبادل لم ترثها على حالها الأولى ، بل ترثها مع بعض الانحراف فى الدلالة ، ثم يتضخم ذلك الانحراف على توالى الأجيال .

وأوضح عناصر هذا العامل الرئيسى يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — سوء الفهم :

وتلك تجربة قد يمر بها كل منا ، حين يسمع اللفظ للمرة الأولى فيسىء فهمه ، ويوحى إلى ذهنه دلالة غريبة لا تكاد تمت إلى ما فى ذهن المتكلم بأية صلة . ثم قد لا تتاح لهذا السامع فرص أخرى لتصحيح خطئه ويبقى اللفظ فى ذهنه مرتبطا بتلك الدلالة الجديدة . وليس من غير الشائع أن تتم هذه الظاهرة بين عدد من الأفراد كلهم يسيئون فهم الدلالة بطريقة واحدة ، ويتجهون فى فهمها اتجاها واحداً ، مما يساعد على تطور اللفظ تطوراً مفاجئاً يرثه الجيل الناشىء ويركن إليه . ورب إشارة من يد فى أثناء الكلام ، أو غمزة من عين ، أو أى حادث طارىء عارض يكتنف الكلام ، فيؤثر فى دلالة اللفظ ، وينحرف به عن مسراه المألوف نحو آخر بعيد عنه كل البعد رغم أن تلك الإشارة ، أو ذلك الحادث لم يكن مقصوداً متعمداً ، ولم يكن مما تتطلبه الدلالة للإيضاح أو البيان ، بل إن المصادفة البحتة هى التى ربطت بينهما ، فأدت إلى ذلك التطور أو التفسير فى الفهم .

ويتم مثل هذا التغير الفجائى عادة فى البيئات البدائية ، وحيث الانعزال بين أفراد الجيل الناشىء وجيل الكبار . ثم تسود تلك الدلالة الجديدة ، ويحير الدارس فى شأنها ، فلا يستطيع لها تعليلا ، ولا يقدر على الكشف عن ظروفها . وليس من الضرورى حينئذ أن تندثر الدلالة الأصلية ، أو أن تفنى من الوجود ،

بل قد تبقى جنباً إلى جنب مع تلك الدلالة الجديدة ، ويخيل للناس بعد ذلك أن للفظ دلالتين مستقلتين ، وأنه من الممكن استعماله فى هذه أو فى تلك . وهنا ينشأ فى اللغة ما يسمى بالمشترك اللفظى فى صورته الأصلية الحقة .

وبغير أن نسلم بإمكان وقوع هـذا الانحراف الفجائى ، لا نستطيع تفسير تلك الألفاظ العربية الكثيرة التى نرى كلا منها يعبر عن دلالات متباينة لا ارتباط بينها ولا وجه شبه . فحين تؤكد لنا المعاجم العربية أن كلمة « الأرض » تعنى الكوكب المعروف ، وتعنى أيضاً « الزكام » ، وحين يقال لنا إن كلمة « الليث » هى الأسد وهى أيضاً « العنكبوت » ، لا نكاد نجد تفسيراً معقولا إلا بالالتجاء إلى تلك الطفرة الدلالية .

وقد يروى للفظ الواحد عدة دلالات يتناولها الشعراء أو الناظمون ، فيجمعون بينها فى أبيات من الشعر ، ويستدلون بها على بعد تلك الدلالات المتباينة بعضها عن بعض . فكلمة « الغروب » مفردة أو جمعاً ذات دلالات ثلاث جمعها بعض الناظمين فى قوله :

يا ويح قلبي من دواعى الهوى	إذ رحل الجيران عند الغروب
أتبعتهم طرفى وقد أزمعوا	ودمع عينىّ كفيض الغروب
بانوا وفيهم طفلة حرة	تفتر عن مثل أقاحى الغروب

فالغروب فى البيت الأول لوقت المغرب ، وفى الثانى الدلاء جمع دلو ، وفى الثالث للوهاد المنخفضة .

وكثيراً ما يساعد على حدوث هذه الطفرة الدلالية أن اللفظ قد يكون قليل الشيوع ، أو يقتصر استعماله على أساليب معينة ، ولا يقع فى تجارب كثيرة ، فتصاب دلالته بشىء من الغموض ، ويصبح أكثر تعرضاً إلى الانحراف فى الدلالة من الألفاظ الأخرى .

وليس سوء الفهم في الحقيقة إلا نتيجة تلك العملية الذهنية التي تسمى بالقياس الخاطيء ، والتي تلازم كلاً منا في مراحل الحياة ، فقد تتم بين الأطفال كما تتم بين الكبار . ذلك لأننا كثيراً ما نعتمد في فهم ما نسمع أو نقرأ من ألفاظ جديدة على ما سبق لنا سماعه واختزانه من ذخيرة لفظية ، وما سبق أن تلقيناه عن طريق المشافهة ، وما تعلمناه من لغة أهلينا . فيقوم كل منا باستنباط الجديد على أساس القديم ، ولا يلجأ في استنباطه إلى غيره من الناس بل يحاول الكشف عنه بنفسه ، لأن تجارب الحياة كثيرة جداً ومتشعبة جداً ، وليس من الممكن أن تتاح الفرصة للفرد ليتلقى أو يشافه غيره في كل تجربة ، وليس من الممكن أن يجد المرء في كل ظرف من يساعده على الفهم ويوضح له الدلالة . ولذلك لا يرى مفراً في بعض الظروف من الاعتماد على نفسه ، ومن القيام بتلك العملية الذهنية القياسية ، فيقيس ما لم يعرف على ما عرف من قبل ويستنبط على أساس هذا القياس ، فيصيب في استنباطه حيناً ويصل إلى الدلالة الصحيحة ، ويخطيء حيناً آخر فيستخرج دلالة جديدة قد تصادف الشيوع والذيوع بين الناس . ولا يتوقف المرء عن الكلام بكل جديد قبل سماعه من غيره وقبل تلقيه عنه ، بل تحتم عليه ضرورة الاتصال بمجتمعه ، والتعاون مع أفراده ، أن يتكلم وأن يظل يتكلم ما بقيت فيه الحياة .

فالأطفال وهم يعبثون بألاعيبهم قد يقابلون جزءاً من أجزاء إحدى اللعب ويرون أهميته ، ويدركون وظيفته ، وهم مع هذا لم يسمعوا له اسماً ، ولم يلقنوا له لفظاً . وهنا نراهم لاينصرفون عن لعبهم بغية السؤال عن هذا الاسم ، ولايترددون في استنباط اسم له غير المألوف لدى أهليهم فيسمون « الفرملة » مثلا بالوقّافة ، ويقال حينئذ إن عملية ذهنية قد تمت فأنتجت ذلك القياس الخاطيء ، وأنتجت معه لفظاً لم يسمعه الطفل ممن حوله ، بل استخرجه بنفسه قياساً على ما سمع وعرف من قبل .

وكذلك الكبير قد يجلس وحده يقرأ فى كتاب ما ، ثم تصادفه كلمة لم يسمعها من قبل فيحاول استنباط دلالتها ، وقد يصيب ، وقد يخطىء . وليس بين الناس من يتحرج فى استنباط الدلالات ، أو يجلس إلى القراءة وعن يمينه معجم من المعاجم وعن يساره أستاذ عالم مطلع ، ليستعين بهذا أو بذاك فى كل ما يعن له من ألفاظ جديدة ! ! .

ويفسر لنا القياس الخاطىء تلك الأخطاء التى نشهدها بين الطلاب والتلاميذ ، حين نراهم ينحرفون بمعنى كلمة « العتيد » إلى معنى « العتيق » ، وحين يظنون أن « المستشفى » أو « الرأس » كلمة مؤنثة .

٢ ـ بلى الألفاظ :

أما العنصر الثانى للاستعمال فنراه حين يصيب اللفظ بعض التغير فى الصورة ويصادف بعد ذلك أن يشبه لفظاً آخر فى صورته ، فتختلط الدلالتان ، ويصبح اللفظ مما يسمى بالمشترك اللفظى . فتطور « السين » فى كلمة مثل « السغب » إلى حرف مناظر لها فى المخرج والهمس « كالتاء » ينتج لنا صورة جديدة للكلمة تماثل تمام المماثلة كلمة أخرى موجودة فعلا وتعنى « الدرن والوسخ » وهى كلمة « التغب » . ويترتب على هذا التطور الصوتى تطور دلالى هو أن يصبح للفظ الواحد أكثر من دلالة واحدة .

دعنا نتجول قليلا مع كلمة « القماش » المألوفة لنا الآن والتى تحل من نفوسنا محل الاحترام والاهتمام لا سيما حين ننسبها إلى الحرير أو الصوف ونقول الأقمشة الحريرية والأقمشة الصوفية ! ! هذه الكلمة نبحث عنها فى معجم الفيروزبادى فلا نراه يذكر لها من المعانى إلا « القماش أراذل الناس ، والقماش ما وقع على الأرض من فتات الأشياء » ! ! غير أن الجوهرى يذكر أيضاً أن من معانى « القماش » متاع البيت ؟ !

وأيا ما كانت دلالة هذه الكلمة على حسب ما جاء فى المعاجم العربية القديمة، لا ندرى كيف تطورت تلك الدلالة حتى صارت على النحو المألوف لنا الآن . وإذا صح ما يرويه بعض الدارسين [1] للألفاظ الدخيلة من أن هذه الكلمة مأخوذة من كلمة فارسية هى « كاش » بمعنى نسيج من قطن خشن ، تكون الكلمة العربية الأصلية قد نطقت قافها « جافا أو كافا » لسبب أو لآخر ، فأشبهت الكلمة الفارسية ، وانصرفت دلالتها إلى الدلالة الفارسية بمعنى النسيج .

كذلك أغلب الظن أن الذى ساعد كلمة « الخيشوم » التى تعنى الأنف إلى أن تتطور فتصير فى لهجات الكلام الآن بمعنى « الفم » أن صورتها قد أصابها بعض البلى فاختصرت إلى « الخشم » .

فكثيراً ما تتطور صور الكلمات ، ويترتب على هذا التطور تغير أو تطور فى الدلالة . وقد يصل التطور فى الصورة مداه ، فتندثر الكلمة وتفنى من الاستعمال ، لا سيما إذا كانت قصيرة البنية . وبهذا يحدثنا فندريس فيؤكد لنا أن كلمة « os » اللاتينية التى معناها « الفم » قد اندثرت من اللغات الأوربية الحديثة التى انحدرت عن اللغة اللاتينية [2] .

٣ ـ الابتذال

العنصر الثالث للاستعمال هو « الابتذال » الذى يصيب بعض الألفاظ فى كل لغة من اللغات لأسباب منها السياسى ومنها الاجتماعى ومنها العاطفى .

(ا) فنحن حين نتذكر أن بعض الظروف السياسية ، قد تتطلب الحط من ألقاب ورتب اجتماعية ندرك السبب فى انزواء بعض الألفاظ التى تعبر عنها

---

(١) القس طوبيا العنيسى الحلبى اللبنانى فى كتابه تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية سنة ١٩٣٢ .

(٢) اللغة ص ٢٧٢ .

من اللغة . ولعل أقرب مثل لهذا هو إلغاء الألقاب والرتب فى مصر ، فانزوت كلمات مثل(باشا ، بك ، أفندى)، وغيرها من ألقاب تركية مرت بها تطورات فى دلالتها ، وانحط قدرها على توالى الأيام ، وصارت كلمة « أفندى » فى آخر عهدها ذات قدر تافه ، وأصبحت أقل الرتب بعد أن كان لها خلال القرن التاسع عشر مركز هام ومكان مرموق .

ويحدثنا بعض الباحثين عن كلمة «الوزير» العربية التى أصبحت فى الأسبانية لا تعنى أكثر من « الشرطى » ، وفى الإيطالية « مساعد عشماوى » [1].

ومثل هذا يمكن أن يقال عن كلمة « الحاجب » التى كانت تعنى فى الدولة الأندلسية « رئيس الوزراء » ، ثم صارت على النحو المألوف الآن .

ويترتب على هذا الابتذال عادة أن تنحط الدلالة ، أو أن تنزوى الكلمة وتندثر ، فلا تجرى على الألسنة ، ولا ترد فى الاستعمال . وكان بعض علماء العربية يشيرون فى ثنايا كتبهم إلى هذا الابتذال إشارة عابرة لدى الحديث عن بعض الألفاظ دون عناية بظروفه أو أسبابه ، كأن يقولوا مثلا إن كلمة «خش» بمعنى « دخل » كلمة مبتذلة رغم أنها عربية صحيحة . وقد اكتفوا بتتبع بعض الألفاظ التى جرت كثيراً على ألسن العامة والجهلة أو السفلة من القوم ووصفوها بهذا الوصف .

(ب) ولعل أوضح الأسباب فى ابتذال بعض الألفاظ ، تلك التى تتصل بالناحية النفسية العاطفية ، وذلك كأن يكون اللفظ قبيح الدلالة ، أو يتصل بالقذارة والدنس ، أو يرتبط بالغريزة الجنسية . فهنا نلحظ أن كل اللغات تفقد بعضاً من ألفاظها التى تعبر عن هذه النواحى ، فتندثر تلك الألفاظ أو تنزوى ، ويحل محلها لفظ آخر أقل وضوحاً فى دلالته ، وأكثر غموضاً أو تعمية .

---

(1) The Story of Language. p. 147.

فالشتائم والسباب ألفاظ شاء لها القدر أن تكتنف بظروف اجتماعية جعلت منها ألفاظاً قبيحة الدلالة ، بغيضة إلى السمع واللسان . ولذلك كثيراً ما تتعرض للانزواء أو الاندثار .

وكذلك الألفاظ التي ترتبط بالقذارة والنجس تظل على شيوعها حيناً من الدهر ، بعده تصبح مبتذلة ، وتنزوى أو تندثر من الاستعمال . خذ مثلا كلمة « البربور » التي أصبحت الآن قبيحة مبتذلة ، والتي انزوت في استعمالها ، فلا نكاد نسمعها إلا بين العامة ، أو الوسط الخاص حيث تزول الكلفة بين المرء ولداته ، وفي مجال الفكاهة والدعابة بصفة خاصة . هذه الكلمة إذا صح أنها انحدرت من الكلمة العربية الصحيحة التي ترد في المعاجم وهي : [البربور بمعنى الجشيش من البر ، والبربرة صوت الماعز وكثرة الكلام والجلبة والصياح] ، أقول إذا صح أنها انحدرت من هذه الدلالة لوجه الشبه بين المخاط والبر المجشوش ، ولأنه يصدر من الأنف مع صوت كصوت الماعز ، أو عند كثرة الكلام والصياح ، تكون الكلمة حينئذ قد أصابها من سوء الحظ ما أصابها ، فاشتهرت أولا في المعنى العامي المألوف ، ثم ابتذلت لكثرة الاستعمال ، وأصبحنا نستعيض عنها بكلمة أخرى هي المخاط . ولعل فيما ورد بمعجم الفيروز بادى من قوله : [والبرابير طعام يتخذ من فريك السنبل والحليب] ما يؤيد أن الدلالة العامية المألوفة لهذا اللفظ قد انحدرت عن أصل عربي ثم ابتذلت .

وكذلك حين يقارن بين كلمتين عربيتين بمعنى واحد هما [المدة والصديد] نرى أن الأولى أصبحت الآن مبتذلة ، وأوشكت على الانزواء من الاستعمال ، ويحل محلها الآن كلمة « الصديد » التي لا تزال تحتفظ بقدر من الاحترام والاحتشام في الوسط الاجتماعي .

ومن الألفاظ الدائمة التطور والتغير في دلالتها تلك التي تشير إلى التبول والتبرز فلا يكاد اللفظ منها يشيع حتى يمجه الذوق الاجتماعي ، وتأباه الآداب

العامة فيستعاض عنه بآخر من نفس اللغة أو من لغة أجنبية .. ويكفى لتوضيح هذا أن نستعرض الألفاظ الآتية :

الكنيف ، الششمة (كلمة فارسية) ، الكرسى ، المستراح ، بيت الراحة ، بيت الأدب ، المرحاض ، الكابنيه (كلمة أوربية) .

فإذا عرضت اللغات للناحية الجنسية وما يتصل بها رأينا التطور الدلالى أسرع ، وشهدنا أن الكناية والتعمية مطلوبة مستحبة . فلأعضاء التناسل فى كل لغة كلمات مبتذلة وأخرى محترمة ، وللعملية الجنسية فى كل لغة كلمات مفضوحة ينفر منها الناس ، وأخرى معماة مكنية يقبلون عليها .

وكذلك كل ما يتعلق بالزنا أو هتك العرض أو العربدة ، بل بلغ الأمر ببعض اللغات أن أصبحت تكنى عن أسماء الزوجة ، وعن الملابس الداخلية للإنسان ، مما هو معروف شائع . وقد كنى القرآن الكريم عن العملية الجنسية بألفاظ كريمة هى :السر،الحرث ، والإفضاء ، والمباشرة ، والملامسة ، والدخول ، الرفث : « نساؤكم حرث لكم » ، (من نسائكم اللاتى دخلتم بهن) « أو لامستم النساء » ، « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » ، « فالآن باشروهن فى المضاجع » ، « وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض » ، « ولكن لا تواعدوهن سراً » ، « فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » .

وتكنى عنها العامة بالنوم ، والاستحمام ، والاجتماع ، وأصبحوا يتحاشون كلمة « النكاح » التى لم تكن تعنى سوى الزواج ، ثم ارتبطت فى أذهان العامة بالعملية الجنسية ارتباطاً وثيقاً ، وقد كانت لا تستعمل فيها إلا عن طريق الكناية المقبولة لدى العرب القدماء .

(جـ) ومن أوضح الألفاظ التى نستبين منها الضعف الإنسانى تلك التى تتصل من قريب أو بعيد « بالموت والأمراض » ، أو بالأشباح والعالم الروحى .

فهى ألفاظ تثير الخوف والهلع فى نفوس البشر، فينفرون من سماعها ، ويتفادون ذكرها ، فراراً مما تبعثه فى الأذهان من كوارث أو مصائب أو آلام .

وتتعرض الألفاظ التى تعبر عن هذه النواحى إلى التغير الدائم ، والتطور السريع ، فنها ما يندثر غير تارك بعده أثراً ، ومنها ما ينزوى ويصبح نادر الاستعمال . وفى كلتا الحالتين نرى الناس يستعيضون عن تلك الألفاظ بأخرى تمت إليها بسبب من الأسباب ، وتعبر عن نفس الدلالات فى أناة ورفق لا يفزع منها السامع أو يتشاءم ، لأنها تغطى الدلالة بغلالة رقيقة تقلل من وضوحها ، وتحد من تأثيرها فى الأذهان .

وتقوى هذه الظاهرة فى البيئات البدائية ، حيث يلعب التفاؤل والتشاؤم والتطير دورا خطيرا فى حياة الناس ، ولكن أثرها يبدو فى كل لغة ، وفى كل مكان أو زمان .

فكلمة « الهلاك » لم تكن تعنى فى الاشتقاق السامى القديم سوى مجرد « الذهاب » ، ولا تزال تحتفظ بهذه الدلالة فى اللغة العبرية ، ولكنها فى العربية تطورت وحلت محل « الموت » التى اكتسبت قدرا كبيرا من قوة الدلالة ووضوحها حتى أصبح من الضرورى البحث عن غيرها فكان أن وجدت كلمة « الذهاب » التى كنى بها عن الموت ، كما وجد ذلك الاستعمال المعروف « توفى » ، أو « فاضت روحه » ، أو « انتهى » ، أو غير ذلك من ألفاظ أقل شيوعا وأقل أثرا فى النفوس .

وليس منا من لا يعلم مسلك الناس فى الأرياف إزاء أسماء الأمراض وتكنيتهم عنها بأخرى خيرة الدلالة ، فالحمّى لديهم قد تسمى « بالمبروكة » أو لا يكون لها اسم معين ، بل يكتفى بالإشارة إليها بذلك التعبير العامى « اللى ما تتسمى » ! .

ولأسماء العفاريت والجن والشياطين رموز أخرى مكنية أو معماة ، ولأسماء الهوام والحشرات السامة كنايات تشير إليها إشارة بعيدة تفاديا لشرها وسمومها .

وسر كل تلك التكنية أو التعمية هو ما استقر فى ذهن الإنسان منذ القدم من الربط بين اللفظ ومدلوله ربطاً وثيقاً ، حتى إنه يعتقد أن مجرد ذكر الموت يستحضر الموت، وأن النطق بلفظ الحية يدعوها من جحرها ، فتنهش من ناداها أو ذكر اسمها . وقد سيطرت تلك العقيدة على عقول كثير من أبناء الأمم البدائية ، حتى أصبحوا لا يفرقون بين الشيء واسمه ، ويتصورون أن المرء يتكون من الجسم والروح والاسم .

وقد حدثنا كثير من المغامرين الذين اتصلوا بتلك الأمم البدائية ودرسوا عاداتهم وتقاليدهم عن أمور غريبة عجيبة يؤمنون بها ، وكثير منها يعزى إلى ذلك الربط الوثيق بين اللفظ والمدلول . فعند بعض هؤلاء القوم يأبى الفرد منهم أن يطلع أجنبياً على اسمه خشية أن يمتلك جزءاً من كيانه فيتغلب عليه . ولا تزال آثار تلك العقائد القديمة سائدة فى بعض بيئاتنا حين يستعان باسم الأم واسم الشخص فى السحر والرقى رغبة فى النيل منه أو السيطرة عليه[1] .

وليس تفادى الأسماء أو تحاشيها مقصوراً على الشعور بالخوف منها أو الاشمئزاز من ذكرها ، بل قد يكون أحياناً للهيبة وشدة الاحترام ، وذلك حين يتحاشى الصغير ذكر اسم أبيه أو معلمه أو رئيسه ويكنى عنه بكلمة أخرى . وقد بلغ هذا الاحترام والإجلال لدى بعض الأمم أن أصبح ذكر اسم الرب أو الإله محظوراً محرما . فاليهود لا ينطقون باسم الرب « يهوفا » ، ويستعيضون عنه بكلمة أخرى معناها « السيد » هى « أدناى » كلما عرضت لهم كلمة « يهوفا » فى أثناء القراءة أو الترتيل .

---

(١) راجع فندريس فى كتابه « اللغة » ص ٢٣٧ ، ٢٨٠ . وكذلك جسبرسن فى كتابه ص ١٨٤ Markind, Nation & Individual

ويترتب على كل ما تقدم أن ألفاظاً تحل محل أخرى ، وأن بعض كلمات اللغة تكتسب دلالات جديدة ، وتنتقل إلى مجال غير الذى عرفت به وشاعت فيه . وتتم تلك العملية التطورية فى الدلالات فى صورة تدريجية تستغرق زمناً طويلا . وليس المسئول عنها فرداً بعينه ، بل تعزى إلى المجتمع فى البيئة اللغوية .

— ٢ —

الحاجـــة

وهناك نوع من التطور فى الدلالة يكون وليد الحاجة إلى التجديد فى التعبير، وهو الذى يقصد إليه قصدا ، ويتم عن عمد فى ألفاظ اللغة ، وذلك هو العامل الثانى فى تطور الدلالة .

ويتم هذا النوع من التطور عادة على يدى الموهوبين من أصحاب المهارة فى الكلام كالشعراء والأدباء ، كما قد تقوم به المجامع اللغوية أو الهيئات العلمية حين تعوز الحاجة إليه . والسبيل إليه هو ما يسمى بالمجاز أو الانتقال باللفظ من مجاله المألوف إلى آخر جديد عليه .

وحاجة الأديب إلى توضيح الدلالة أو تقوية أثرها فى الذهن ، هى التى تحمله على الالتجاء إلى المجاز . وعلى قدر إحسانه فى تخير المجال الجديد للفظ تكون مهارته وجودة فنه .

عناصر الحاجة ودوافعها :

١ — التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى : ـ

تبرهن لنا أحداث التاريخ العام على أن الأمم لا تبقى على حال ، فمنها ما شهد التاريخ مولده ثم ازدهاره ثم تدهوره أو فناءه . ومن الأمم ما هو قديم

عريق عاشت فى فجر التاريخ ، ثم سيطرت على العالم القديم زمنا ما ، ثم انزوت ولم تخلف لعالم الإنسان سوى الآثار والنقوش الصامتة ، أو انكمشت وتضاءلت ولم يبق من أبنائها إلا ما يكونون دويلة صغيرة . ومن الأمم ما هو حديث النشأة والنهوض والازدهار .

وتتبع اللغات الأمم فى صعودها وهبوطها ، وفى تطورها وتغيرها ، إذ لا وجود للغة بغير المتكلمين بها ، ولا تحيا إلا بحياة أبنائها . فكل تطور فى حياة الأمة يترك أثرا قويا واضحا فى لغتها . ويعنينا هنا ذلك الأثر المتعمد الذى يقصد إليه قصداً ، لأن مظاهر الحياة تتطلبه وتدعو إليه . وتستجيب الأمم عادة لمظاهر الحياة ، فتعمل على تغيير الدلالات فى بعض ألفاظها حتى يمكن أن تساير الزمن ، أو تستعير ما هى فى حاجة إليه من ألفاظ اللغات الأخرى . فليست حياة المنزل فى العصور القديمة كتلك التى نشهدها الآن فى عصرنا الحاضر ، وليست نظم الأسواق فيما مضى كتلك التى تسود الآن فى العصر الحديث ، فالأدوات غير الأدوات ، والمواصلات غير المواصلات ، والملابس غير الملابس ، والأبنية غير الأبنية ، وبالاختصار لم يبق لنا من العالم القديم إلا مظاهر الطبيعة من سماء ونجوم وشمس وقمر وأرض وأنهار ، وبحار وبراكين وعواصف وأمطار ، ثم جميع أنواع الحيوان والطيور والأسماك والحشرات والهوام . أما فى غير هذا فقد تغير كل شىء وتطور كل شىء للإنسان على ظهر الأرض . ووجد الإنسان نفسه مضطراً إلى التطور أيضاً فى الألفاظ المعبرة عن أدواته ومواصفاته وصناعاته وملابسه وأبنيته فلجأ إزاء هذه الضرورة إلى وسيلتين :

(ا) أولاها أن يعمد إلى الألفاظ القديمة ذات الدلالات المندثرة فيحيى بعضها ، ويطلقه على مستحدثاته ملتمساً فى هذا أدنى ملابسة . وهكذا وجدنا أنفسنا أمام ذلك الفوج الزاخر من الألفاظ القديمة الصورة الجديدة الدلالة : كالمدفع والقنبلة والدبابة واللغم والطيارة والطراد والسيارة والبريد والقاطرة

والقطار والثلاجـة والسخان والمذياع والدبدبات والتسجيل والجرائد والصحف والمجلات ، والمحافظة والأقسام والمرور ؛ وغير ذلك من آلاف الألفاظ التى أحياها الناس أواشتقوها ، وخلعوا عليها دلالات جديدة تطلبتها حياتهم الجديدة . وتتم هذه العملية عادة عن طريق الهيئات والمجامع اللغوية ، أو قد يقوم بها بعض الأفراد من الموهوبين فى صناعة الـكلام كالأدباء والـكتاب والشعراء . ثم تفرض تلك الألفاظ فى وضعها الجديد على أفراد المجتمع للتداول والتعامل بها ، غير أن بعضها يصادف القبول فيذيع ويشيع ، ويصبح بعد حين من الـكلمات المألوفة المعروفة ، ويلقى بعضها الصعاب والاعتراض فـلا يـكاد يظهر حتى يختفى من الاستعمال . وقد يصل الشيوع بالدلالة الجديدة حداً تنسى معه الدلالة القديمة نسياناً تاماً ، فلا يبقى لها أى أثر فى أذهان الناس . فمن منا الآن إذا سمع كلمة « السيارة » أو « القاطرة » يخطر فى ذهنه صورة القافلة فى الصحراء ، أو الناقة الأولى التى تسير القافلة على هديها ؟

يروى أحد الأدباء أن ابنه الصبى كان يسمع فقيها يقرأ من سورة يوسف « وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه » ، فدهش الصبى وسأل والده وهل كانت هناك سيارات فى ذلك الحين يا أبى ؟

ويحاول المجمع اللغوى الآن وضع كثير من تلك الألفاظ التى تسد حاجة المجتمع فى النواحى المختلفة . ففيه لجان لألفاظ الحضارة ، وأخرى لـكل أنواع النشاط الاجتماعى والعلمى والسياسى والاقتصادى ، ممـا تتطلبه النهضة العربية الحديثة . ويكفى الرجوع إلى أعداد مجلة المجمع اللغوى للاطلاع على تلك الآلاف من الألفاظ التى وفق أعضاؤه ولجانه فى اختيارها وتحديد مدلولاتها .

ولم يكن كل هذا إلا وليد الحاجة والضرورة الملحة ، حتى لا تتخلف الأمة العربية عن ركب الحضارة . وقد كان لجهود الأفراد من محررى الصحف نصيب مشكور فى استخراج تلك الألفاظ ، والدعوة إلى استعمالها قبل إنشاء المجمع

اللغوى بزمن طويل . هذا هو أحد رؤساء التحرير فى صحيفة مصرية يجد نفسه أمام حادث وقع فى أواخر القرن التاسع عشر ، فأراد نشره على الملأ ، ووصفه لجمهور قرائه ، ورأى نفسه بحاجة إلى لفظ للتعبير عن أحد المخترعات الحديثة ، فلم يتردد فى إحياء لفظ قديم للتعبير عن مدلول حديث . وكان ملخص ذلك الحادث أن الآلة التى تجر عربات السكة الحديدية الجديدة قد سقطت فى النيل أثناء مرورها فوق أحد الجسور وهو مفتوح. فوفق فى اختيار لفظ «القاطرة» للتعبير عن اللفظ الأجنبى « Locomotive » ، وذلك لأن القاطرة هى الناقة التى تتقدم القافلة .

وقد تكون الدعاية السياسية أو الاقتصادية حافزاً كبيراً لتوليد تلك الألفاظ الجديدة الدلالة . فأصحاب الإعلانات التجارية لا يألون جهداً فى تخير الألفاظ ، وصبغها بدلالات جديدة جذابة ، رغبة فى رواج بضائعهم وأسواقهم ، فصاحب محل المشروبات قد يطلق على محله « جنة الفواكه » ، والحلاق قد يطلق على دكانه « دار الزينة » ، والخياط قد يقول عن محله « دار الأناقة » ، والطورشجى قد يدعو ما يبيعه « بالمشهيات » ، وغير ذلك مما هو مألوف لنا فى حياتنا العامة .

(ب) وقد تدعو تلك الحاجة أو الضرورة إلى الالتجاء إلى ألفاظ اللغات الأجنبية ، فيستعار منها ما تمس الحاجة إليه حيناً ، وما لا حاجة إليه حيناً آخر . فاللغات يستعير بعضها من بعض ، إما لأن الألفاظ المستعارة تعبر عن أشياء تختص بها بيئة معينة ولا وجود لها فى غير هذه البيئة ، أو تكون الاستعارة لمجرد الإعجاب باللفظ الأجنبى . وتقتصر الاستعارة عادة على الألفاظ والكلمات ، ولا تكاد تتعداها إلى العناصر اللغوية الأخرى ، كالتصريف والاشتقاق وتركيب الجمل .

أما الاستعارة التى تدعو الحاجة إليها فقد عرفها القدماء كما عرفها المحدثون . فقد استعار العرب من الفرس واليونان ألفاظا للتعبير عن أشياء ليست فى بلاد العرب . وعمد العرب القدماء إلى بعض تلك الألفاظ فحوروا من بنيتها ، وجعلوها على نسج الكلمات العربية ، وسموها بالمعربة ، وتركوا البعض الآخر على صورته وسموه بالدخيل . ويكفى الرجوع إلى الكتب التى ألفت فى هذا ، كشفاء الغليل للشهابى والمعرب للجواليقى ، للوقوف على تلك المئات من الألفاظ الأجنبية التى قبلتها لغتنا العربية .

واستعارت اللغات الأجنبية بعضاً من ألفاظنا العربية بعد أن صبغتها بصبغتها ، وغيرت من صورتها مثل شراب Sirup ، الجبر Algebra ، الكحول Alcohol ، قهوة Coffee ، منارة minaret ، ترجمان dragoman . ويحدثنا اللغويون المحدثون أن الأمم الأوربية لم تتردد فى استعارة كلمة « Tea » من اللغة الصينية حيث المصدر الأصلى للشاى ، وكلمة « الشمبانزى » من إحدى لغات أفريقيا ، وكلمة « الشيكولاته » من اللغة المكسيكية ، وكلمة « الياسمين » من الفارسية ، وغير ذلك من ألفاظ تعبر عن أشياء لا وجود لها فى البيئات الأوربية ، أو وفدت إليها من المصادر الأصلية .

وتم هذا النوع من الاستعارة للحاجة الملحة ، دون أن يكون للبيئة المستعار منها أى أثر ثقافى أو نفوذ سياسى فى البيئة المستعيرة ، وفى وقت ليست فيه تلك الأمة المستعار منها محل إعجاب أو موضع تقدير لحضارتها ورقيها الاجتماعى أو نهضتها السياسية .

وهناك نوع آخر من استعارة الألفاظ يتم فى ظروف أخرى تكشف عن إعجاب أمة بأمة ، وتأثرها بثقافتها أو خضوعها لنفوذها السياسى . وهنا نلحظ أن مجموعة كبيرة من ألفاظ الأمة صاحبة النفوذ والسيطرة تغزو الأمة الأخرى ،

وتنافس ألفاظها الأصلية ، ويصبح المعنى الواحد لفظان أحدهما أصيل ، والآخر أجنبي دخيل ، يسودان معا جنباً إلى جنب زمناً ما بعده قد ينزوى اللفظ الأصلى ، أو يندثر ، وحينئذ يستأثر اللفظ الأجنبي بالاحترام والتقدير فى الأوساط الاجتماعية الراقية وفى المجال الثقافى . وتلك هى الاستعارة التى تترك أثراً ظاهراً فى تطور الدلالة لبعض الألفاظ فى اللغات. أما الاستعارة التى تكون وليدة الحاجة الضرورية فلا نكاد نلمح لها أثراً فى تطور الدلالات أو تغيرها ، بل هى مجرد تنمية لألفاظ اللغة ، وإضافة جديدة فيها[1] .

فاستعارة اللفظ الأجنبي رغم وجود نظير أصيل له يعبر عن نفس المعنى ، تؤدى عادة إلى تطور فى دلالة اللفظ الأصيل . فينزوى إلى ركن متواضع من الدلالات الأصلية ، قانعاً بها ولا يتعدى حدودها ، أو يقتصر استعماله على مجال معين ، أو وسط اجتماعى خاص . وتصبح السيادة حينئذ للفظ الأجنبي الذى يفوز بكل تقدير واحترام . فإذا لم يندثر اللفظ الأصيل ، ولم تتغير نظرة المجتمع إليه ، فلم تنكمش دلالته أو تتطور ، عاش مع اللفظ الأجنبي ، ويتكون منهما ما يسمى بالترادف فى اللغات . فقديماً عرف العرب لفظ « الحرير » ، ثم لم يقنعوا به ، فاستعاروا معه ألفاظاً منافسة كالسندس والإستبرق والديباج ، ثم أبى تجار العرب إلا أن يختصوا تلك الألفاظ الأجنبية بصفات خاصة ، فنسبوا للإستبرق بضاعة منها وللسندس أخرى ، وللديباج ثالثة ، طلباً لرواج بضائعهم ، فاقتصرت دلالة الحرير على المعنى العام .

وليست كل الألفاظ قابلة للاستعارة ، بل منها ما يمكن أن يسمى بالألفاظ العصية على الاستعارة ، وهى التى تعد من العناصر القديمة الأصيلة المميزة للغة ،

---

(1) انظر The story of language. p. 149, by Mario Pei
language, its nature, development & origin p.208 by jespersen.
Language, p. 444, by Bloomfield.

وليس من اليسير ولا من المرغوب فيه التخلص منها أو استجلاب منافس لها ، كألفاظ الأعداد فى كل لغة وكالضمائر وألفاظ الإشارة والموصول . ومع هذا فقد يحدث أن تستعير أمة من أمة أخرى نوعا من ألعابها، وتستعير معه الألفاظ الأجنبية التى تصطنع فيه . فقد استعرنا لعبة « النرد » من الفرس ، واستعرنا معها طريقة الفرس فى العد ، كاليك والدوه والدوسة والجهار والبيش والشيش .. إلخ .

ولكى ندرك أثر الاستعارة فى تطور الدلالة ، علينا أن نتذكر أن نحو نصف ألفاظ اللغة الفارسية مستعار من اللغة العربية ، وأن نصف ألفاظ اللغة التركية مأخوذة إما من الفارسية أو العربية ، وأن ثلث ألفاظ اللغة الإنجليزية فقط هى التى تعد بحق ألفاظاً أصيلة سكسونية .

ويؤكد لنا أحد الباحثين من اللغويين المحدثين أنه فحص معجما فرنسياً يشتمل على ٤٦٣٥ كلمة فوجد منها ٢٠٢٨ كلمة فقط من الأصل اللاتينى الذى يعد المصدر الأصيل للغة الفرنسية ، ووجد ٩٢٥ من اللغة اليونانية و٦٠٤ من الألمانية و٦٦ من الكلتية و١٥٤ من الإنجليزية و٢٨٥ من الإيطالية و١١٩ من الأسبانية و١٠ من البرتغالية و١٤٦ من العربية و٣٦ من العبرية و٤ من الهنغارية و٢٥ من السلافية و٣٤ من التركية و٦ من لغات أفريقيا و٩٩ من اللغات الأسيوية و٦٢ من اللغات الأمريكية الهندية و٢ من اللغات البولينسية !![1] .

أى أننا لا نكاد نظفر بتلك اللغة التى تعد خالية من أى عنصر أجنبى ، اللهم إلا بين عدد قليل من لغات القبائل البدائية فى العالم .

وهكذا نرى أن استعارة الألفاظ أو اقتراضها ذات أثر فى تطور الدلالات .

---

(1) The Story of language. p. 151.

الفصل التاسع

أعراض التطور الدلالى

تبين لنا فيما سبق أن اللفظ قد تتطور دلالته وتتغير ، وعرفنا العوامل أو الأسباب التى تدفع إلى مثل هذا التطور والتغير .

وإذا صح أن نشبه ظاهرة التطور فى الألفاظ بالعلة التى قد تعترى الكائن الحى ، فعلينا هنا أن نبين أعراضها ومظاهرها . وتكاد تتلخص تلك الأعراض والمظاهر فى الأمور الآتية : —

— ١ —

تخصيص الدلالة

يتحدث المناطقة والفلاسفة عن دلالة اللفظ ، ويسمونها بالدلالة العامة لأنها تنطبق على كل فرد من طائفة كبيرة ، ويصفون اللفظ حينئذ بأنه « كلى » مثل كلمة « شجرة » التى تطلق على كل ما فى الكون من الأشجار . فإذا تحددت الدلالة أو ضاق مجالها قيل إن اللفظ أصبح جزئياً ، وقيل إن الدلالة قد تخصصت . فقولنا « شجرة البرتقال » يستبعد آلافاً أو ملايين من أنواع الأشجار الأخرى ، فهى لذلك أخص فى دلالتها من كلمة « شجرة » . وقولنا « شجرة البرتقال المصرية » أخص فى الدلالة من « شجرة البرتقال » . ولا تزال الدلالة تتخصص حتى تصل إلى العلمية أو ما يشبهها فقولنا « شجرة البرتقال فى حديقتنا » يصل بالدلالة إلى أضيق الحدود ، وتكاد تكون الدلالة هنا كالدلالة فى الأعلام وأسماء الأشخاص كمحمد وعلى وأحمد ونحو ذلك .

والألفاظ فى معظم اللغات البشرية تتذبذب دلالاتها بين أقصى العموم كما فى الكليات ، وأقصى الخصوص كما فى الأعلام . فهناك درجات من العموم ، وهناك درجات من الخصوص ، وهناك حالات وسطى . وإدراك الدلالة الخاصة أو الشبيهة بالخاصة أيسر من إدراك الدلالة الكلية ، التى يقل التعامل بها فى الحياة العامة وبين جمهور الناس . فالفلاسفة وأصحاب العقول الكبيرة هم وحدهم المشغوفون بتلك الألفاظ الكلية فى تفكيرهم وتأملاتهم.

وعلى قدر ما يصيب الذهن من رقى يكون استعداده لتقبل تلك الدلالات الكلية ، وحرصه على التعامل بها . وكذلك الأمم على قدر نهوضها ، وسمو التفكير بين أبنائها ، تكون لغاتها مستعدة لتلك الدلالات الكلية . فلغات الأمم الناهضة تتضمن قدراً كبيراً جداً من تلك الألفاظ ، على حين أن لغات الأمم البدائية لا تكاد تشتمل على شىء منها .

فيقال لنا إن الهورونيين (السكان الأصليون لأمريكا الشمالية) ليس لديهم لفظ للتعبير عن « الأكل » ، بل يصطنعون عدة ألفاظ متباينة أحدها للتعبير عن « أكل اللحم » . والآخر عن « أكل الخبز » ، والثالث عن « أكل الموز » وهكذا[1] .

وعرفنا آنفا أن الأطفال يدركون الدلالة الخاصة قبل إدراكهم للدلالة العامة ، فيبدأ الطفل حياته بأن يجعل من كل لفظ جديد على سمعه « علما » على شىء معين . فحين يسمع كلمة « السرير » ويربطها بمهده ومكان نومه تظل فى ذهنه زمنا ما أشبه بعلم على سريره هو وحده .

والناس فى حياتهم العامة ينفرون عادة من تلك الكليات التى لا وجود لها إلا فى الأذهان ، ويؤثرون الدلالات الخاصة التى تعيش معهم فيرونها ويسمعونها

---

(1) L' Evolution des idees, p. 110

وعلم اللغة للدكتور على عبد الواحد ص ٢٤١ .

ويلمسونها، ولذا يسهل عليهم تداولها والتعامل بها فى حياة أكثر ما فيها ملموس محسوس . وهم لقصور فى الذهن حينا ، أو بسبب الكسل والتماس أيسر السبل حينا آخر ، يعمدون إلى بعض تلك الدلالات العامة ويستعملونها استعمالا خاصا ولا يتردد الفرد العادى فى هذا الصنيع متى وثق أن كلامه سيكون مفهوما ، وأنه سيحقق الغرض أو الهدف من النطق . فإذا قدر لمثل هذا الاستعمال فى الدلالة أن يشيع ويذيع بين جمهـــور الناس رأينا اللفظ تتطور دلالته من العموم إلى الخصوص ، ويضيق مجالها ، وتقتصر على ناحية منها . وذلك هو العرض الذى نسميه بتخصيص الدلالة ، وهو الذى يصيب كثيراً من ألفاظ اللغات فى العالم .

فكلمة « meat » التى تعنى الآن فى اللغة الإنجليزية « اللحم » ، كانت دلالتها فيما مضى أعم ، وكانت تعنى مجرد « الطعام » ، وكلمة « Hound » التى تعنى الآن فى تلك اللغة نوعا خاصا من الكلاب ، كانت فيما مضى تعبر عن ى « كلب » .

وكذلك الحال فى لهجات الخطاب عندنا إذ تخصصت كلمة « الطهارة » وأصبحت تعنى « الختان » ، وتخصصت كلمة « الحريم » فبعد أن كانت تطلق على كل محرم لا يمس ، أصبحت الآن تطلق على « النساء » ، وكذلك كلمة « العيش » حين تطلق على « الخبز » .

— ٢ —

تعميم الدلالة

فكما يصيب التخصيص دلالة بعض الألفاظ قد يصيب التعميم البعض الآخر ، غير أن تعميم الدلالات أقل شيوعا فى اللغات من تخصيصها ، وأقل أثرا فى تطور الدلالات وتغيرها . ويشبه تعميم الدلالات ما نلحظه لدى الأطفال حين يطلقون اسم الشىء على كل ما يشبهه لأدنى ملابسة أو مماثلة ، وذلك لقصور

محصولهم اللغوى ، وقلة تجاربهم مع الألفاظ . فقد يطلق الطفل لفظ « الأب » على كل رجل يشبه أباه فى زيه أو قامته أو لحيته أو شاربه ، وقد يطلق لفظ « الأم » على كل امرأة تشبه أمه فى ثيابها وشعرها وصورتها. وتبدو هذه الظاهرة واضحة جلية حين يعبر الطفل عن أنواع الحيوان والطيور . فقد يسمى كل طائر « دجاجة » وكل حيوان كبير حماراً أو حصاناً . ويتوقف مسلك الطفل إلى حد كبير على بيئته ، وتجاربه الأولى فيها .

وكذلك الناس فى حياتهم العادية يكتفون بأقل قدر ممكن من دقة الدلالات وتحديدها ، ويقنعون فى فهم الدلالات بالقدر التقريبي الذى يحقق هدفهم من الكلام والتخاطب ، ولا يكادون يحرصون على الدلالة الدقيقة المحددة التى تشبه المصطلح العلمى . وهم لذلك قد ينتقلون بالدلالة الخاصة إلى الدلالة العامة إيثاراً للتيسير على أنفسهم ، والتماساً لأيسر السبل فى خطابهم .

ويبدو أثر هذا واضحاً قوياً فى الصفات والنعوت حين تصطنع فى مجال أعم، فتصبح « الموسيقى » مثلا فى رأيهم « لذيذة » ، وحين « يتذوقها » السامع . وتلك هى الظاهرة التى جعلت للحية والسيف والعسل عشرات من الأسماء فى اللغة العربية .

ومن هذا التعميم أن « البأس » فى أصل معناها كانت خاصة بالحرب ، ثم أصبحت تطلق على كل شدة ، وأن الناس فى خطابهم الآن يطلقون كلمة « الورد » على كل زهر ، وكلمة « البحر » على النهر والبحر . ومن هذا التعميم أيضا تحويل الأعلام إلى صفات ، فالعلم « قيصر » قد يطلق ويراد منه العظيم الطاغية ، « ونيرون » الظالم أو المجنون ، « وحاتم » الكريم المضياف ، و « عرقوب » للمخادع القليل الوفاء .

ومثل هذا فى اللغات الأوربية كلمة « arrived » التى كانت تعنى الوصول

إلى شاطىء النهر ، وأصبحت الآن لمجرد الوصول ، وكلمة « Virtue » التي تعني الآن « الفضيلة » كانت في الأصل اللاتيني مقصورة على صفة الرجولة .

— ٣ —

انحطاط الدلالة

وكثيراً ما يصيب الدلالة بعض الانهيار أو الضعف ، فنراها تفقد شيئاً من أثرها في الأذهان ، أو تفقد مكانتها بين الألفاظ التي تنال من المجتمع الاحترام والتقدير . فهناك ألفاظ تبدأ حياتها بأن تعبر في قوة عن أمر شنيع أو فظيع ، حتى إذا طرقت الآذان فزع المرء لسماعها ، وأحس أنها أقوى ما يعبر عن تلك الحال ، ثم تمر الأيام وتشيع تلك الألفاظ ، ويكثر تداولها بين الناس ، وهم عادة مشغوفون في كلامهم بالإسراف والمغالاة ، فيستعملونها في مجال أضعف من مجالها الأول رغبة منهم في أن يحيطوا معانيهم بهالة من القوة لا مبرر لها في الحقيقة . وهنا تنهار القوة التي في الدلالة الأولى ، ويصبح اللفظ بعد شيوعه مألوفاً لا تخيف دلالته ولا تفزع لها النفوس . ففي اللغة الإنجليزية مثلا ثلاث كلمات في الوصف بالشناعة أو الفظاعة هي : Dreadful, Terrible, Horrible كانت إذا استعملت خلال القرن الثامن عشر أفزعت السامع ، وجعلته يشعر بما يشبه هول القيامة . ولم يكن الكتاب يتناولونها إلا حين يثور بركان ثورة عنيفة ، أو حين تزلزل الأرض زلزالا يخرب المدن ، ويذهب ضحيته آلاف من البشر ! ! ثم انهارت دلالة هذه الأوصاف وسمعناها على ألسنة الإنجليز يصفون بها الحدث التافه كسقوط فنجان من الشاي على السجادة ، أو اصطدام دراجة بالحائط ، ونحو هذا ! ؟

ويشبه هذا ما نسمعه في بعض لهجات الخطاب حين تستعمل كلمة « القتل والقتال » في الشجار حتى مع ضعف شأنه ونتائجه . وكذلك كلمة « الكرسي »

استعملت فى القرآن الكريم بمعنى « العرش » فى قوله تعالى « وسع كرسيه السماوات والأرض » ؛ غير أن هذه الكلمة أصبحت الآن تطلق على « كرسى » السفرة وكرسى المطبخ .

وكانت الكلمة الإنجليزية Astonish فيما مضى تعنى أصيب بصاعقة ، فأصبحت الآن وقد اقتصرت دلالتها على الدهشة والاستغراب . والوصف « لئيم » فى اللغة العربية كانت دلالاته فى الأساليب القديمة أقوى مما هى عليه فى ألسنة الناس الآن . ويقال فى كل هذا إن دلالة اللفظ قد أصابها الضعف بعد القوة .

وهناك ألفاظ أخرى تصيبها الخسة بعد الرفعة وتفقد الاحترام الذى كان لها فى المجتمع . وأكثر ما يكون هذا فى الألقاب الدنيوية كلفظ « أفندى » حين تقارن حالها فى أواخر القرن التاسع عشر بحالها فى منتصف القرن العشرين . وقد كان « الحاجب » فى الدولة الأندلسية بمثابة رئيس الوزراء ، ورأينا آنفاً ما أصاب كلمة « الوزير » العربية حين أصبحت فى الإسبانية لا تعنى أكثر من شرطى ، وفى الإيطالية « مساعد عشماوى » ! ! كما رأينا أن « طول اليد » قد وردت فى الحديث الشريف بمعنى السخاء والجود حين قالت للنبى نساؤه « أينا أسرع لحاقاً بك يا رسول الله ؟ » فقال صلعم : « أطولكن يدا » ! ! والكلمة كما هو معروف لنا جميعاً تستعمل الآن على الألسنة وفى لهجات الخطاب بمعنى السرقة .

وأخيرا يكفى أن نذكر ما أصاب الكلمات التى تعبر عن « المرحاض » فى الأجيال المختلفة من خسة فى الدلالات أدت إلى الاستبدال بها ألفاظاً أخرى فى أزمنة متعاقبة .

— ٤ —

رقى الدلالة

فكما قد تنحط الدلالة فى الألفاظ قد تقوى فى ألفاظ أخرى ، غير أن ضعف الدلالة أو انحطاطها أكثر ذيوعاً فى اللغات بوجه عام .

ويحدثنا فندريس[1] أن لفظ «مارشال» قد انحدر إلينا من «خادم الأسطبل» وأن لفظ Knight التى كانت تعبر فى فروسية القرون الوسطى عن مركز مرموق انحدرت إلى لغات أوربا من معنى أصلى هو « ولد خادم » .

وفى لغتنا العربية أتى على الكلمتين « ملاك ورسول » عهد كانتا فيه بمعنى الشخص الذى يرسله المرء فى مهمة مهما كان شأنها ، ثم تطورتا وأصبح لهما تلك الدلالة السامية التى نألفها الآن .

وكانت كلمة « السفرة » تعنى فى الأساليب القديمة طعام المسافر ، وهى الآن على ألسنة تجار الأثاث ذات شأن . بل حتى كلمة « العفش » التى لم تكن تفيد سوى « سقط المتاع » نسمعها الآن فى كثير من الأحيان تطلق على جهاز العروس ، وأثاثها الثمين الغالى ؛ وكذلك السيارة الفخمة يتواضع الناس الآن ويطلقون عليها لفظ « العربة » ! !

وحين نستعرض الاستعمال العربى القديم للفظى « السلطان والملك » لا نكاد نلمح فرقاً واضحاً بينهما ، فكان كل منهما يطلق على صاحب الولاية والحكم مهما صغر شأنه ، حتى كان القرن السابع الهجرى فأصبح كل من اللفظين لقباً عظيماً من ألقاب الحكام والولاة ، ووجدنا الحاكم يؤثر أن يلقب بلفظ «السلطان» ، ويستشعر معه عظمة الحكم أكثر من استشعاره مع لفظ «الملك»،

---

(1) Language, p 227,

رغم أن حكام المماليك والأيوبيين كانوا يلقبون بهما معاً ، فيقال مثلا « السلطان الملك فلان » ، غير أن لقب السلطان كان دائماً أسبق فى النصوص ، وأوضح فى الدلالة على عظمة الحاكم ، بل كان يقتصر عليه فى بعض الأحيان . ويقال إن أول من لقب بلقب « ملك » وزير من وزراء الفاطميين يسمى « رضوان » لقب بالملك الأفضل [١] . أما فى العصر الحديث فأصبح « الملك » لقبا أرقى ومركزا أسمى بين الحكام من لقب « السلطان » .

هذا ويروى لنا أن المراكز العلمية فى القرن السادس الهجرى قد استقرت على حال معينة ، فأصبحت محددة المعالم متدرجة الرتب فى سلسلة من الألفاظ التى اصطلح عليها [٢] وهى :

المعلم ، فالمؤدب ، فالمدرس ، فالمعيد ، فالشيخ ، فالأستاذ ، فالرحالة ، فالعالم ، فالإمام !!

ومن المرجح أن رواة هذه السلسلة من الألقاب العلمية قد أسرفوا بعض الإسراف ، فتلك مراحل كثيرة لا نظن أنها كانت كلها ملتزمة فى الترقى العلمى ، بل لا نظن أن « الرحالة » كان لقبا أرقى من الأستاذ ، ولعله كان من ألقاب بعض الأساتذة الذين اشتهروا بالتجول والأسفار . وعلى كل حال نلحظ هنا أن لقب المدرس أقل منزلة من « المعيد » ، وأن المعيد فى ذلك العصر كان يعادل عندنا الآن الأستاذ المساعد !!

---

(١) صبح الأعشى ج ٩ ص ٣٩٨ .

(٢) كتاب التربية عند العرب ص ٣٦ — ٥٣ : تأليف خليل طوطح — المطبعة التجارية بالقدس .

— ٥ —

تغير مجال الاستعمال

وذلك هو ما يسمى « بالمجاز » ، وقد تحدثنا عنه آنفاً ، ولم يبق إلا أن نشير إلى أن هذا النقل من مجال إلى آخر سواء كان عن عمد أو عن غير عمد ، له مبرراته ودوافعه التي تتلخص فى الأحوال الآتية :

(ا) توضيح الدلالة :

وجعل الصورة الذهنية من الجلاء والصقل بحيث لا تترك مجالا للوهم أو الشك . ويكون هذا عادة حين تنتقل الدلالة المجردة إلى مجال الدلالات المحسوسة الملموسة . وهى عملية أشبه بتحميض الصور الشمسية لتوضيح معالمها . فبعد أن كانت الدلالة لا تدرك إلا إدراكا عقلياً بعيداً عن الحواس أصبحت مما يرى ويسمع ويلمس ويشم ، وسهل على الأذهان القاصرة أن تفهم مدلولها ، وأن تبين حدودها ومعالمها ، بعد أن كانت مجرد فكرة عقلية قد يضل الذهن فى حدودها .

وتلك عملية تصويرية يلجأ إليها الأدباء ، والموهوبون من أهل الفن ، لتجلية الصورة الذهنية وصقلها أمام قرائهم ، والمطلعين على إنتاجهم الفنى . فالرسام والمصور حين يعبر لنا بريشته وألوانه عن بعض المعانى المجردة : كالحنان أو الحقد أو الصبر أو البخل أو الطموح ، يتخير لنا صوراً نراها ونكاد نلمسها ، ولا يزال يبرز من معالمها بحسن ألوانه حتى يصبح المجرد محسوساً ملموساً .

وكذلك الأديب أو الشاعر حين يريد أن يوضح سيطرة البخل أو الطموح على إنسان ما ، قد يلجأ إلى الدلالات المحسوسة يلتمس منها وسائل الإيضاح

والتجلية حتى يتم له ما يبغى من قوة التأثير فى عواطفنا ، والانفعال بنصوص أدبائه أو شعره . فالشاعر الذى أراد أن يصف لنا كيف قضى على « ضغن » أقربائه وحسدهم له فقال :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه بحلمى عنه وهو ليس له حلم

قد استعان على تجلية « الضغن » بصورة بشعة لحيوان له أظفار ومخالب مخيفة . تلك عملية فنية عاطفية أكثر منها عقلية ، وللشعور الفنى فيها كل الأثر ، وليس للعقل أو التفكير الفلسفى مساهمة تذكر فى مثل هذا النقل . فلا يكاد الفيلسوف يحاول فى تفكيره نقل الدلالة المجردة من مجالها إلى مجال المحسوسات . وكأنما قد أحس فى نفسه القدرة على فهم تلك الدلالات المجردة ، وتحديد معالمها دون الاستعانة بالملموس المحسوس .

وأوضح ما تكون تلك العملية فيما يسمى بالكنايات الأدبية كأن يكنى عن « الكرم » بكثرة الرماد ، وعن « التذلل » بإراقة ماء الوجه ... الخ .

فنقل الدلالة المجردة إلى المجال المحسوس مما يمهر فيه الأدباء والشعراء وأصحاب الخيال ، وهو كثير الورود فى الأدب العربى ، وهو الذى يستحق أن يسمى بالمجاز البلاغى .

(ب) رقى الحياة العقلية :

يجمع الباحثون (١) فى نشأة الدلالة على أنها بدأت بالمحسوسات ، ثم تطورت إلى الدلالات المجردة بتطور العقل الإنسانى ورقيه . فكلما ارتقى التفكير العقلى جنح إلى استخراج الدلالات المجردة وتوليدها والاعتماد عليها فى الاستعمال . وهنا نلحظ أن الدلالة تنتقل من مجال المحسوس إلى مجال الدلالات المجردة ،

---

(١) Language by Bloomfield. p. 429.

ويمكن تسمية هذه الظاهرة بالمجاز أيضاً ، ولكنها ليست ذلك المجاز البلاغى الذى يعمد إليه أهل الفن والأدب، فلا يكاد يثير دهشة أو غرابة فى ذهن السامع، فليس المراد منه إثارة العاطفة أو انفعال النفس ، بل هدفه الأساسى الاستعانة على التعبير عن العقليات والمعانى المجردة .

فهو لهذا يعد مرحلة تاريخية متميزة لتطور الدلالة عند الأمم ، فى حين أن المجاز البلاغى لا يتوقف وجوده أو شيوعه على تطور العصور التاريخية ، بل يتوقف على ما يشيع بين الناس من جنوح إلى العاطفة والخيال ، أو من حدة فى المزاج والانفعال النفسى فى عصر من العصور .

وانتقال الدلالة من المجال المحسوس إلى المجال المجرد يتم عادة فى صورة تدريجية ، وتظل الدلالتان سائدتين جنباً إلى جنب زمناما ، خلاله قد تستعمل الدلالة المحسوسة ، فلا تثير دهشة أو غرابة ، وتستعمل فى نفس الوقت الدلالة المجردة فلا يدهش لها أحد . وليست إحداها حينئذ بأحق وأولى بالأصالة من الأخرى ، حتى يمكن أن تعد إحدى الدلالتين مما يسمى بالحقيقة ، والأخرى مما يسمى بالمجاز ، إذ لا مجاز ولا حقيقة بينهما فى مثل هذه الحال .

ثم قد تنزوى الدلالة المحسوسة فى ركن صغير من أركان الدلالة الأصلية ، ونعثر عليها حينئذ فى بعض النصوص القديمة المتحجرة ، أو الأمثال فى صورة نفس اللفظ أو بعض مشتقاته . وقد تندثر الدلالة المحسوسة ، ويصعب حينئذ الاستدلال على أصلها .

فإذا عرفنا مثلا أن المعاجم العربية تنص على أن « الرطانة » هى الإبل مجتمعة ، وطبيعى أن يصدر عنها حينئذ أصوات مبهمة يشبه بعضها بعضاً ، ولا تكاد الآذان تميز منها لفظاً أوما يشبه اللفظ ، ولا جملة أو مايشبه الجملة، تصورنا لهذا أنه من الممكن أن تنتقل هذه الدلالة إلى التعبير عن كل كلام مبهم بلغة

أجنبية لا يستبين منه السامع شيئاً ، وأن تصبح « الرطانة » ذات دلالة جديدة مجردة هي على حسب ما جاء في قاموس الفيروزبادى : « الكلام بالأعجمية » .

وقد مرّ عهد على لفظة « الرطانة » كانت تستعمل فيه لهاتين الدلالتين ، وبنسبة تكاد تكون واحدة . ثم كان أن كثر شيوع الدلالة المجردة ولم نعد نرى « الرطانة » بالمعنى المحسوس ، أى الإبل مجتمعة مع رفاقها ، إلا كقطعة متحفية فى ثنايا المعاجم العربية القديمة .

وقولنا إن « الرطانة » بمعنى الكلام بالأعجمية قد انحدرت من « الرطانة » بمعنى الإبل مجتمعة ، لا يعدو أن يكون فرضاً ترجحه الصلة الملحوظة بين الدلالتين . وليس لدينا أدلة قاطعة على هذه الصلة تؤكد لنا هذا الفرض بما لا يدع مجالا للشك ؛ لأن تاريخ الألفاظ غامض ، والملابسات التاريخية فى تطور دلالاتها قد نسيت ، وأصبح من العسير الاستدلال عليها . فليست الألفاظ ملوكا أو حكاماً ليعنى الناس بتاريخها ، أو ليؤرخوا مراحل تطورها . ولهذا لا نغالى فنسلك مسلك الاشتقاقيين من الربط بين الدلالات لمجرد الاشتراك فى لفظ من الألفاظ . لأن الاشتراك فى اللفظ قد لا تكون له أية أصالة ، بل هو مجرد مصادفة نشأت عن التطور الصوتى فى إحدى الكلمات حتى أصبحت مماثلة لكلمة أخرى . فإذا قالت لنا المعاجم إن لكلمة « السفاهة » دلالتين هما :

(١) خفة الحلم أو الجهل . (٢) وصف للطعنة حين يسرع منها الدم ويجف ، فليس من الضرورى أن نربط بين الدلالتين ، وأن نجعل إحداهما أصلا والآخر فرعا له . فمن الممكن أن « السفاهة » التى هى وصف معين للطعنة كانت لها صورة أخرى تختلف فى حرف أو أكثر ، وأنها تطورت صوتيا لسبب ما ، فأخذت هذه الصورة التى تصادف أن ماثلت كلمة « السفاهة » بمعنى الحمق . فمن يدرى لعله كان فى قديم الزمان كلمتان مختلفتان فى البنية والمعنى هما : السفاهة بمعنى الحمق ، و « الزباهة » بمعنى الطعنة التى يجف دمها ، ثم تطورت « الزباهة » صوتيا ،

وأصبح لها صورة جديدة هى « السفاهة » ، فـكان الربط بين الدلالتين من أجل هذا التطور الصوتى .

وتبدو مغالاة الاشتقاقيين حين يربطون بين الدلالات، لمجرد الاشتراك فى الحروف الأصلية ، أو المادة الأصلية للاشتقاق . فعندهم مثلا أن « إبليس» مشتق من « أبلس » ، و « جهنم » مشتقة من « التجهم » ! ! وعندهم كذلك أن « الخيل» من الخيلاء ، وأن رحم المرأة من الرحمة .

أما المحدثون من اللغويين فيلتزمون موقفاً معتدلا فى الربط بين الدلالات حين يكون الاشتراك فى الصورة غير تام ، فيقولون مثلا : إذا كان لابد من الربط بين « الخيل والخيلاء » فمن الواجب اعتبار كلمة « الخيل » هى الأصل ، وأن دلالتها المحسوسة هى التى ولدت لنا بعد ذلك دلالة مجردة فى صورة « الخيلاء »، و كذلك الواجب اعتبار كلمة « الرحم » هى الأصل وأن دلالته المحسوسة قـد تطورت إلى دلالة مجردة هى ما نألفه فى كلمة « الرحمة ».

ومع أن المحدثين ينادون بوجوب الحيطة والحذر والاعتدال فى الربط بين الدلالات ، لا يشكون فى أن كثيراً جداً من الألفاظ التى تعبر عن دلالات مجردة قد انحدرت إلينا من دلالات محسوسة ؛ ويكفى أن نستعرض ما جاء فى المعاجم العربية من كلمات مثل [الحقد ، المدح ، القلق ، النفاق ، الشجاعة ، الـكره ، الضغينة ، المداهنة ، الشؤم ، التفاؤل ، الذكاء ؛ الأفن ، المجد] .

ليتضح لنا أن بعضها إن لم يكن كلها قد انحدرت عن دلالات محسوسة :

الحقد : حقد المطر احتبس ، وحقدت الناقة امتلأت شحما !

المدح : مدحت الأرض والخاصرة اتسعتا !

القلق : الحركة والاضطراب ، ومن هنا جاء الانزعاج !

النفاق : قالوا إنه من نافقاء اليربوع !!

الشجاعة : الأشجع هو الأسد ، والشَّجع هو الطول !

الكره : الكريهة الأرض الغليظة الصلبة أو الحرب !

الضغينة : ضغن الجمل إبطه ؟ فهل كان حقدهم تحت آباطهم ؟ !

المداهنة : هل تمتّ المداهنة بمعنى النفاق إلى « الدهن » بصلة مَّا ؟

الشؤم : ضد اليمن ، والسود من الإبل ، فهل هو شؤم لأنه يتصل بناحية اليسار المشئومة لدى العرب ، أو لسواد لونه كالإبل السوداء ؟ !

التفاؤل : الفئال ككتاب لعبة الصبيان يخبئون الشيء فى التراب ، ثم يقتسمونه ويقولون فى أيها هو ؟

الذكاء : ذكت النار اشتد لهبها !

الأَفن : قلة اللبن ، فهل منه جاء الأفن بمعنى السفه ؟ !

الحسد : من معانيه امتلاء بطن الدابة من العلف .

* * *

وليس النقل بين الدلالات مقصوراً على ما تقدم من نقل الدلالة المجردة إلى مجال المحسوسات أو العكس ، بل قد يتم بين المحسوسات بعضها مع بعض لصلة بين الدلالتين فى المكانية أو الزمانية ، أو اشتراك فى جزء كبير من الدلالة ، فهناك ألفاظ كثيرة لوحظ تطورها فى الدلالة ؛ فانتقل كل منها من دلالته إلى دلالة أخرى تشترك معها فى المكان مثل « الذقن » حين تستعمل فى خطاب الناس بمعنى « اللحية » ، ومثل « الشنب » حين يطلقونه على الشارب مع أنه بريق الأسنان ، ومثل «السماء» التى تروى المعاجم أن من معانيها السحاب والمطر .

أو تشترك معها فى الزمان مثل « الشتاء » بمعنى المطر فى خطاب المصريين وكلامهم . كذلك حين نطلع على ما ورد فى قاموس الفيروزبادى من حديثه عن

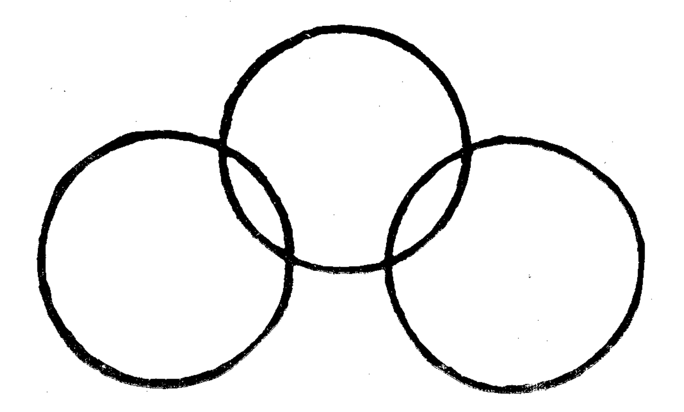
كلمة « العشاء » نرى أنه لم يكد يحدده بوقت معين ، ونشعر من النص القاموسى أن « العشاء » قد تأرجحت دلالتها بين ثلاثة أزمنة متصلة من اليوم إذ يقول : [إن العشاء أول الظلام ، أو المغرب إلى العتمة ، أو من زوال الشمس إلى طلوع الفجر] . فلعل « العشاء » فى الأصل كانت مخصصة لزمن من هذه الأزمنة ، ثم انتقلت دلالتها فى بيئات عربيـــة مختلفة إلى الزمنين الآخرين للتقارب فى الناحية الزمانية .

أو تشترك الدلالتان فى بعض المعنى مثل « النبيل » حين يستعمل بمعنى « الشريف » أو العكس ، رغم أن « النبل » هو « النجابة » ، والشرف هو « العلو » .

ومثل « النبيه » حين يستعمل فى خطاب الناس بمعنى « الذكى » رغم أن النباهة هى الشهرة ؛ وكذلك حين يستعملون « الشجرة » مكان « النخلة » أو العــكس ؛ وحين يستعملون « الطير » بمعنى « الدبان » .

والألفاظ التى تشترك فى بعض المعنى ، تشبه عادة بالدوائر المتقاطعة التى تشترك فى أجزاء متفاوتة من سطوحها ، والتى يحملها الاستعمال فى دوران مستمر على الألسنة . وهى فى دورانها وحركتها قد يتصادف أن إحداها تنطبق على أخرى تمام الانطباق ، ويصبح للدلالة الواحدة لفظان ، أو بعبارة أخرى يقــال حينئذ إن إحدى الـكلمات قد انتقلت من مجالها إلى مجال آخر ، واتخذت دلالة جديدة تمت للدلالة السابقة ببعض الصلة .

وأوضح ما تـكون هذه الظاهرة فى الصفات والنعوت التى تتضمن عادة دلالات مجردة غير واضحه المعالم والحدود فى أذهان كثير من الناس .



وكان العربى يعبر عن الشيء الفريد الذى لا نظير له بـكلمة « اليتيم » . ويعبر عن « الأزرق » بـكلمة الأخضر فيقول فى وصف الأمواج : « متى لجج خضر لهن نئيج » ، ويعبر عن العيون الخضر بالعيون الزرق .

ولذلك جاءتنا معظم الـكلمات التى قيل عنها إنها مترادفة فى صورة صفات ونعوت . فإذا قال صاحب جواهر الألفاظ إن [الدنىء . اللئيم . الخسيس . الزنيم . المهين . الوغ . الوضيع . الضعيف . الخامل . الساقط . الرذل . النذل](١) كلها بمعنى واحد تصورنا أنها كلمات تشترك فى جزء كبير من المعنى ، وإن تفاوت هذا الجزء الذى تشترك فيه . وهى لهذا تشبه الدوائر المتقاطعة التى يحركها الاستعمال فى دوران مستمر ، حتى يتصادف أن تنطبق إحداها على أخرى تمـام الانطباق ، وهنا يكون الترادف الحقيقى بمعناه العلمى الدقيق .

علينا إذن فى الحديث عن نقل الدلالة من مجال إلى آخر أن نتذكر كل ما تقدم ، وأن نتذكر معه ذلك النقل المتعمد الذى تتطلبه مستحدثات الحياة من منشآت ومخترعات جديدة كنقل [السيارة والقاطرة والقطار] من مجالها القديم إلى مجال حدبث دعت إليه الحضارة ومستلزماتها .

---

(١) جواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر ص ٣٨ .

الفصل العاشر

دور الدلالة في الترجمة

عرض كثير من الباحثين لمشكلة الترجمة وقصورها عن تصوير كل مايتضمنه النص المترجم من أفكار وأخيلة وجمال لفظى . وأحس القائمون بعملية الترجمة فى كل عصور التاريخ بتلك الصعوبات التى تصادفهم ، ووقفوا على بعض أسرارها ، ولكنهم مع هذا لم ينصرفوا عن الترجمة ، بل ظلوا يتابعون جهودهم جيلا بعد جيل وعصراً بعد عصر ، فيوفقون حيناً ويخفقون أحياناً . ذلك لأن الأمم والشعوب قد رأت منذ القدم حاجتها الملحة فى اتصال بعضها ببعض ، وفى تبادل الثقافة كما تتبادل السلع . ثم تبين للمفكرين فى الأمم أن تبادل الثقافة يحول دونه حصون منيعة فصلت بين بنى الإنسان ، وتلك هى التى نسميها باللغات . فأداة التفكير تختلف من أمة إلى أخرى ، وقد تتسع مسافة الخلف حتى ليخيل إلينا أن الاتصال عسير أو مستحيل ، وقد تقرب فيراها الباحث هينة يسيرة .

وقد استطاع دارسو اللغات البشرية ، أن يقسموها لنا فى صورة فصائل أو أسر ، وتتضمن كل فصيلة ، عدداً من اللغات التى تنتمى إلى أرومة واحدة وأصل واحد ، ولذا تشابهت فى كثير من عناصرها ، فأمكنت الرحلة بين فروعها دون عناء كبير . . أما حين كانت الرحلة بين لغة من فصيلة ، وأخرى من غير فصيلتها فقد كان العنت والمشقة .

وأولئك الذين حاولوا التطلع إلى ما وراء تلك الحصون التى ندعوها باللغات نفر قليل من الناس فى كل أمة ، بل فى كل عصر . وهم الذين قربوا بين

الشعوب ، ووصلوا الإنسان بأخيه الإنسان ، رغبة فى تبادل المنافع والمعارف ، عسى أن يتكون من الناس جميعاً مجتمع إنسانى يسوده التعاون والتفاهم .

وقد عرف أصحاب المدنيات البشرية القديمة شدة حاجتهم إلى الترجمة ولمسوا معها صعوبة الانتقال بأفكار الصين وحكمتهم إلى بيئة اليونان ، أو إلى بيئة المصريين القدماء . ذلك لأن اللغة الصينية واليونانية والمصرية القديمة تنتمى إلى فصائل لغوية متباينة.

وجاء العرب فحاولوا نقل فلسفة اليونان وعلومهم إلى اللغة العربية فصادفوا المشقة والعسر ، ولم يحقق النجاح منهم إلا القليل ، لأن أكثر المترجمين فى العصر العربى نقلوا آثار اليونان عن السريانية لا عن لغتها الأصلية ، مما جعل السيرافى يتشكك فى صحة هذا النقل ، ويثير تلك المحاورة الطريفة(١) التى كانت بينه وبين « يونس بن متى » فى حضرة الوزير ابن الفرات المتوفى سنة ٣٢٠ هـ .

فالسيرافى أحد علماء العربية فى القرن الثالث الهجرى ، وممن عاصروا المترجمين الذين اضطلعوا بنقل علوم اليونان وفلسفتهم . ونلحظ فى تلك المناظرة التى سجلها أبو حيان التوحيدى فى رسالته ثورة السيرافى على ترجمة « يونس بن متى » وشكه فى صحتها ، فهو يتحفظ فى الترجمة عامة ويخاطب يونس بقوله [على أن هناك سراً ما علق بك ولا أسفر لعقلك ، وهو أن تعلم أن لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها ، فى أسمائها وأفعالها ، وصروفها وتأليفها ، وتقديمها وتأخيرها واستعارتها وتحقيقها ... إلخ] وهكذا نرى أن مشاكل الترجمة كانت موضع مدارسة ومناظرة بين القدماء كما هى بين المحدثين . وقد زادها دراسة وتفصيلا عبد القاهر الجرجانى منذ مايقرب من تسعة قرون فى كتابه « أسرار البلاغة(٢) » ، وخرج على الناس بنظريته فى

---

(١) المقابسات لأبى حيان التوحيدى ص ٧١ .
(٢) أسرار البلاغة ص ٢٣ .

الترجمة التى يحدثنا فيها عن أن العرب تعرف أجزاء الجسم فى الإنسان والحيوان معرفة تامة ، وقد وضعت لكل جزء منها لفظاً خاصا ، فالشفة فى الإنسان هى « المشفر » للبعير « والجحفلة » للفرس . وهذه فروق ربما وجدت فى غير لغة العرب وربما لم توجد . ويرى عبدالقاهر أن بعضاً من الشعراء والرجاز قد استعملوا بعض هذه الألفاظ مكان البعض الآخر ، وأحلوا لفظة منها محل لفظة أخرى ، متأثرين بالإنشاد والانفعال ، دون أن يهدف عملهم هذا إلى نكتة بلاغية ، أو زيادة فى تصوير . فقد استعمل العجاج كلمة « المرسن » وهى للبعير ووصف بها « أنف المرأة » فى قوله [وفاحما ومرسنا مسرجا] ، واستعمل شاعر آخر كلمة « الجحفل » التى تعنى شفة الفرس فى وصف ناقته بأن للماء صوتاً مسموعا عند نزوله ما بين مشفرها وبين وريديها كأنه صوت مبرد الحداد فقال :

تسمع للماء كصوت المسحل بين وريديها وبين الجحفل

ووصف ثالث « صغار الإبل » بأنها « حفان » وهذه خاصة بصغار النعام ، وأطلق رابع كلمة « الشفة » الخاصة بالإنسان على « جحفلة » الفرس . ويعتبر عبد القاهر مثل هذه الاستعمالات من الاستعارات غير المفيدة التى لا تعدو أن تكون توسعاً فى اللغة ، وليس من الضرورى أن يكون فى غير لغة العرب ، بل هو خاصة من خواص اللغة العربية ، ولا يصح أن تنقل كما هى فى لغة أخرى . فالفارسى مثلا إذا أراد أن يترجم إلى لغته نصاً من النصوص السابقة وجب أن ينقله بالمعنى ؛ أى بالكلمة العامة التى تدل على « الشفة » لا بالكلمة الخاصة التى تدل على نوع الحيوان .

أما الاستعارة المفيدة كأن تصف رجلا بأنه « أسد » ، أو طائرة بأنها « عقاب أو نسر » كما فى قول شوقى :

أعقاب فى عنان الجو لاح أم سحاب فرّ من هوج الرياح

فهنا يرى « عبدالقاهر » وجوب النقل باللفظ ومراعاة الاستعارة . فهو يرى فى نقل الاستعارة غير المفيدة بلفظها مجالا للسخرية والضحك فى حين أنه يرى أن نقل الاستعارة المفيدة بمعناها حرماناً من نكتة بلاغية . ويعبر عن هذا بقوله [فعرف اللغة وطرقها الخاصة يترجم بالمعنى ، أما هذه الاستعارة المفيدة والتشبيه المفيد والكناية المفيدة فتنقل كما هى من لغتها المترجم منها إلى اللغة المترجم إليها ، نقلا لفظياً على طريق الاستعارة أو التشبيه أو المجاز ، وإلا فقدت جمالها وبلاغتها] .

فعبد القاهر الجرجانى وهو فارسى الأصل وعلى علم باللغتين العربية والفارسية ولعله مارس الترجمة بين اللغتين فاتضحت له تلك المشاكل التى تصادف المترجمين ، يحاول أن يضع لنا نهجاً عاماً يلتزمه المترجم ولا يحيد عنه .

وفى الحديث عن مشاكل الترجمة لا يصح أن نقحم ضعف المترجم فى اللغة التى يترجم منها أو التى يترجم إليها ، إذ لا يسمى المترجم مترجماً حقاً إلا حين يسيطر على اللغتين كتابة وقراءة . كذلك يجدر بنا أن نفترض إخلاص المترجم فى عمله وحسن نيته ، وأنه حين أخرج النص المترجم قد بذل الجهد وتحرى الصواب ، ولم يكن متأثراً بمذهب خاص يصبغ ترجمته بصبغة خاصة ، أى أن للترجمة مشاكل وصعوبات حتى مع إتقان المترجم للغتين ، وأمانته وإخلاصه فى عمله .

ومن تلك الصعوبات ما نسميه بهندسة الجملة . فاللغات تختلف فى النظام الذى تخضع له الجمل فى تركيب كلماتها ، وعلاقة كل كلمة بالأخرى ، فللفعل مكان خاص من الجملة ، وللفاعل مكان آخر ، وللمفعول مكان ثالث وهكذا .

وقد يضطر المترجم إلى التقديم أو التأخير ؛ وإلى عملية تنظيمية خاصة حتى تبدو ترجمته جارية على المنهج المألوف فى اللغة المترجم إليها .

كذلك من صعوبات الترجمة كل ما يتعلق بجمال الألفاظ وموسيقاها . فقد يؤثر الكاتب لفظاً على آخر لا لشيء سوى أن اللفظ له رنة رتيبة فى أذن الكاتب والسامع ، أو لأنه ينسجم مع ما سبقه من ألفاظ أو ما يليه منها ، فتتكون من عباراته وجمله سلسلة من الأصوات اللغوية المنسجمة التى لا تنبو فى الآذان والأسماع . وتلك هى الصفة التى نفتقدها فى كل ترجمة ، ولا سيما فى ترجمة الألفاظ العربية .

فاللغة العربية من اللغات التى عنيت بموسيقى ألفاظها وعباراتها فى كل العصور . فلها مما يسمى بالمحسنات اللفظية فنون وفنون ، تعرض لها المطولات من كتب البلاغة العربية ، وتسوق لها شواهد كثيرة من النظم والنثر . وبلغ تفنن الكتاب والشعراء والخطباء فى تلك العناية اللفظية أن وضع لها المتأخرون من دارسى البلاغة قواعد ونظما أوشكت أن تصبح علما مستقلا من علوم اللغة العربية هو ما يطلق عليه « البديع » . ومن أشهر فنون البديع مايسمى بالجناس كقول رجل للمأمون يتظلم من عامل له[1] : [يا أمير المؤمنين ماترك لى فضة إلا فضها ، ولا ذهبا إلا ذهب به ، ولا غلة إلا غلها ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا عرضا إلا عرض له ، ولا ماشية إلا امتشها ، ولا جليلا إلا أجلاه] . ويقال إن المأمون قد عجب من فصاحته وقضى حاجته !

فكيف السبيل إلى ترجمة مثل هذا الكلام وهو كثير فى اللغة العربية ، وأى موقف يمكن أن يلتزمه المترجم حين تعرض له تلك المحسنات اللفظية التى قصدها الأدباء ، وعمدوا إليها لتزيين آدابهم ، وجعلها تتصف بالروعة والجمال ؟

وليس يعنينا هنا على كل حال البحث فى هاتين المشكلتين ، مشكلة هندسة الجمل ، ومشكلة الجمال اللفظى ، وإنما الذى نهدف إليه من هذا الفصل هو تلك المشكلة الكبرى فى الترجمة ، وهى التى تتصل بدلالة الكلمات وحدود معانيها بين لغة وأخرى .

---

(١) زهر الآداب جـ ٢ ص ٢٠٨ .

ذلك لأن الكلمات تكتسب دلالتها فى كل لغة بعد تجارب كثيرة من الأحداث الاجتماعية التى يمر بها المرء ، وترتبط الكلمة فى ذهن كل منا بتلك الأحداث ارتباطاً وثيقاً ، فتتلون دلالتها بها ، وتظلل تلك الدلالة بالتجارب الخاصة للإنسان فى حياته . وهى لدى فرد من البيئة الاجتماعية توحى بظلال من الدلالة قد لا تخطر فى ذهن آخر من نفس البيئة . لأن تجاربهما مع الكلمة مختلفة ، ونظرة كل منهما لها متباينة ، تبعاً لتلك الأحداث التى ارتبطت بها فى حياتهما . غير أن هناك قدراً مشتركا لدلالة الكلمات فى كل بيئة ، هو الذى على أساسه يكون التعامل بالكلمات ، وعلى مستواه يكون التفاهم بين الأفراد .

فإذا تغربت الكلمة وخرجت من بيئتها الاجتماعية إلى بيئة أخرى ، أى إلى لغة أخرى ، احتاج المترجم إلى جهد للحصول على ما يناظرها أو يرادفها فى دلالتها ، لتؤدى فى ذهن السامع الجديد فى البيئة الجديدة نفس الدلالة ، أو ما يقرب منها فى بيئتها الأصلية . وهنا يمكن أن يقال إن المترجم قد وفق فى مهمته ، وأعطى صورة صحيحة لدلالة الكلمة .

وعلى قدر شيوع الكلمة فى البيئة الاجتماعية ، وعلى قد ما تمر به من تجارب فى الأحداث الدنيوية ، تكتسب تلك الظلال الدلالية ، وتترامى حدودها ، وتتضح صورتها فى الأذهان ، ويقال عن الكلمة حينئذ إن دلالتها واضحة قوية لا غموض فيها ولا إبهام ، فلا تكاد الأذن تتلقفها حتى يخطر فى الذهن لها صورة بارزة المعالم والحدود ، تضطرب لها النفوس ، وتنفعل العواطف. وهذا هو السر فى أن بعض الكلمات ذات الدلالات المنفردة يتحايل عليها الناس فى كل بيئة باصطناع ألفاظ قليلة الشيوع أو ألفاظ أجنبية عن اللغة ، رغبة فى أن تصبح الصورة مغطاة بستار رقيق يخفى شيئاً من معالمها ، ويقلل من وضوحها ، فلا تخدش الحياء ، ولا تبعث على النفور والاشمئزاز . وتتضح هذه

الظاهرة فى الكلمات المعبرة عن أعضاء التناسل ، والعملية الجنسية وألفاظ الموت والأمراض والكوارث وغيرها ؛ مما يكنى عنه بألفاظ أخرى بعد زمن معين .

ودلالة الكلمات فى مجال الأفكار وفى النشاط العلمى تلتزم عادة حدوداً لا تكاد تتعداها ، فهى بين أصحاب الفكر وذوى الثقافات المتشابهة ، متماثلة أو متقاربة فى دلالاتها ، ولا سيما حين تعرض تلك الكلمات لظواهر الطبيعة والأحوال الكونية فى العالم . ولذا يقال دائماً إن ترجمة العلوم أيسر وأسهل ، لأن دلالة الألفاظ فيها محدودة مضبوطة ، وليست محل جدل أو نزاع فى غالب الأحيان . فأهم ما يعنى به صاحب العلم هو الفكرة والنظرة الموضوعية ، دون تأثر بشعور فردى أو بعاطفة شخصية .

أما فى ترجمة النصوص الأدبية فالمشكلة أشد عسراً ، وأصعب منالا . ذلك لأن الآداب تعتمد على التصوير والعاطفة ، والتأثير والانفعال ، إلى جانب ما يمكن أن تشتمل عليه من أفكار . ولا يكون الأدب أدبا إلا بخروج الكلمات عن دلالتها اللغوية ، وشحنها بفيض من الصور والأخيلة . ومترجم الأدب لا يقنع عادة إلا بترجمة أدبية تبرز نواحى الجمال فى النص المترجم كى يتذوق القارىء أكبر قدر ممكن من جمال النص الأصلى ، ويقف على عناصر المهارة فيه .

وليست ترجمة الآداب بمستحيلة أو فوق طاقة البشر ، غير أنها تحتاج إلى الجهد والمثابرة ، وتتوقف إلى حد كبير على السيطرة والقوة فى اللغتين . وقد عبر أحد الدارسين من المحدثين عن هذا بقوله [إن لغة كل أمة وبخاصة اللغة الأدبية متحملة بعواطف خاصة قد لا تدركها الألفاظ ، ولكن يدركها الأديب وحده . وكثيراً ما نقف أمام نص من النصوص وقفة المتردد الذى يتمنى لو أنه رأى الأديب فيسأله عما أراد بهذا النص ، ويودّ أن لو كان حياً ليسأله عما يريد ،

بل هو يرجع بذهنه مستعرضاً ظروف الأديب ، نافخاً فيه الحياة من جديد ليسأله عما يريد ! ذلك أن من المعانى ما لايزال فى بطن الشاعر كما يقولون ، لا نعثر عليه إلا بالجهد ، وإلا بعد أن نتعرف على قاموسه ونفسيته ، ومقدار احترامه لمدلولات الألفاظ ، ومقدار جرأته فى الخروج عليها[١]] .

فإذا كان هذا هو الشأن فى النصوص الأدبية التى هى من خلق الشعراء والكتاب ، وهم ليسوا إلا طبقة موهوبة من الناس والبشر ، فماذا يكون موقف المترجم إزاء النصوص الدينية المقدسة التى لا يقف أثرها عند عاطفة عابرة ، أو انفعال وقتى ، بل هى تسيطر على العقول والقلوب . وتحاط تلك النصوص الدينية عادة بهالة من القداسة والطهر تسمو بها فوق مستوى الإنسان .

من أجل هـذا لم يكن من الغريب أن يتحرج أمهر المترجين فى نقل هذه النصوص المقدسة إلى لغـة أخرى ، لا عن تزمت أو تأثم تدفعهم إليه العاطفة الدينية وحدها ، بل لأنهم رأوها من الآداب فى الذروة العليا إذا تسامت ، فخشوا أن يزيفوها ، أو يخلطوا فى تراكيبها ووصلات أجزائها .

وظل هذا الشعور يلازم الكتاب فى كل العصور حتى أيامنا هذه . إذ يرى جمهور المفكرين فى كل زمان أن نقل تلك النصوص الدينية أشبه بنقل الزهرة من منبتها قد يعرضها للجفاف ونضب العبير ، وأنه من واجب القارىء أن يتعرف على النص الدينى فى بيئته ، فمن العسير أن يتذوقه فى غير لغته كتذوق أصحاب اللغة له ، فهو من السمو والإعجاز بحيث إذا شاء أراك المعانى اللطيفة التى هى من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون . وإن شاء لطف الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها الظنون[٢] »

(١) تيارات أدبية بين الشرق والغرب . للدكتور إبراهيم سلامة ص ٣٧ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ٣٣ .

ولنا فى قصة الترجمة السبعينية للعهد القديم مثل طيب يريفا كيف اختلفت الآراء فى ترجمة النصوص الدينية للتوراة وكتب الأنبياء .

وأول ذكر لهـذه الترجمة ما ورد فى كتابات أحد أحبار اليهود فى القرن الثانى قبل الميلاد ، ثم شاع أمر هذه الترجمة بين اليهود أولا ، ثم بين المسيحيين بعد ذلك . وقد اضطربت الروايات التاريخية بعض الاضطراب فى شأن هـذه الترجمة ، وحيكت حولها بعض القصص والأسـاطير . وأشهر تلك الروايات وأكثرها ذيوعا ، تلك التى تحدثنا عن أن أحد البطالسة حـكام مصر فى القرن الثالث قبل الميلاد أراد تأسيس مكتبة الاسكندرية ومدها بنفائس الـكتب فى العالم . فنصحه بعض خلصائه باستدعاء نفر من أحبار اليهود فى فلسطين ليقوموا بترجمة العهد القديم من العبرانية إلى اليونانية . وكانت اليونانية حينئذ لغـة الـكتابة والعلم ، فطلب من الرئيس الدينى لليهود فى فلسطين أن يأذن بقدوم اثنين وسبعين حبرا من أحبار اليهود إلى الاسكندرية ليضطلعوا بهـذا الشأن الخطير ، على أن يكون كل ستة منهم من قبيلة من قبائل اليهود الأثنى عشرة . فلما قدموا ومعهم نسخة معتمدة للعهد القديم بلغته الأصلية ، أكرم بطليموس وفادتهم وأقام لهم الولائم والاحتفالات ، ثم أمر بوضعهم فى جزيرة لينقطعوا لتلك الترجمة وليتـكون منهم ما يشبه المؤتمر الدينى . وكان أن أتموا الترجمة فى نحو سبعين يوما كما تقول الرواية .

ويرى بعض النقاد أنه بالرجوع إلى نصوص الترجمة اليونانية ، والبحث فيها تتضح معالم وإشارات تـبرهن على أن الذين قاموا بالترجمة لم يكونوا من يهود فلسطين ، وإنما كانوا من يهود الاسكندرية . وقد كان بالاسكندرية حينئذ جالية يهودية كبيرة ، ولعلهم رأوا القيام بهذه الترجمة لتيسير العبادة وأداء الشعائر الدينية على أبناء الطائفة فى لغة البيئة الجديدة ، وهى أيضاً أشهر لغة علمية فى ذلك الزمن . ذلك لأن يهود فلسطين حينئذ لم يكونوا على اتصال

وثيق باللغة اليونانية ، ومن المشكوك فيه أن يكون بينهم ذلك العدد الوفير من العارفين بها والمسيطرين عليها ليستطيعوا القيام بمثل هذه الترجمة . غير أن هذا النقد نفسه يمكن أن يوجه إلى يهود الإسكندرية الذين لم يعيشوا فى كنف البطالسة قبل هذه الترجمة أكثر من ٣٥ عاما ، وتلك مدة قصيرة لا تكفى لإتقان لغة من اللغات فى جيل من الأجيال، إتقانا يسمح لبعض أهله بإتمام مثل هذه الترجمة. فإذا أضيف إلى ذلك، أنه لم يعرف عن اليهود أنهم يتحمسون إلى ترجمة نصوصهم الدينية من العبرانية إلى لغات البيئات التى ينزحون إليها ، رأينا أن فكرة قيام اليهود فى الإسكندرية بهذه الترجمة يعتورها بعض الضعف ، ولا تكاد تجد ما يقويها أو يؤيدها .

وأياً ما كان الشأن فى أصل المترجمين وبيئتهم ، فقد تمت الترجمة السبعينية قبل الميلاد بزمن طويل ، وثبت وجودها وتداولها بين اليهود قبل المسيحية ، كما ثبت انتشارها من الإسكندرية ، وانتقالها إلى البيئات الأخرى التى عاش بها اليهود . بل تعدّ هذه الترجمة أقدم مصدر لنصوص العهد القديم ، فليس بين أيدينا الآن نسخة عبرية تعادلها فى القدم أو تقرب منها ، رغم أن العبرانية هى اللغة الأصلية للعهد القديم .

ويرى فريق من النقاد والباحثين أن أقسام الترجمة السبعينية غير متكافئة ، وأن بعضها جيد غاية الجودة، فى حين أن بعضها الآخر لم يصل إلى نفس المستوى ، مما يدل فى رأيهم ، على تعدد القائمين بالترجمة ، واختلاف قدرتهم عليها .

وجاءت المسيحية فوجدت الترجمة السبعينية مشهورة متداولة بين اليهود ، واعتمد عليها كتاب الأناجيل من الحواريين اعتماداً كبيراً ، فلم يرجعوا إلى النص العبرانى إلا فى النادر من الأحيان .

ولم تكد المسيحية تثبت أقدامها فى أنحاء كثيرة من العالم حتى وجدنا اليهود يتنكرون لهذه الترجمة السبعينية ، ويحاولون تجريحها والانتقاص من

قدرها ، ولا سيما فى تلك المواضع التى يشتم منها التنبؤ أو الإرهاص بقدوم المسيح .

ورغم أن الترجمة السبعينية قد بلغت بين المسيحيين حد القداسة فى القرون الأولى للمسيحية ، وجدنا بعض الكتاب والنقاد يحاولون إصلاحها وتعديل بعض نصوصها ، ثم إخراجها إلى الناس فى ثوب جديد . وكان لهذا أن تمت ثلاث تراجم جديدة للعهد القديم باللغة اليونانية خلال القرن الثانى بعد الميلاد : —

(ا) أولاها ترجمة عالم يهودى يدعى « أقويلا » (Apuila) فى سنة ١٣٦ ميلادية . وهى ترجمة حرفية ، التزم فيها صاحبها التمسك بظاهر النصوص العبرية وصيغها ، وكان يهدف من ترجمته ألا يترك حجة للمسيحيين يعتمدون عليها فى فكرة الإرهاص بمولد المسيح فى نصوص العهد القديم .

(ب) سيماخوس Symmachus وهو كما وصفه النقاد نصف مسيحى . وكان من الأدباء المسيطرين على زمام اللغة اليونانية ، فجاءت ترجمته أدبية سامية فى أسلوبها ، رائعة فى تخير ألفاظها ؛ وإن ضحت ببعض معالم النص العبرى .

(ح) ثيودوشن Theodotion . وهو أيضاً نصف مسيحى . وقد اتخذ لنفسه مسلكا وسطاً بين الترجمتين السابقتين ، فكانت ترجمته مما لا يوصف بالحرفية الخالصة ، أو يعد من الترجمات الأدبية التى يطغى فيها الذوق الشخصى للمترجم على النصوص المترجمة .

ثم ظهرت بعد هذا عدة ترجمات أخرى أشهرها ترجمة « أوريجين » (Origen) الذى أعاد الترجمة بعد أن تبينت له عدة فروق بين النص اليونانى والنص العبرى ، فأصلح الأخطاء وأعاد المحذوف ، وأخرج للناس نسخته وقد قسمت إلى أعمدة عرض فيها التراجم السابقة كما عرض فيها النص العبرانى الأصلى ، حتى تكون وافية بالمقارنة ، فيستنير بها الباحث الدارس .

وآخر ترجمتين للعهد القديم باللغة اليونانية ، كانتا فى القرن الرابع الميلادى ، فيها اتبعت نفس الطريقة التى اتبعها « أوريجين » . وهاتان الترجمتان كانتا أكثر تداولا واعتماداً فى الكنيسة الشرقية . ثم لم تكن هناك محاولة أخرى لترجمة يونانية بعد القرن الرابع الميلادى .

وهكذا نرى أنه رغم أن المسيحيين فى كل العصور قد نظروا إلى الترجمة السبعينية نظرة تكاد تبلغ حد القداسة ، ورغم أن كل الترجمات الحديثة إلى اللغات الأوربية قد أسست على تلك الترجمة اليونانية ، وجدنا عدداً من الكتاب يعيدون المحاولة ، ولا يقنعون بما جاء فى الترجمة السبعينية ، فيستبدلون بألفاظها أخرى ، لأن تجاربهم مع الألفاظ ودلالاتها متباينة ، وشعورهم إزاءها مختلف ، هذا يؤثر لفظا بعينه ويأبى استعمال غيره ، وذلك يتخير لفظا آخر ويتمسك به ، وكلهم مخلص أمين فى عمله ، حريص على إتقانه ، وكلهم يفهمون النصوص الأصلية ويحاولون جهدهم تصويرها والتعبير عنها .

وكذلك يمكن القول فى الترجمات القرآنية ، إلى اللاتينية ، والفرنسية ، والإنجليزية ، فقد تعددت تلك الترجمات ، واختلفت فى كثير من ألفاظها ، لاشيء سوى أن تجارب المترجمين مع الألفاظ متباينة ، وما يحيط بالألفاظ من ظلال المعانى والدلالات يختلف من مترجم إلى آخر . وليس من الحكمة أن نفترض سوء النية فى هؤلاء المترجمين ، أو أن نشك فى نواياهم ، وليس من المقبول أن نتصور جهلهم بإحدى اللغتين المترجم منها والمترجم إليها ، فكلهم من أهل الفكر الذين يحافظون على سمعتهم ، ويحرصون على أن يوصفوا بالأمانة والإخلاص فى عملهم . ولذلك يجدر بنا حين نستعرض تلك الترجمات المختلفة لألفاظ القرآن الكريم أن نفترض فيمن قاموا بها البعد عن الغرض أو الهوى ، وأنهم كانوا ممن يحسنون فهم العربية ، ويجيدون الكتابة باللغة المترجم إليها . ثم مع هذا أو رغم هذا نراهم يختلفون فى تخير الألفاظ وإيثار بعضها على بعض ، تبعاً

لاختلاف تجاربهم معها ، وتبعاً لاختلاف حدودها وظلالها في ذهن كل منهم .

وقد رجعنا إلى ترجمة الألفاظ القرآنية إلى اللغة الإنجليزية فوجدنا أقدمها يرجع إلى سنة ١٧٣٤ ميلادية وهي التي قام بها « جورج سيل » George Sale، ثم أعاد الترجمة بعده ج . م . « رودويل » J.M. Rodwell في سنة ١٨٧٦ ثم « بلمار » E. H. Palmer في سنة ١٨٨٠ . وهؤلاء الثلاثة لم يكونوا من المسلمين أو معتنقي الدين الإسلامي ، ولكنهم بذلوا الجهد ، وجاءوا بما وسعته طاقتهم في إخلاص وأمانة ومثابرة .

ثم ظهرت بعدهم ثلاث ترجمات أخرى لألفاظ القرآن قام بها قوم من المسلمين، وممن يتمسكون ويعتزون بالدين الإسلامي ، ويحرصون على إظهار تعاليمه وأحكامه في صورة وضاءة مشرقة ، لايشينها شين ولايشوبها زيف ، فبذلوا جهدهم ، واستنفدوا طاقتهم ، وأتوا بما وسعهم . وهؤلاء هم : محمد على البا كستاني سنة ١٩١٧ ، مرمدوك بكتال Marmaduke Pickthall سنة ١٩٣٠ ، وأخيرا يوسف على البا كستاني منذ سنوات .

وحين نستعرض هذه الترجمات الستة ، نراها تشترك في ألفاظ كثيرة جداً ، ونراها مع ذلك تختلف في بعض الألفاظ والعبارات التي رغم أنها جميعاً تؤدي المعنى في عمومه ، فقد تباينت إزاءها نظرة المترجمين وموقفهم منها . ولتوضيح ذلك وقع اختيارنا على بضع آيات من آخر سورة البقرة هي قوله تعالى :

[لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولاتحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولاتحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين] .

فبينما نرى معظم المترجمين يترجم كلمة «البقرة» بالكلمة الإنجليزية «Cow» نرى أحدهم يستعمل كلمة أخرى هى Heifer . كذلك بينما نراهم يشتركون جميعاً فى كلمة «Soul» للنفس ، وفى كلمة Burden ـ للإصر ، نراهم يختلفون فى ترجمة الألفاظ الآتية :

(١) يكلف
(1) force. (2) burden. (3) require.
(4) impose a duty. (5) task. (6) place a burden.

(٢) وسعها
(1) its Capacity. (2) its Power. (3) its Capacity.
(4) ability. (5) its Scope. (6) what it Can bear

(٣) يؤاخذ
(1) Punish. (2) Punish. (3) Catch up,
(4) Punish. (5) Condemn. (9) Condemn.

(٤) أخطأنا
(1) act sinfully. (2) fall into sin.
(3) make mistake (4) make a mistake
(5) miss the mark (6) fall into error.

(٥)
اعف عنا
(1) Be favourable. (2) Blot out our sins (3) forgive
(4) Pardon. (5) Pardon. (6) Blot out our sins
اغفر لنا
(1) Spare us. (2) forgive. (3) Parodn.
(4) grant Protection (5) absolve. (6) grant forgiveness.

(٦) مولانا
(1) Patron. (2) Protector. (3) Sovereign.
(4) Patron. (5) Protector. (6) Protector

وها نحن أولاء نعرض نص الترجمات المختلفة للآيات القرآنية الآنفة الذكر مرتبة على حسب تاريخ ظهورها .

1 – George Sale. 1734.

God will not force any soul beyond its capacity : It shall have the good which it gaineth, and it shall suffer the evil which it gaineth. O Lord, punish us not, if we forget, or act sinfully : O Lord, lay not on us a burden like that which thou hast laid on those who have been before us ; neither make us, O Lord, to bear what we have not strength to bear, but be favourable unto us, and spare us, and be merciful unto us. Thou art our patron ; help us therefore against the unbelieving nations.

2 – J. M. Rodwell. 1876.

God will not burden y soul beyond its power. It shall the good which it ha 1 acquired. and shall bear the evil for the aquirement of which it laboured. O our Lord; punish us not if we forget, or fall into sin : O our Lord ; and lay not on us a load like that which Thou hast laid on those who have been before us ; O our Lord ; and lay not on us that for which we have not strength : but blot out our sins and forgive us, and have pity on us. Thou art our protector : help us then against the unbelievers.

3 – E. H. Palmer. 1880.

God will not require of the soul save its capacity. It shall have what it has earned, and it shall owe what has been earned from it. Lord, catch us not up, if we forget or make mistake. Lord ; load us not with a burden, as Thou hast loaded those who were before us. Lord, make us not to carry what we have not strength for, but forgive us, and pardon us, and have mercy on us. Thou art our Soveriegn, then help us against the people who do not believe !

4—Maulvi Muhammad Ali : 1917.

Allah does not impose upon any soul a duty but to the extent of its ability, for it is (the benefit of) what it has earned, and upon it (the evil of) what it has wrought.

Our Lord: do not punish us if we forget or make a mistake. our Lord : do not lay on us a burden as Thou didst lay on those before us; our Lord; do not impose upon us that which we have not the strength to bear; and pardon us and grant us protection and have mercy on us, Thou art our patron, so help us against the unbelieving people.

5—Marmaduke Pickthall : 1930

Allah tasketh not a soul beyond its scope. For it (is only) that which it hath earned, and against it (only) that which it hath deserved. Our Lord! Condemn us not if we forget, or miss the mark! Our Lord! Lay not on us such a burden as Thou didst lay on those before us! Our Lord! impose not on ua that which we have not the strength to bear! Pardon us, absolve us and have mercy on us. Thou,our Protector, and give us victory over the disbelieving folk.

6—يوسف علي

On no soul doth God Place a burden greater than it can bear. It gets every good that it earns, and it suffers every ill that it earns. (Pray) : "Our Lord" ! Condemn us not if we forget or fall into error ; Our Lord ! Lay not on us a burden like that which Thou didst lay on those before us; Our Lord! Lay not on us a burden greater than we have strength to bear Blot out our sins, and grant us forgiveness. Have mercy on us. Thou Art our Protector; Help us Against those who stand Against Faith.

وليس بعسير بعد هذا العرض لعدة ترجمات للألفاظ القرآنية ، إدراك السرّ فى اختلاف المسلمين حول ترجمة القرآن الكريم . إذ يرى جمهور كبير منهم أن ترجمة القرآن مهما بلغ المترجم من القوة فى اللغتين لا تكاد تحقق الهدف ، وذلك لأن للغة العربية نواحى خاصة من فنون البلاغة تعنى بها كل العناية ، وتذيع فى أساليبها ولا تكاد تشبهها فى هذا لغة أخرى . فمع فنون الجمال اللفظى التى أشرنا إليها آنفاً ، تتصف اللغة العربية بالعناية بالمجاز والاستعارة والكناية أو التورية وغيرها من فنون القول الوثيقة الصلة بدلالة الألفاظ .

وقد تجلت هذه الحقيقة بصورة أروع حين عرض بعض الباحثين من القدماء لألفاظ القرآن بالشرح والتفسير ، وتبين لهم أنه لا يتم فهم ألفاظ القرآن إلا بعد التعرف على أساليبه ، وما يمكن أن ينطوى وراء تعبيراته من المعانى والمقاصد . ولذا وضع أبو عبيدة كتابه المسمى « مجاز القرآن » وتحدث فيه عن المجازات القرآنية ، ودلالتها اللطيفة . ويصف أبو عبيدة الآيتين :

« اعملوا ماشئتم » و « ومن شاء فليكفر » .

بقوله : إن هذا ظاهره الأمر وباطنه الزجر ، وهو من سنن العرب .

ثم ظهر لابن قتيبة كتاب تحت عنوان « تأويل مشكل القرآن » ، وفيه يعرض ابن قتيبة لما خفى عن العامة الذين لا يعرفون إلا اللفظ وظاهر دلالته على معناه ، وفيه يقول إن للقرآن من القوة والجمال ما قد يخفى على غير أهل الذوق وأرباب البصيرة بالفن الأدبى . ولذلك لا يعرف فضل القرآن إلا من كثر نظره واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب وافتنانها فى الأساليب ، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات [١] .

ففى قوله تعالى : « وألقيت عليك محبة منى » يقول ابن قتيبة : لم يرد فى هذا الموضوع أنى أحببتك ، وإن كان يحبه ، وإنما أراد أنه حببه إلى القلوب

(١) البيان العربى ص ١١ .

وقربه إلى النفوس . ويقول فى قوله تعالى « وجعلنا نومكم سباتا »: ليس السبات هنا النوم ، ولكن السبات الراحة ، أى جعلنا النوم راحة لأبدانكم .

ويمثل ابن قتيبة للاستعارة فى القرآن بقوله تعالى :«أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس » ويشرح الآية بقوله : أى كان كافراً فهديناه ، وجعلنا له إيماناً يهتدى به سبيل الخير والنجاة .

ومن كنايات القرآن قوله تعالى « وثيابك فطهر » ، أى طهر نفسك من الذنوب ، فكنى عن الجسم بالثياب لأنها تشتمل عليه .

ومن أساليب القرآن فى رأى ابن قتيبة : أن يأتى الكلام على مذهب الاستفهام وهو تقرير كقوله سبحانه « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ » ، وكأن يأتى على الاستفهام وهو تعجب كقوله « عم يتساءلون عن النبأ العظيم » ! ؟ ، وكأن يأتى على مذهب الاستفهام وهو توبيخ كقوله « أتأتون الذكران من العالمين » ! .

ثم ظهر بعد كتاب ابن قتيبة أثر جليل الشأن هو كتاب إعجاز القرآن للباقلانى . وفى بعض فصول هذا الكتاب يعرض المؤلف الكثير من فنون البلاغة العربية ، كالتمثيل والمطابقة والتجنيس والمقابلة والموازنة والمساواة والتوشيح والكناية ... الخ .

وظهر معه كتاب آخر هو « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » للشريف الرضى . وفيه يقصر المؤلف دراسته على البحث فى المجاز القرآنى، أى فى الألفاظ المستعملة فى غير ما وضعت له كقوله تعالى « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر » . فالمراد بتفتيح أبواب السماء تسهيل سبل الأمطار حتى لا يحبسها حابس . وقوله « فالتقى الماء على أمر قد قدر » ، أى اختلط ماء الأمطار المنهمرة بماء العيون المتفجرة ، فالتقى الماءان على ما قدره الله سبحانه من غير زيادة ولا نقصان .

وأخيراً نجد كتاب « بدائع القرآن لابن أبي الإصبع » المتوفى سنة ٦٥٤ هـ وفيه يسوق المؤلف من فنون البلاغة التى وردت فى آيات القرآن نحو مائة فن ، كالمجاز والاستعارة والكناية والإرداف والتمثيل والتشبيه والإيجاز ... الخ .

وفى الحق أنه لا يكاد المرء ينتهى من تصفح هـذه الكتب وأمثالها حتى يحس فى قرارة نفسه أن الوقوف على دلالات الألفاظ القرآنية أمر عسير المنال ، دونه صعوبات جمة ، فلا يكاد يسلم المترجم لها من الزلل أو القصور فى إبراز تلك الدلالات ، وتصويرها بالقدر الذى يقارب ما هى عليه فى منبتها القرآنى من جمال وروعة وإعجاز لأهل اللسن والفصاحة ، فى كل زمان ومكان .

الفصل الحادى عشر

نصيب الألفاظ العربية من الدلالة

— ١ —

أمية العرب

تذكر المعاجم القديمة لكلمة الأمى معنيين أحدهما هو المألوف الشائع بيننا الآن ، والآخر معنى غريب غير مستساغ هو على حد تعبيرهم [العيى الجافى الجلف القليل الكلام] . ولست أدرى كيف استباح أصحاب المعاجم لأنفسهم أن ينسبوا مثل هذا المعنى لكلمة الأمى بعد أن وصف بها النبى فى القرآن الكريم ، وكيف يتصور أن يكون للكلمة مثل هذه الدلالة فى أذهان العرب ، ثم مع هذا تتخذ وصفاً لنبيهم فى قوله تعالى « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى » ، وقوله « فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى » . والغريب أننا لا نرى أى أثر لهذه الكلمة فى جمهرة ابن دريد ، ولا فى صحاح الجوهرى ، ولا فى تذييل الصاغانى ، فلم يرد لها ذكر فى هذه المعاجم على سعتها وكثرة ما جاء فيها .

ويبدو أن كلمة الأمى من الكلمات التى لم تكن شائعة فى الاستعمال قبل الإسلام ، فلا نعرف لها نصاً صحيحاً من نصوص الأدب الجاهلى ، ولا نعرف أن العرب قد اشتقوا لها فعلا ، أو غيره من أنواع المشتقات .

ومهما يكن من أصل هذه الكلمة ، فالذى يبدو من استعمالها القرآنى أنها وصف لا يراد به الحط من شأن الموصوف ، أو الانتقاص من قدره ، بل يوصف به من ليس من أهل الكتاب ، سواء كان يقرأ ويكتب ، أو ممن

لا يقرأون ولا يـكتبون . ففى قوله تعالى « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى » وقوله « فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى » ، يدعو سبحانه أهل الـكتاب من بنى إسرائيل أن يؤمنوا بذلك الرسول الذى ليس منهم ، والذى ورد ذكره فى كتبهم .

وقد اقتضت حكمته أن يـكون « محمد » من غير أهل الـكتاب ، خلافاً لما جرت به السوابق من اختصاص أهل الـكتب المقدسة بالرسل والأنبياء . فجميع أنبياء بنى إسرائيل من بينهم ، وممن نشأوا فى ظل الـكتب المقدسة التى أنزلت من قبل ، فأصبح القوم وقد خيل إليهم أن الرسول الحق لا يـكون إلا منهم ، كأنما كانت النبوة أمر وراثة فيهم .

ويتضح هذا المعنى حين نستعرض الآيات القرآنية الأربعة التى ورد فيها كلمة « الأميين » ، فليس من بينها ما يشتم منه لأول وهلة أن المراد بالأميين الذين يجهلون القراءة والـكتابة ، سوى قوله تعالى [ومنهم أميون لا يعلمون الـكتاب إلا أمانى] . غير أن مثل هذا الفهم يجب أن يستبعد حين ينظر إلى الآية فى ضوء الآيات التى سبقتها ، وفى ضوء إستعمال الـكلمة فى الآيات الثلاث الأخرى . وقد ذهب إلى مثل هذا التفسير بعض علماء الإسلام أمثال قتاده وابن زيد ؛ فقد روى عنهم الطبرى فى تفسيره ما يشبه هذا الذى قررناه هنا من أن العرب أمة أمية ، أى أنهم ليس لهم كتاب سماوى يقرءونه ويدينون به . وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية ما نصه [ومن المحتمل أن كلمة أمى أو أميين وضعها أهل الـكتاب « وربما كان واضعوها هم اليهود » للدلالة على الوثنيين . ويزيد فى تأييد هذا الرأى أن « هورفتز » بيـن أن لها مقابلا فى العبرية هو « أمـــوت هاعولام »] .. إلى أن يقول [فلا الـكلمة العربية « أمة »

ولا العبرية « أما » ولا الآرامية « أميتا » تدل على الأمة فى حالة الجهالة] ...
وإذا عرفنا أن « محمداً » ربما لم يكن على بينة مما تدل عليه كلمة أمى عند اليهود وأنه ربما جعل لهذه الكلمة معنى جديدا] (١) .

ولسنا نهدف بهذا التفسير أن نثبت للنبى أنه كان يقرأ ويكتب ، أو أن العرب كانوا يقرأون ويكتبون ، بل ندعو إلى عدم الربط بين هذه الآيات وبين ما كان عليه النبي فعلا . فإذا أردنا البرهان على أنه لم يكن يكتب ويقرأ التمسنا هذا من الآيات القرآنية الأخرى كقوله تعالى [وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطــــه بيمينك] . أما جهل العرب بالكتابة والقراءة فيمكن الاستدلال عليه بكثير من الحوادث التاريخية الصحيحة ، ومن آية مثل آية الدين (يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ... الآية) ، فهى توضح لنا ان الكاتبين فى بيئة الحجاز كانوا من الندرة بحيث طلب من الناس إذ تداينوا بدين أن يلتمسوا لهم كاتباً يسجله ويوثقه ، ثم فرض على الكاتب أن يستجيب لدعوة الدائنين فلا يرفض لهم دعوة أو يأباها . ومع ندرة الكاتبين يتضح من الآية أن معظم الناس كانوا قادرين على الإملاء ، وأنه من غير المألوف أن نجد بينهم من لا يستطيع أن يمل بنفسه .

ومن الأدلة التى يمكن أن تلتمس للبرهنة على قلة شيوع الكتابة بين العرب قبل الإسلام ما يرويه المؤرخون الثقات كالبلاذرى فى كتابه فتوح (٢) البلدان حين يقول (دخل الإسلام وفى قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب) ثم يذكر أسماءهم فرداً فردا . فإذا كان هذا شأن قريش مع تقدمها فى التجارة وسلطانها بين العرب ، فما بالك بحال القبائل الأخرى .

---

(١) النسخة العربية المجلد الثانى ص ٦٤٤ .
(٢) ص ٤٧١

ولم تكن الحال فى المدينة خيراً منها فى مكة ، فقد حصر المؤرخون أسماء الكاتبين فيها فلم يجاوزوا أحد عشر رجلا . ولذا كان «صلعم» يشجع المسلمين فى المدينة على تعلم الكتابة ، ويفتدى الأسير فى غزوة بدر بتعليم عشرة من صبيان المدينة .

أما الجالية اليهودية بالمدينة وما حولها فقد كانوا كغيرهم من اليهود فى كل البيئات التى يرحلون إليها ، يتعلمون لغة قومها ، ومنهم من يتقنها ويتكلم بها دون لكنة تنم عن أصله ، أو تفشى ما استتر من أمره . ثم هم مع هذا قد يترجمون بعض نصوص التوراة إلى هذه اللغة الجديدة،ويتعبدون بمعانى العبرانيين القدماء فى ألفاظ غيرهم من الأمم التى يعيشون بينها .

وتدل كل الأسانيد التاريخية على أن اللغة العبرية لم تعد لغة كلام يتحدث بها الناس فى خطابهم منذ القرن الرابع قبل الميلاد [1] . ولم يتردد المتأخرون من أنبياء بنى إسرائيل فى كتابة بعض أسفارهم باللغة الآرامية أمثال دانيال وعزرا ونحميا [2] .ولم تكد المسيحية تظهر بتعاليمها حتى كانت اللغة العبرية قد أصبحت فى عداد اللغات الميتة ، لا يتكلم بها أحد ، ولا يتفاهم بها اليهود أنفسهم . تلك كانت حال العبرية فى أوائل ظهور المسيحية وفى فلسطين ، فكيف كان حالها بعد ذلك بنحو خمسة أو ستة قرون وفى بيئة بعيدة كبلاد العرب ؟ !

لهذا نتصور أن يهود المدينة كانت لغتهم العربية ، وقد نشأ بينهم شعراء ينظمون الشعر بالعربية كالسموأل ، وأوس بن دنى ، والربيع بن أبى الحقيق ، وكعب بن الأشرف . ويصف بركلمان يهود يثرب فيقول [إنهم كانوا يتكلمون

---

(1) Hebrew Grammar, by Gesenius. p. 15.
(2) Introduction to the literature of the old Testament. by. Driver p. 467 — 486.

بالاغة نفسها التى يتخاطب بها السكان الآخرون] [١] .

ومع هذا فأغلب الظن أن يهود المدينة كانوا أوثق اتصالا بالـكتابة من سائر العرب ، فقد قيل لنا إن بعضا منهم كانوا يعلمونها الصبيان فى المدينة .

ويروى لنا البخارى حديثاً منسوبا لزيد بن ثابت بروايتين إحداهما [قال أتى بى النبى «صلعم» مقدمه المدينة، فقيل هذا من بنى النجار وقد قرأ سبع عشرة سورة فقرأت عليه فأعجبه ذلك ، فقال تعلم كتاب يهود فإنى ما آمنهم على كتابى ، ففعلت ، فما مضى لى نصف شهر حتى حذقته] . والرواية الثانية : [عن زيد بن ثابت قال لى النبى صلعم إنى أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا على أو ينقصوا فتعلم السريانية فتعلمتها فى سبعة عشر يوما] .

ويبدو أن الرواية الأولى أقرب إلى الصحة ، فليس يعقل أن إنسانا مهما بلغ من النبوغ والعبقرية يستطيع تعلم لغة أجنبية كالسريانية — فى مثل هذه المدة الوجيزة . هذا إلى أن النبى « صلعم » إنما كان يهدف إلى أن يكون بجانبه كاتب أمين ثقة ، ولم يكن « صلعم » يستطيع الإملاء بغير العربية ، ولا معنى إذن أن يطلب من زيد تعلم السريانية ، فضلا عن أن السريانية ليست لغة التوراة حتى يمكن أن نتصور أن يهود المدينة كانوا يكتبون بها إلى النبى ، بل لقد رأينا آنفا أن يهود المدينة لم يكونوا على علم باللغة العبرية لغـة كتبهم المقدسة . لهذا كله نرجح أن اليهود قد شاعت بينهم الـكتابة بالرموز العربية المألوفة لنا ، فأراد النبى صلى الله عليه وسلم حث زيد على تعلمها ، بعد أن سمعه يقرأ عن ظهر قلب بعضاً من سور القرآن .

---

(١) العرب والإمبراطورية العربية لبروكلمان ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى ، ص ٢٩ : ولعل صاحب معجم البلدان حين أشار الى يهود يثرب وقال عنهم « إنهم عرب تهودوا » لم يرد سوى أن يصفهم بأنهم كانوا من الناحية اللغوية كغيرهم من عرب القبائل الأخرى جـ ٤ ص ٤٦١ .

وليس من العسير إذن على زيد بن ثابت تعلم الرموز التى تكتب بها لغته العربية فى مثل تلك المدة القصيرة . ويكون معنى قوله « صلعم » كتاب يهود أو كتابتهم ، تلك الرموز العربية التى شاعت بين يهود المدينة أكثر من شيوعها بين القبائل الأخرى، حتى أصبحت لهم بمثابة الحرفة التى مهروا فيها، ولا ينافسهم فيها غيرهم من العرب . فأراد النبى أن يحث المسلمين على منافسة اليهود فى تعلم الكتابة العربية حتى يكون من بينهم كاتبون مهرة يطمئن إلى مايسطرون له من رسائل . وقد أملى رسائله كلها باللغة العربية حتى تلك الرسائل التى بعث بها إلى كسرى وقيصر الروم والنجاشى والمقوقس ، وغيرهم من الملوك والعظماء الذين لم تكن لغتهم العربية .

— ٢ —

الأمية والثقافة اللغوية

تبين لنا مما تقدم أن العرب الجاهليين لم يكونوا بوجه عام أهل كتابة وقراءة ، فهل تستلزم هذه الحال أنهم كانوا أيضاً على قدر ضئيل من الثقافة اللغوية ؟ .

تشهد الآثار الأدبية التى رويت عن العصر الجاهلى أن شعراءهم وخطباءهم قد برعوا فى صناعة القول ، فمنهم البلغاء الفصحاء الذين اعتزوا بلغتهم وتنافسوا فى إجادتها شعراً ونثراً .

وقد دل نظام الشعر وأوزانه على أن الأدب الجاهلى قد سبقته مراحل وأطوار تمت فيها نشأته ونموه ، فلما جاء الإسلام وجد الخاصة من العرب يكرسون حياتهم لإتقانه وتجويده فى أسواقهم ومنتدياتهم ، فكانت تعقد المساجلات والمفاخرات بين الشعراء والخطباء فى تلك الأسواق التى يمكن أن تدعى بحق المؤتمرات الثقافية للعرب القدماء .

فليس من المغالاة فى شىء أن نعد الإنتاج الأدبى عند الجاهليين مظهراً من مظاهر الثقافة اللغوية التى اكتسبوها بالتلقى والمشافهة جيلا بعد جيل .

ولم يكن ينقصهم حينئذ إلا الكتب والكتابة ووسائل التدوين والتسطير وهذه كلها فى رأيى أمور تافهة فى كسب الملكة الكلامية . فقد نشأت اللغات البشرية فى صورة صوتية تنطلق من الأفواه وتتلقفها الأسماع ثم تفسرها الأذهان . ولا تزال على هذه الحال حتى الآن ، بل ستظل هكذا فى مستقبل الأيام .

أما الكتابة فهى تلك الوسيلة الناقصة التى اهتدى إليها الإنسان فى عصور متأخرة نسبياً حين تقاس بنشأة اللغة الإنسانية . وقد بدأت الكتابة تصويرية ثم مقطعية ثم هجائية على يد الفينيقيين الذين ورثوها للعالم الحديث . ولم تكد تتقدم الكتابة أكثر من هذا خلال الثلاثين قرناً الماضية . إلى أن جاء القرن العشرون ، واهتدى الإنسان إلى وسائل أخرى للتسجيل أسرع وأدق ، فاصطنع التسجيل الصوتى على اسطوانات وأشرطة وأسلاك تتضمن مع صغر حجمها ما يمكن أن يتضمنه كتاب أو مجلد .

ويتسم العصر الحاضر بسمة السرعة فى كل شىء ، فمواصلاته سريعة ، ومجال النشاط فيه لا يقف عند حدود المدن أو الممالك ، بل يتعداها إلى جميع أطراف الأرض .

ولهذا يبدو أن الكتابة ستفقد أهميتها فى التسجيل والتدوين ، وسيحل محلها التسجيل الصوتى حين تصبح أدواته فى متناول الناس جميعاً .

فالمستقبل للسمع لا للعين ، والثقافة عن طريق العين ستفقد كثيراً من سلطانها ، وسيكون للسمع المنزلة الأولى ولا سيما فى الملكات اللسانية وصناعة القول . ولا نشك فى أن السمع حينئذ سيصبح أكثر حساسية ، يميز دقائق الأصوات ومتباين النغمات ، مما سيؤدى حتما إلى أن يصير الكلام أقرب إلى

الموسيقى . وهنا يمكن أن يقال إن الثقافة اللغوية قد عادت كلها إلى الوسيلة الطبيعية وهى حاسة السمع ، لاتستعين إلا بها ، ولاتحتاج إلى ما اصطنعه الإنسان من وسائل ناقصة كالكتاب والقلم .

ومثل التعليم السمعى عند العرب القدماء مثله الآن عن طريق الإذاعة ، غير أن فرص السماع الآن أكثر ، ومجالها أوسع وأشمل . فى حين أن طالبى الثقافة من العرب القدماء كان عليهم أن يشهدوا الأسواق والمحافل بأنفسهم ، وأن يتجشموا فى ذلك من التنقل والأسفار ما لم يكن فى وسع كل منهم .

وفى مثل هذه البيئة الأمية لا تكاد تتميز معالم الكلمات وحدودها تميزها بين القارئين الكاتبين . وذلك لأن القارىء حين يسمع كلمة من الكلمات تنطبع فى ذهنه صورتان لها ، إحداها سمعية منطوقة والأخرى بصرية مكتوبة ، فيربط بين هذه وتلك ربطاً وثيقاً . فالكتابة للصورة السمعية بمثابة القيود والأغلال تمنع الكلمة من الاختلاط أو الامتزاج بكلمة أخرى سابقة أولاحقة . ولا عجب أن نرى النقوش اليمنية القديمة[1] قد فصل فيها بين كل كلمة من كلماتها بخط رأسى ، حتى بين المضاف والمضاف إليه ترى ذلك الخط الرأسى الفاصل بين الكلمتين مثل [ملك ! سبأ] ، مما يبرهن على شعور الكاتب شعوراً قوياً بحدود كل كلمة .

أما الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب فلا يكاد يدرك اللغة إلا فى شكل عبارات وجمل لا انفصام بين أجزائها .

وقد دلت التسجيلات الصوتية على أن الناطق لايحاول تمييز حدود الكلمات بل ينطق بمجموعة منها فى جملة أو عبارة وقد تشابكت أطرافها واختفت حدودها ولا يكاد يتوقف عن النطق إلا حيث ينقطع النفس ، أو حيث ينتهى الكلام إلى معنى مستقل بالفهم يحقق الهدف من النطق .

---

(١) المختصر فى اللغة العربية الجنوبية القديمة تأليف المستشرق أ . جويدى ، ص ٣ .

من أجل هذا يجمع المحدثون من اللغويين على أن اللغة المكتوبة المنطوقة ، أقل استعداداً للتطور من المنطوقة فقط . وذلك لأن الكاتب يحاول العودة بالكلمة إلى ما كانت عليه كلما أصابها انحراف فى الأفواه وعلى الألسنة .

واللغة العربية التى اصطنعت فى الآثار الأدبية الجاهلية قد نشأت وازدهرت فى ظل الأمية ، وهى اللغة التى حاول القدماء من العلماء الاحتفاظ لها بكل خصائصها القديمة التى منها ما يمكن أن يعزى إلى شيوع الأمية كالموسيقية فى الكلام .

— ٣ —

موسيقية الأدب العربى

يصف كثير من الدارسين لغتنا العربية بأنها لغة موسيقية وأنها انحدرت إلينا وقد اكتسبت هذه الصفة منذ أقدم عهودها أوأقدم نصوصها ، ولكنى لا أعرف أحداً من هؤلاء الدارسين قد ربط بين هذه الموسيقية وبين ما شاع لدى العرب القدماء من الأمية أو ندرة القراءة والكتابة .

وفى رأيى أن ظاهرة الموسيقية فى اللغة العربية تعزى فى أغلب عناصرها إلى تلك الأمية حين كان الأدب أدب الأذن لا أدب العين ، وحين اعتمد القوم على مسامعهم فى الحكم على النص اللغوى ، فاكتسبت تلك الآذان المران والتمييز بين الفروق الصوتية الدقيقة ، وأصبحت مرهفة تستريح إلى كلام لحسن وقعه أو إيقاعه ، وتأبى آخر لنبوه ، أو لأنه كما يعبر أهل الموسيقى نشاز .

وكما تمرن الآذان فى بيئة الأمية تمرن الألسنة أيضاً ، فتنطلق من عقالها وقد اكتسبت صفة الذلاقة ، فلا تتعثر أو تزل فى أثناء النطق . وتتعاون الأذن مع

اللسان فى مثل تلك البيئة على إيثار العناصر الموسيقية من اللغة ، ونفى العناصر النابية والتخلص منها ، ويؤدى هذا مع مرور الأيام — وبشرط أن تظل الأمة فى نهضتها الاجتماعية والحضارية — إلى انسجام فى أصوات الكلام وحركاته ومقاطعه ، ويقترب بذلك إلى نوع من الموسيقى أو الغناء .

ويرى الدارس للأدب العربى أن للعصر الجاهلى آثاراً أدبية أكثرها من النظم ، وأقلها من النثر ؛ بل يرى أن ما روى من النثر قريب الشبه بما روى من النظم ، ففيه تلتزم القافية بين عدد من العبارات ، ولكنه لا يكاد يخضع لنظام توالى المقاطع الذى نألفه فى المنظوم .

ثم قد يبدو لدارس الأدب العربى أن يفسر لنا عناية هؤلاء القدماء بالأدب عامة والشعر بصفة خاصة فيلتمس التفسير حيناً من بيئة العرب ، كالجاحظ حين يقسم الشعوب أقساماً ، فيرى أن اليونان أصحاب فلسفة ومنطق ، وأن الفرس أصحاب تقليد ونقل ، وأن أهل الهند أصحاب حكمة وأخلاق ، فأما البيان فى الشعر والنثر فحظ العرب وحظهم وحدهم .

وطوراً يلتمسه من طبيعة العربى كالقاضى الجرجانى حين يقول [إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية ، والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه] .

ومهما تكن الأسباب الأصلية التى ساعدت على نشأة هذه الشاعرية العربية فالذى يعنينا هنا أن نتذكر أن الأدب الجاهلى قد نما وازدهر فى مجتمع لا يصطنع الكتابة والقراءة ، وظل هذا المجتمع العربى قبل الإسلام بضعة قرون يرعى تلك النهضة البيانية ، ويعمل على ازدهارها . ولم يكن للشعر خلال هذه القرون إلا الصورة الصوتية ، تتردد على الأسماع فتكسبها المران وعادة التمييز بين الكلام المشتمل على الإيقاع والنغم .

ونلاحظ أسمى درجات الموسيقية فى أوزان الشعر وقوافيه ، أما نثرهم فنراه ممثلا خير تمثيل فى خطبهم ووصاياهم تلك التى التزم فيها إلى حد كبير ترددأصوات بعينها فى نهاية العبارات والجمل .

ولا شك أن كلا من الشعر والخطابة ، كلام قصد به أولا وقبل كل شىء التأثير فى العاطفة ، وسر هذا التأثير يمكن أن يكون عن طريق الجمال فى المعنى ، أو عن طريق الإيقاع والنغم فى اللفظ . ويعجب القارىء الكاتب عادة بمعانى الكلام أكثر من إعجابه بوقعه فى الأسماع ، فى حين أن الأمى المرهف الأذن يستجيب أولا لرنين اللفظ ونغمه ، وقد ينفعل له ويتأثر به تأثراً قويا وإن خلا من جمال فى مضمونه ومعناه .

لهذا نرجح أن الشعر العربى القديم عنى أولا بالموسيقى ، وشغلته الأوزان والأنغام عن المعانى والتعمق فيها . ولعل هذه الظاهرة لم يقتصر أمرها على الشعر العربى القديم ، بل شملت كل الأشعار القديمة للأمم الأخرى ، كالقصائد الجرمانية القديمة ، وأشعار اليونان فى عصورهم الأولى ، ونحو هذا من الأشعار التى رويت ولم تكتب ، أو التى نشأت فى بيئة أمية .

غير أن أمية العرب قد ظلت شائعة بينهم رغم ما وصلوا إليه فى عصر ماقبل الإسلام من ناحية عقلية أرقى كثيراً مما كانت عليه البيئة الإغريقية أيام حروب طروادة ، ورغم ماوصل إليه العالم الإنسانى أيام هؤلاء الجاهليين من رقى وحضارة واعتماد كبير على القراءة والكتابة .

لذلك لا نغالى حين نقرر هنا أن أثر الأمية فى شعر العرب القدماء أعمق من أثرها فى شعر غيرهم من الأمم القديمة .

بل لا نعرف أمة أخرى من الأمم قد ظهر لها مثل ذلك الأدب الجاهلى فى كثرته وإحكامه واعتزاز أهله به وتوفرهم عليه ، ثم كانت مع ذلك أمة أمية أو شاعت فيها الأمية على النحو الذى روى لنا عن العرب القدماء .

فالذى أود أن نذكره دائماً هو أن كل الأمم قد بدأت حياتها فى جو الأمية ، وأنه من المحتمل أن يكون قد نشأ لبعض منها نوع من الأدب فى هذا الجو أو تلك الظروف ، ولكن ليس من بينها أمة قد عنيت بتلك الآداب التى نشأت فى ظروف أميتها إلا العرب .

فالفارق الهام بين أمة العرب وغيرهم من الأمم ، أن العرب مروا بعهودهم البدائية وهم أميون ، وكان لهم آداب ترجع ربما إلى ما قبل المسيح ، ثم تطورت هذه الآداب فى ظل الأمية حتى اكتمل تطورها ، وأخذت صورة الأدب الناضج وهى لا تزال على الأمية باقية .

عنى العرب إذن بموسيقية الكلام ، لأنهم لم يكونوا أهل كتابة وقراءة ، بل أهل سماع وإنشاد ، وظلت هذه الخاصية بارزة فى الشعر العربى فى كل العصور ، حتى بعد أن نشأت الموشحات ، وأريد بها الخروج عن نظام القافية الواحدة والوزن الواحد ، نرى أن هذه الموسيقية قد تنوعت ألوانها وتباينت نغماتها حين انتقل أبناء العرب إلى البيئات الطبيعية المتعددة الألوان ، من حفيف للأشجار ، وغناء للأطيار ، ووقع للأمطار ، وأصداء مختلفة لأصوات الطبيعة حيث تمتزج فتأتلف ، وتوحى بنوع من الموسيقية التى لا تسير على وتيرة واحدة كما كانت فى شبه الجزيرة ، ولكنها موسيقية الكلام على كل حال . فقد ظل أثر الموسيقية الجاهلية هـــو السائد فى كل العصور حتى بعد أن أصبحت المملكة العربية أبعد ما تكون عن الأمية أو ما يشبه الأمية . وذلك لأن الأدباء فى كل العصور قد اتخذوا من تلك النماذج القديمة نصباً يحجون إليها ، ويلتمسون منها الإلهام والوحى .

ولأمر ما سمى الأعشى بصناجة العرب ، فهو مع اشتراكه فى الأمية لجمهور الناس فى بيئته قد عوض عن فقد البصر بسمع مرهف ، وأذن أكثر حساسية ،

جملته يتجه بكل قلبه ونفسه نحو هذه الموسيقية اللفظية ، ويوغل فيها حتى تميز شعره بصلاحيته للغناء أكثر من غيره .

ولأمر ما كان أبو العلاء المعرى أول شاعر عربى لفت نظرنا إلى ما سماه باللزوميات ، فقد قضى أبو العلاء كل حياته يسمع ولا يكتب ، وأرهفت أذنه وسمعه بعد ذلك المران الطويل .

بل لا أكون مغالياً حين أقول إن أوضح مايتميز به الأدباء المكفوفون فى أدبهم هو عنايتهم بجرس الألفاظ ووقعها الموسيقى ، وكثيراً ماتشغلهم موسيقى الكلام عن مراميه وأهدافه ، فيغمرون المعنى القليل بفيض من الألفاظ والعبارات المتكررة ذات المعنى الواحد أو المتشابهة الدلالة .

ويصف الناقد الحديث القصيدة العربية بخلوها من الوحدة ، فلو قد اقتطف منها بعض أبياتها لم يخل هذا بكيانها ، أو ينقص من قدرها شيئا . وهو فى هذا الوصف يتناسى أن العربى قد اتخذ وحدة القصيدة من الوزن والقافية ، لأن عنايته بالموسيقى والنغم قد فاقت عنايته بالمعانى والأخيلة ، فليست القصيدة مفككة الأوصال كما قد تبدو ، بل شغل العربى بموسيقاها ، وأصبح ينفعل لكل بيت ، ويستجيب لوزنه وإيقاعه كلما تكررت القافية ، واتحد نظام توالى المقاطع .

ولذا لاندهش حين يروى عن أحد الشعراء أنه قال متحدثا عن المأمون (أسمعته الساعة بيتا لو شاطرنى عليه ماملكه لكان قليلا) . وكان أبو نواس يسمع البيت من الحسين بن الضحاك فيتوعده بأشد الوعيد إن لم يترك له هذا البيت . وكان القدماء من نقاد العرب يحكمون على الشعراء وشعرهم بالبيت الواحد . فيروى عن الأصمعى قوله « أغزل بيت قالته العرب : وماذرفت عيناك إلا لتقصرى .. » ، وقوله إن أهجى بيت قالته العرب : قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم ... بل سمى زهير قاضى الشعراء ببيت من الشعر هو :

فإن الحق مقطعه ثلاث أداء أو نفـار أو جلاء

أما أمدح بيت ففى رأى بعضهم قول الحطيئة : يغشون حتى ماتهر كلابهم . . .

وفى رأى ثعلب قول الأعشى : فتى لو يبارى الشمس ألقت قناعها . . . .

وقال أبو عمرو هو بيت جرير : ألستم خير من ركب المطايا . . . .

وقال غيره بل بيت الأخطل : شمس العداوة حتى يستقاد لهم . . . .

فأحكامهم موجزة سريعة ، ومجالس عبد الملك بن مروان مليئة بتلك الأحكام الجزئية كقوله لكثير عزة(أما والله لولا بيت أنشدتنيه قبل هذا لحرمتك جائزتك). وكان يقارن بين الفرزدق وجرير على أساس بيت واحد لـكل منهما ، فالفرزدق يقول (فإنى أنا الموت الذى هو واقع) ، فيجيبه جرير بقوله (أنا الدهر يفنى الموت والدهر خالد) !! .

فالشاعر العربى لرغبته فى إطالة القصيدة ، وشدة اعتزازه بموسيقاها قد أحل نفسه من وحدة المعنى فيها ، مكتفيا بوحدة الوزن والقوافى ، ولم تسعفه ألفاظ اللغة وكلماتها فى الجمع بين هاتين الوحدتين .

وليس من نافلة القول هنا أن نعرض عرضا سريعا لقضية اللفظ والمعنى ، تلك القضية التى ظلت مناط البحث والجدل فترة طويلة بين النقاد القدماء . وكان من بين هؤلاء النقاد من نادى بما ننادى به الآن من أن اللغة العربية ممثلة فى نصوص الآداب المروية تعد من اللغات التى عنيت باللفظ أكثر من عنايتها بالمعنى ، أو بعبارة أخرى عنيت بموسيقى الـكلام أكثر من عنايتها بمضمونه . غير أنا فى ندائنا بهذا الرأى نعزوه إلى الظروف الاجتماعية التى نشأت فيها تلك الآداب ، من شيوع الأمية بين العرب ، واعتمادهم على السمع والمشافهة فى تلقى النصوص وتداولها .

وكان ممن تشيعوا للفظ والصياغة « الجاحظ » ، وتبعه فى هذا كثيرون من الذين جاءوا بعده من ناقدى الأدب ودارسيه . فلنستمع مثلا إلى أبى هلال العسكرى إذ يقول (ليس الشأن فى إيراد المعانى ، لأن المعانى يعرفها العربى والأعجمى والقروى والبدوى ، وإنما هو فى إجادة اللفظ وصفاته وحسنه وبهائه ... الخ) .

ولم يكد ينتصف القرن الرابع الهجرى حتى رأينا نقاد الأدب العربى قد انقسموا فريقين : فريق ينتصر للفظ وآخر للمعنى .

ويلخص ابن رشيق [1] فى كتابه العمدة هذه القضية فيقول (اللفظ جسم وروحه المعنى) ثم يقول (وللناس فى هذا آراء ومذاهب ، منهم من يؤثر اللفظ على المعنى كقول بشار :

إذ ما غضبنا غضبة مضرية   هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

ومن هؤلاء فرقة أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى إلا القليل النادر)، ثم يقول (ومن الناس من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ، ولا يبالى حيث وقع هجنة اللفظ وقبحه وخشونته ، كابن الرومى وأبى الطيب المتنبى) . ثم يختتم ابن رشيق هذا الفصل بقوله (وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى) .

ويعقد ابن جنى فى الخصائص [2] فصلا مستفيضا عنوانه (فى الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعانى) . ويقيم ابن جنى من نفسه مدافعاً عن الأدب العربى ، فيعلل عناية العرب بالألفاظ بقوله « لأنها لما كانت عنوان معانيها ، وطريقاً إلى إظهار أغراضها ومراميها، أصلحوها ورتبوها وبالغوا

---

(١) توفى فى منتصف القرن الخامس الهجرى .
(٢) ص ٢٢٣ .

فى تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك أوقع فى السمع وأذهب بها فى الدلالة على القصد، ألا ترى أن المثل إذا كان مسموعاً لذ سامعه فحفظه ... الخ).

ثم لايلبث ابن جنى فى هذا الفصل أن يعود إلى طبيعته كنحوى لاناقد أدب ويبدأ فى شرح مدلولات بعض الصيغ فيقول (فصيغة « أفعل » للنقل وجعل الفاعل مفعولا نحو دخل وأدخلته ، وصيغة « فاعل » لكونه من اثنين فصاعداً نحو ضارب زيد عمراً ... الخ) .

وعلى هذا النهج العجيب يستمر فى دفاعه . ولانريد بعد هذا أن تستدرجنا قضية اللفظ والمعنى إلى أكثر مما سبق ذكره . ويكفى أن كثرة من ناقدى الأدب القدماء قد فطنوا إلى عناية العرب بألفاظهم وموسيقاهم ، وإن لم ينسبوا هذا إلى سبب واضح أو علة ظاهرة .

وليست تقتصر موسيقية الشعر العربى على نظام المقاطع فى الأبيات ، أونظام القوافى فى أواخرها ، بل تشمل أيضاً تلك الظاهرة التى سماها علماء البلاغة بالجناس ، وهو تردد الأصوات المتماثلة أو المتقاربة فى مواضع مختلفة من البيت الواحد . وشواهده فى الأدب العربى قديمه وحديثه غزيرة جدا ، مما يدل على حب العرب لهذا اللون من الموسيقية الكلامية ، كقول أوس بن حجر :

غر غرائر أبكار نشأن معاً   خشن الخلائق عما يتقى زور

وقول الحطيئة :

وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها   وإن أنعموا الاء كدروها ولا كدوا

وقول كعب بن زهير :

ولقد علمت وأنت خير عليمة   أن لايقربنى الهوى لهوان

وقول الخنساء :

إن البكاء هو الشفاء   من الجوى بين الجوانح

وقد عنى علماء البلاغة من المتأخرين بإبراز هذه الظاهرة الموسيقية ، وألفوا فيها كتباً ورسائل عرضوا فيها الأمثلة من كل عصر ، وقسموا الجناس إلى تام وناقص ، وفرعوا لكل قسم من القسمين فروعا يطول شرحها ، ويمكن الرجوع إليها فى المطولات من كتب البلاغة . ولعل أهم صفة تميز الجناس التام من الجناس الناقص هى أن التام تتردد فيه كلمة بعينها سواء صحب هذا التردد اختلاف معناها ، أو لم يصحبه ، مثل قول ابن الرومى :

للسود فى السود آثار تركن بها   وقعا من البيض يثنى أعين البيض

أما فى الجناس الناقص فيكتفى بتردد بعض أصوات الكلمة، كمعظم الأمثلة التى وردت فى الشعر العربى القديم .

هذا هو ما كان من شأن الشعر العربى ، أما النثر القديم فقد بدأ موسيقياً أيضاً ، وظلت تلك الموسيقية تلازمه فى معظم عصور اللغة ، ولم يخرج عنها إلا بعض المفكرين من الأدباء أمثال ابن المقفع وغيره فى عصر المأمون ممن تأثروا بما ترجم عن الفرس واليونان والهنود . ثم عادت الكتابة بعد هؤلاء إلى الموسيقية ممثلة فى الأسجاع والازدواج وظلت سوقها رائجة إلى عهد قريب من عصرنا الحديث .

وقد رويت لنا نماذج من نثر الجاهليين فى صورة خطب ووصايا أسست كلها على موسيقية اللفظ ، والتزام نظام القافية أو الفاصلة ، وفيها وجهت كل العناية إلى الأصوات فضمرت المعانى ، وأصبح من المألوف التعبير عن المعنى القليل بألفاظ كثيرة . فاستمع لما يروى عن « مرثد الخير بن ينكف » : (قبل انتكاث العهد ، وانحلال العقد ، وتشتت الألفة ، وتباين السهمة) تجد أن كل هذه العبارات ذات معنى واحد . ثم استمع إلى قول طريف بن العاصى : (تالله ما سمعت كاليوم قولا أبعد من صواب ، ولا أقرب من خطل ، والله أيها الملك

ما قتلوا بهجينهم بذجا ، ولا رقوا به درجا ، ولا أعطوا به عقلا ، ولا اجتنثوا به خشلا) ، فهذه كلها أمثلة يراد بها معنى واحد هو أنهم لم ينالوا ثأره ! ! !
أو استمع لنصيحة ذى الإصبع العدوانى لابنه : (ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك) تجد أن كل هذه العبارات لا تـكاد تؤدى إلا معنى واحداً ! !

فالنثر العربى فى عصوره الأولى قد انتظمته تلك الموسيقية ممثلة فى العبارات المسجوعة حيناً ، أو المتوازية حيناً آخر . وقد بدا لبعض الدارسين أن الإسلام بغّض من هذه الظاهرة الموسيقية حين قضى الرسول صلى الله عليه وسلم بدية الجنين فقال رجل فى مجلسه (كيف ندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، ومثله دمه يطل) ؟ فقال الرسول (إياكم وسجع الـكهان) . وقد وضح ابن الأثير هذا الحادث بقوله (إن النهى لم يكن عن السجع نفسه ، وإنما النهى عن حكم الـكاهن الوارد باللفظ المسجوع) .

ومن مظاهر الموسيقية فى نثر اللغة تلك العبارات الـكثيرة التى تشتمل على ما يسمى بالازدواج أو المزاوجة مثل (حسن بسن ، شيطان نيطان ، عفريت نفريت) ونحو هذا من عبارات تنتهى بكلمات لا معنى لها ولا تستعمل مستقلة ، وإنما جيء بها لتقوية البنية فيما يسبقها من كلمات بترديد الأصوات المتماثلة ، وإن لم تفد معنى جديداً فى غالب الأحيان . وقد جمع ابن فارس فى كتيب صغير مجموعة كبيرة من أمثال تلك العبارات وسمى كتابه بالإتباع والمزاوجة .

ومن العبارات التى رويت فى الإتباع وتـكلف الرواة لها دلالة معينة :

١ — أسوان أتوان : حزين متردد لا يستقر على حال من شدة الحزن .

٢ — عطشان نطشان : عطشان قلق .

٣ — خزيان سوآن : مستخز لقبح الأمر .

٤ — هنيء مريء : أسعده الطعام وسره .

٥ — عييّ شويّ (شييّ) : عييّ رذل .

٦ — عريض أريض : الأريض الخليق للخير الجيد النبات .

٧ — غني ملي : غني جداً .

٨ — خبيث نبيث : النبيث الذي يفتش عن خفايا الناس ، وكان من حق الصيغة أن تكون « نابث » ، ولكن للإتباع جعلت « نبيث » !

٩ — خفيف ذفيف : الذفيف السريع .

١٠ — قسيم وسيم : جميل جداً .

١١ — قبيح شقيح : قبيح جداً .

١٢ — كثير بثير : كثير جداً .

١٣ — كثير بذير : كثير مبعثر .

١٤ — ضئيل بئيل : صغير الحجم .

١٥ — شحيح نحيح : النحيح الذي يتنحنح إذا سئل عن الشيء .

١٦ — سليخ مليخ : لا طعم له .

١٧ — أشر أفر : أشر بطر .

١٨ — هذر مذر : الكثير الكلام الفاسد .

١٩ — حقير نقير ، حقر نقر : حقير مهل القياد متهاون به !

٢٠ — شكس لكس : شكس عسير متعب .

٢١ — سمج لمج : اللمج الكثير الأكل لا يبقى على شيء !

٢٢ — أجمعون أكتعون : كلهم .

— ٤ —

أثر الأمية فى وصل الكلام

يبدو أن جوّ الأمية فى شبه الجزيرة العربية ، والاعتماد على السمع وحده ، قد ربط بين الألفاظ فى الكلام المتصل ربطاً وثيقاً ، أدى فى آخر الأمر إلى ظهور تلك الحركات التى وصلت بين الكلمات ، وسميت فيما بعد بحركات الإعراب . ذلك لأن وحدة اللغة عند الأمى هى الجملة المفيدة ، أو العبارة المرتبطة الأجزاء ، ولو استطاع الأمى ألا يقف عن الكلام إلاّ حيث ينتهى غرضه لفعل .

من أجل هذا قد تتأثر أواخر الكلمات بأوائل التى تليها ، وينشأ بين الكلمتين المتواليتين نوع من الربط فى صورة حركة فى غالب الأحيان . وهكذا نشأت ظاهرة الإعراب فى اللغة العربية .

والأمى والقارىء على السواء قد يلتمس تلك الحركة للربط بين كلمتين متواليتين حين تدعو الضرورة الصوتية فى أثناء عملية النطق ، غير أن الفارق بين الأمى والقارىء هو أن القارىء لا يكاد يشعر بتلك الحركة ، بل حين نوجه نظره إليها لا يكاد يتبينها أو يقر بوجودها ، لأنه تعود أن يكتب كل كلمة وحدها ، وأن يميز لها هجاء مستقلا ، مما أفقد تلك الحركات الرابطة فى نطق القارئين الكاتبين بعض حقها الصوتى لأنه يختلسها اختلاساً .

والأمى الذى لا يعرف للكلام إلا الصورة المسموعة أحرص على النطق بذلك الرابط الصوتى ، دون أن يعرف له كُنهاً بطبيعة الحال ، فهو عنده كأى صوت آخر من أصوات الكلام ، به يصح النطق ، وبغيره يتعثر الكلام .

لهذا حين سمع علماء اللغة القدماء نطق الأعراب من الأميين تبين لهم بوضوح أن تلك الحركات الرابطة أوضح فى نطق الأعراب من نطقهم هم أنفسهم لعبارات اللغة العربية ، فوضعوا لها القواعد المألوفة فى علم النحو .

وقد بينت فى بحث لى من قبل [1] أن حركات الإعراب لا تعدو فى نشأتها أن تكون بمثابة الروابط بين الكلمات ، وأوضحت فى هذا البحث أن نظام المقاطع فى نطق العربى يلزم طريقاً خاصا ، ويتطلب تلك الروابط فى معظم الأحوال . فهى ضرورة صوتية ، أما الذى قديعين حركة معينة فأحد عاملين : أولهما إيثار بعض الحروف لحركات معينة كحروف الحلق حين تؤثر الفتح ، وثانيهما انسجام هذه الحركة الرابطة مع ما يكتنفها من حركات أخرى .

وأكبر دليل على أن تلك الحركات الرابطة كانت تراعى فى غالب الأحيان هو الوزن الشعرى الذى لا يستقيم بغيرها . فإذا لم تكن هناك تلك الضرورة الصوتية توقعنا أن تبقى الكلمة على سكونها ، أى أن بعض الكلمات التى وردت فى الشعر القديم لا تحتاج إلى تحريك آخرها ، ولا يخل هذا بالوزن الشعرى .

ونكتفى هنا بأن نعرض لأربعة من أشهر بحور الشعر العربى ، متخذين من بعض شواهدها الدليل على مانقول . ففى البحر الكامل والوافر والبسيط والخفيف ، يمكن الاستغناء عن بعض تلك الحركات الرابطة فى الموضع التى لاتدعو الضرورة الصوتية لتحريكها ، دون إخلال بالوزن أو معارضة لأقوال العروضيين .

ففى قصيدة لشاعر حديث من البحر الكامل مطلعها :

أدرك بفجرك عالما مكروبا   عوذت فجرك أن يكون كذوبا

وعدتها ٦٥ بيتاً نرى أن بها نحو ١٩ كلمة لا ضرورة لتحريك آخرها مثل قوله :

يأيها السلم المطل على الورى   طوبى لمهدك إن تحقق طوبى

---

(١) كتاب من أسرار اللغة ص ١٧٠

فكلمة « تحقق » لا ضرورة لتحريك آخرها ، وكل الذى يحدث حينئذ فى هذا البحر أن « متفاعلن » تصبح « مستفعلن » وهو كثير وحسن فى كل الأشعار التى جاءت منه .

ومن أمثلة البحر الوافر قول الشاعر الحديث :

وكم ضاق الجمال بطالبيه وأوذى بالتجمل والخضاب

فكلمة « التجمل » لا ضرورة لتحريكها ، وكل الذى يترتب على هذا أن « مفاعلَتن » تصبح « مفاعلْتن » ، وهو مقبول حسن فى النظم من هذا البحر .

ومن أمثلة الخفيف قول الشاعر الحديث :

أنت مهما شقيت أرفه حالا من أسير الجزيرة المكمود

فكلمة أرفه لاضروره لتحريكها ، وكل الذى يترتب على هذا أن «فاعلاتن» تصبح « مفعولن » وهو مقبول حسن فيما نظم من هذا البحر .

أما البحر البسيط فكل الذى يترتب على عدم التحريك هو أن « فعِلن » تصير « فعْلن » فى آخر الشطر الأول دون تصريع ، وفى حشو البيت مثل :

يا طالما حدثتنى النفس قائلة أنحن أنعمْ أم أجدادنا بالا
كانت حياتهمو تضفى بساطتها عليهمو من هدوء البال سربالا

ومن الغريب أن أصحاب العروض على كثرة ما جوزوه فى هذا البحر لم يشيروا إلى مثل ذلك إلا فى نهاية البيت . ومع ذلك فيجوزون قول الشاعر القديم :

إن أمس لا أشتكى نصبى إلى أحد ولست مهتديا إلا معى هادى
ثمت أطعمت زادى غير مدخر أهل المحلة من جار ومن جاد

فالذوق والأذن يحكمان بغير ما أهمل أهل العروض ، وأحتكم فى هذا إلى آذان الشعراء ومن قرأوا كثيراً من الشعر العربى .

أما حين نسائل أنفسنا عن السر فيما قد يقع فيه المتكلم أو القارىء من الخطأ الإعرابى ، نرى هذه الحركات الإعرابية تتعارض فى كثير من أحوالها مع قانون هام من قوانين النطق هو ما نسميه « الميل إلى انسجام الحركات المتجاورة وتأثر بعضها ببعض» ، وهو ما يسميه الأوربيون « Vowel-harmony » .

فهذه الحركات الإعرابية كما وصفها النحاة تعارض فى الكثير من الأحيان الميل العام للناطقين ، ولذا أهملتها معظم الألسنة أو تغيرت فيها .

وأولئك الذين يخطئون فى هذه الحركات الإعرابية صنفان من الناس : منهم من اتصل بقواعد النحاة أيا كان هذا القدر من الاتصال ، وهؤلاء قد يكون السر فى خطئهم الإعرابى أنهم لم يسيطروا على تلك القواعد فاختلط عليهم أمرها ، وأصبحوا يقيسون بعض المواضع على بعض ما درسوه أو سمعوه قياساً خاطئا ، فمن صادفته كلمة كالسبيل مثلا ورآها فى أكثر ما قرأ أو سمع مرفوعة قد يجنح إلى رفعها حيث تتطلب قواعد النحاة أن تكون مكسورة مثلا . ولعل كثيراً من تلك الأخطاء الإعرابية التى نسمعها من أفواه المتعلمين الآن ترجع إلى ذلك القياس الخاطىء .

أما الصنف الثانى ممن يخطئون فى الحركات الإعرابية فهم أولئك الذين لم يتصلوا بالدراسة النحوية ، وهؤلاء ينساقون مع طبيعة النطق ، ويتركون الحركات يتأثر بعضها ببعض .

فالتلميذ الصغير الذى يسمع مدرسه يقرأ له النص القرآنى قراءة صحيحة وتتكرر على سمعه تلك القراءة الصحيحة فى صورة جمعية ، نراه حين يطلب منه التسميع قد ينحرف لسانه فيجعل المرفوع منصوبا أو المجرور مرفوعاً ، لا لسبب سوى أنه اتساق مع طبيعة النطق .

وقد تتبعنا هذه الظاهرة فى مدارس مختلفة ، وفصول متعددة فرأينا كثيراً من التلاميذ ينصبون كلمة « الإنسان » فى النص القرآنى (أيحسب الإنسان

أن لن نجمع عظامه) ، ويقولون فى (ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً) لأنفسهم بضم السين .

وأكتفى بهذا القدر فى الحركات الإعرابية التى أرجح أنها كانت للربط بين الكلمات ، وأن نشأتها ترتبط بأمية العرب أو بموسيقية الكلام ارتباطاً وثيقاً .

— ٥ —

أثر الأمية فى دلالة الألفاظ

الأصل فى الألفاظ أن يختص كل لفظ بمعنى معين، بهذا جرت الكثرة الغالبة من ألفاظ اللغات فى العالم ، غير أنا نعرف أن أمور الحياة الدنيا متداخلة متشابكة تكون فى مجموعها نظاما متماسك الأطراف ، ولاغرابة إذن أن نرى معنى يقترب من آخر ، أو أن نرى جزءاً من معنى يشترك فى عدة ألفاظ . ومع ذلك تتجه معظم اللغات إلى تخصيص اللفظ بمعنى معين يصبح له بمثابة العلامة متى طرقت السمع أثارت فى الذهن دلالة معينة يشترك فى فهمها أفراد البيئة اللغوية .

ولا شك أن الألفاظ العربية فى بدء نشأتها ، ولا ندرى متى كانت هذه النشأة ، قد قصد بها أن يعبر كل لفظ عن معنى معين ، وأن تكون له دلالته المستقلة . ومهما قيل عن نشأة الألفاظ فى لغة الإنسان الأول ، لا نستطيع أن نتصور أنها يمكن أن توجد فى عصورنا التاريخية إلا حين تدعو الحاجة إليها ، بعد أن استقرت اللغة الإنسانية ، وأصبحت مهمتها الأساسية أن تتخذ وسيلة التفاهم بين أفراد المجتمع .

ثم كان أن اشتدت عناية العرب القدماء بالألفاظ وموسيقاها ، فشغلتهم هذه الموسيقية اللفظية عن ملاحظة الفروق بين الدلالات ، مما أدى إلى أن

كثيراً من الألفاظ التي كانت تعبر عن معان متقاربة ، قد ازدادت قربا واختلط بعضها ببعض ، ونسيت تلك الفروق أو تنوسيت ، وأصبح العربي صاحب الأذن الموسيقية يضحي بتلك الفروق في الدلالات حتى يتمكن من نظم قوافيه وتنسيق أسجاعه .

وهكذا رأينا أن الأدب الجاهلي والإسلامي قد شغلت موسيقاه أصحاب هذا الأدب عن تلك الدقة في معنى الألفاظ ، ولم تعد الألفاظ محددة الدلالة في غالب الأحيان ، وعدت الألفاظ بعضها على بعض ، مما ترتب عليه تلك الظاهرة التي لانعرف لها نظيراً في لغة أخرى وهي كثرة الألفاظ المترادفة .

ولست أريد هنا أن أثير جدلا أو نقاشا حول هذه الظاهرة ، وما إذا كانت تعد ميزة للغة العربية أو عقبة في تمييز الدلالات ، فقد تختلف وجهات النظر في هذا ، وإنما الذي أهدف إلى توضيحه أن ظاهرة كثرة الترادف قد أصبحت خاصية للغتنا العربية ، ولا تكاد تشركها في هذا لغة أخرى .

واللغوي الحديث لايحاول تفضيل لغة على أخرى ، بل يعجب بكل لغة ، ولا ينظر إلى ما اتصفت به إلا على أنه خصائص لهذه اللغة ، عليه أن يدرسها وأن يبحث عن سرها .

ومهما حاول بعض الاشتقاقيين من علماء اللغة كابن دريد وابن فارس وأمثالهما ، أو بعض الأدباء من أصحاب الخيال الخصب الذين يلتمسون من ظلال المعاني فروقا بين مدلولات الألفاظ ، أقول مهما حاول هؤلاء أو هؤلاء إنكار وقوع الترادف في ألفاظ اللغة العربية فليس يغير هذا من الحقيقة الواقعة شيئاً . فالترادف قد اعترف به معظم القدماء ، وشهدت له النصوص ، وإن كان بعض الذين قالوا به قد غالوا فيه . فمنهم من يقول لنا إن للأسد نحو ٥٠٠ كلمة ، وللثعبان نحو ٢٠٠ كلمة ، وللداهية نحو ٤٠٠ كلمة ، وللعسل نحو ٨٠ كلمة ، وللسيف نحو ٥٠ كلمة ... الخ (١) .

---

(١) انظر كتاب « اللهجات العربية » ص ١٦٢ — ٢٠٣ .

والأصل فى كل اللغات أن يعبر اللفظ الواحد عن المعنى الواحد ، ومع هذا فقد نرى فى النادر من الأحيان أن لغة ماتقبل أكثر من لفظ للدلالة على أمر واحد، وهو مايسمى بالترادف وقد تقبل لفظا واحداً للدلالة على أمرين مختلفين اختلافا بينا ، وهو مايسمى بالمشترك اللفظى . يقع مثل هذا فى كل اللغات دون إسراف فيه ، ودون أن يتجاوز ذلك عدداً ضئيلا جداً من ألفاظ اللغة .

أما الذى حدث فى لغتنا العربية فهو أن مجموعة كبيرة جداً من ألفاظها قد تنازعها هذان الأمران الترادف والمشترك اللفظى ، وألفت فيهما الكتب المستقلة كما سنرى .

وكثرة الترادف فى اللغة العربية أمر مفهوم نستطيع تفسيره ، فقد شغلت موسيقى الكلام أصحاب اللغة عن رعاية الفروق بين الدلالات فأهملوها أو تناسوها، واختلطت الألفاظ بعضها ببعض ، او تراكت فى محيط واحد كسرب من النحل يجتمع فى خلية واحدة . أى أن الدلالة لم تصمد ولم تكن عصية على التطور والتغير ، بل اقتصت من أطرافها ، فالتقت الألفاظ المتعددة على المعنى الواحد . وهذا هو ماعبر عنه بعض القدماء بقولهم فقدان الوصفية حين كان للسيف اسم واحد وله خمسون وصفا لكل وصف دلالته المتميزة : كالهندى الذى عرف بأنه سيف حاد رقيق فى صلبه مرونة وكان يصنع فى بلاد الهند ، واليمانى الذى كان يصنع فى بلاد اليمن مقوس النصل بعض التقويس وله فرند ونقوش ، والمشرفى الذى كان يصنع فى دمشق على شكل خاص متميز عن سابقيه وهكذا .

ومع هذا فحين استعمل عنترة أمثال هذه الأوصاف فى شعره لانكاد نلحظ تلك الفروق ، بل كل الذى يستبين من كلامه أنه عنى سيفا جيدا ، وقد ألزمته القافية أو نظام المقاطع أن يستعمل الهندى فى موضع ، واليمانى فى موضع آخر ، والمشرفى فى موضع ثالث .

فحرصه على موسيقى شعره ونظام قوافيه قد جعله يتناسى تلك الفروق ، إن صح أنها كانت تراعى فى وقت من الأوقات . .

أما الذى قد يصعب تفسيره فهو صمود معنى اللفظ فى مثل هذه البيئة الأمية، وإباؤه التغير أو التطور ، حتى يكون له نظير فى الصورة ، كالذى حدث فيما يسمى بالمشترك اللفظى . ولكن الألفاظ التى تعد من المشترك اللفظى قليلة جداً إذا قيست بالألفاظ المترادفة ، مما يرجح مانادى به هنا من أن العناية قد وجهت كلها للأصوات دون المدلولات ، وأن المعانى فى أغلب الحالات لم تصمد أمام عوامل التطور بل تغيرت أو انكمشت وتنوسيت الفروق التى بينها .

وللمقارنة بين عدد الألفاظ المترادفة فى اللغة العربية ، وعدد تلك التى تسمى بالمشترك اللفظى ، يجدر بالباحث أن يقوم بإحصاء هذه وإحصاء تلك من نصوص اللغة ، كأن تحصى فى كل نصوص الأدب الجاهلى مثلا .

ولا تصلح المعاجم التى بين أيدينا للقيام بمثل هذه المقارنة ، وذلك لأن ألفاظ المعاجم بمثابة الجثث الهامدة، ولا يبعث فيها الحياة إلا النص واستعمالها فيه . فالحكم على دلالة اللفظ فى نص ما أدق وأوثق مما لو استقيناه من المعاجم وحدها .

فإذا دلت نصوص اللغة على أن بين الألفاظ المختلفة الصورة فروقا فى الدلالة مهما كانت تلك الفروق طفيفة ، لا يصح أن تعد من المترادفات ، لأن شرط الترادف الحقيقى هو الاتحاد التام فى المعنى . والحكم فى هذا مرجعه أولا وأخيراً إلى الاستعمال ، لا إلى ما يتكهن به بعض أصحاب المعاجم . كذلك إذا ثبت لنا من نصوص أن اللفظ الواحد قد يعبر عن معنيين متباينين كل التباين سميناً هذا بالمشترك اللفظى ، أما إذا اتضح أن أحد المعنيين هو الأصل وأن الآخر مجاز له ، فلا يصح أن يعد مثل هذا من المشترك اللفظى فى حقيقة أمره

وقد كان ابن درستويه محقا حين أنكر معظم تلك الألفاظ التى عدت من المشترك اللفظى ، واعتبرها من المجاز . فكلمة الهلال حين تعبر عن هلال السماء ، وعن حديدة الصيد التى تشبه فى شكلها الهلال ، وعن قلامة الظفر التى تشبه فى شكلها الهلال ، وعن هلال النعل الذى يشبه فى شكله الهلال ، لا يصح إذن أن تعد من المشترك اللفظى لأن المعنى واحد فى كل هذا ، وقد لعب المجاز دوره فى كل هذه الاستعمالات .

ذلك لأن المشترك اللفظى الحقيقى إنما يكون حين لا نلمح أى صلة بين المعنيين ، كأن يقال لنا مثلا إن الأرض هى الكرة الأرضية وهى أيضاً الزكام !! وكأن يقال لنا إن الخال هو أخو الأم ، وهو الشامة فى الوجه ، وهو الأكمة الصغيرة .

ومثل هذه الألفاظ التى اختلف فيها المعنى اختلافا بينا قليلة جداً بل نادرة ولا تكاد تجاوز أصابع اليد عداً .

أما الكلمات التى تسمى بالأضداد فيقحمها بعض اللغويين فى هذا المشترك اللفظى رغم ما نرى بينها من صلة الضدية ، وهى صلة وثيقة بين الدلالات ، فلسنا نذكر الأبيض إلا ذكرنا معه الأسود ، ولسنا نذكر الغبى إلا ذكرنا معه الذكى ، وقد لعب التفاؤل والتطير دوراً هاماً فى نشأة تلك الأضداد .

ومع هذا فحين نسلم جدلا بأن الألفاظ التى وضحت الصلة بين معانيها يمكن أن تعد من المشترك اللفظى نراها قليلة العدد إذا قيست بالمترادفات ، فهى لا تكاد تجاوز العشرات ، فى حين أن المترادفات قد جاوزت المئات .

ولسنا نعرف من الكتب القديمة التى ألفت فى هذا المشترك اللفظى سوى كتاب « الأجناس من كلام العرب وما اشتبه فى اللفظ واختلف فى المعنى » لأبى عبيد المتوفى ٢٢٤هـ ، وهو كتيب صغير يشتمل على نحو ٣٠٠ كلمة كلها مقتبسة من كتاب أبى عبيد نفسه المسمى بالغريب المصنف ، والذى لا يزال مخطوطاً حتى الآن .

وتروى كتب التراجم أن للأصمعى مؤلفاً يسمى « ما اتفق لفظه واختلف معناه » ، ولا ندرى أين هذا الكتاب ! ؟

أما الأضداد فقد ألف فيها الأصمعى وابن السكيت وأبو حاتم السجستانى ، ثم جاء بعدهم ابن الأنبارى وجمع أقوالهم فى كتابه المشهور المسمى بالأضداد . ويعرض هؤلاء اللغويون فى كتبهم المختلفة إلى نفس المجموعة من الألفاظ التى يقال إن كلا منها كان يعبر عن المعنى وضده .

وقد تبين لبعض الباحثين من المحدثين أن مثل هذه المجموعة لوغربلت وبحثت بحثا علميا صحيحا لانتهى الأمر إلى أن مايصح أن يسمى منها بالأضداد لايكاد يعدو عشرين كلمة [1] .

أما ما وقع فى القرآن الكريم من ذلك المشترك اللفظى فقليل جدا ، وجله إن لم يكن كله ، مما نلحظ فيه الصلة المجازية كالعين للباصرة ولعيون الأرض ، ويندر أن تصادفنا كلمة مثل « أمة » التى استعملت فى القرآن بمعنى جماعة من الناس ، وبمعنى الحين فى قوله تعالى « وادكر بعد أمة » ، وبمعنى الدين فى قوله « إنا وجدنا آباءنا على أمة » .

فى حين أن كلمة مثل « الخال » التى اشتهر أمرها فى كتب المشترك اللفظى لم يرد لها إلا معنى قرآنى واحد ، وكلمة الإنسان رغم استعمالها فى القرآن نحو ٦٥ مرة ليس لها إلا معنى قرآنى واحد ، وكلمة الأرض التى تذكر دائماً فى المشترك اللفظى وردت فى القرآن أكثر من ٥٠٠ مرة بالمعنى المألوف وحده .

أما الترادف فقد وقع بكثرة فى ألفاظ القرآن رغم محاولة بعض المفسرين أن يلتمسوا فروقا خيالية لا وجود لها إلا فى أذهانهم للتفرقة بين تلك الألفاظ القرآنية المترادفة .

---

(١) ج ٢ من مجلة المجمع اللغوى ص ٢٨٨ .

وعلى كل حال نرى أن الكتب التى ألفت فى المترادفات أو التى اشتملت على كثير من الألفاظ المترادفة أكثر عددا وأوفر مادة كما سنرى فى الفصل التالى، بدئت بتلك الكتيبات التى جمعت فيها الألفاظ الخاصة بموضوع معين أو مجال من القول محدد كرسائل الأصمعى وأبى زيد الأنصارى .

وانتهت كتب الترادف بكتاب نسمع عنه وإن لم نره لرجل أغرم بالمترادفات وشغف بها كل الشغف وهو الفيروزبادى وعنوان الكتاب (الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف) !!

وليس كل ماورد فى هذه الكتب من المترادفات ، وإنما هى كتب نجمع فى ثناياها مجموعة كبيرة جدا من تلك الألفاظ المترادفة، بوصفها كتباً مرتبة على حسب الموضوعات أو الدلالات . وليس يتصور أن يضم كتاب مستقل كل الكلمات الخاصة « بالمطر » مثلا دون أن يكون بين هذه الكلمات عدد من المترادفات ، كما لا يعقل أن كتاباً يخصص لألفاظ « اللبن » دون أن يتضمن قدراً من الترادف . وأوسع هذه الكتب وأشملها هو كتاب المخصص لابن سيده ، فهو سبعة عشر مجلدا تضم بين ثناياها أكبر مجموعة من تلك الكلمات المترادفة .

على أن مؤلفى هذه الكتب كانوا يختلفون فى نظرتهم لدلالة الألفاظ . فمنهم من كان يورد عدة ألفاظ للمعنى الواحد ، ومنهم من حاول فى القليل من الأحيان أن يلتمس فروقاً طفيفة بين معانى هذه الألفاظ ، كأن رتبها ترتيباً تصاعدياً ، أو تنازلياً ، فيدعى الثعالبى مثلا فى كتابه فقه اللغة أن مراتب الصمم هى : فى أذنيه وقر ، ثم الصمم ، ثم الطرش ، ثم الصلخ !!

ويبدو من الاستعمال القرآنى أن معنى « فى أذنيه وقر » لايختلف مطلقاً عن معنى « الأصم » فى قوته أو ضعفه ، مما يجعلنا نتشكك فى كثير من تلك الفروق التى ساقها هؤلاء المؤلفون .

ولا نكاد نرى فى كتب هؤلاء العلماء شواهد أو نصوصاً قديمة نستدل منها على ما يمكن أن يكون بين الدلالات من فروق، وأغلب الظن أن ما التمسوه من تلك الفروق لم يكن إلا من وحى خيالهم ، أو لعلهم قد عز عليهم أن يروا تلك الكثرة من الألفاظ المترادفة فى اللغة العربية ، وحسبوها مما يشوه اللغة ، أو يوقع فيها اللبس والإبهام ، فعمدوا إلى بعضها وفرقوا بين دلالاتها دون أن يكون لهم فيما صنعوه أى سند من نصوص اللغة واستعمالاتها . وكان هذا بعد أن استقرت الدولة العربية ، وارتقت العقول ، وبدأ المفكرون يعنون بدقة المعانى وإحكامها .

ومن الغريب أن نرى ناقداً من النقاد القدماء مثل أبى هلال العسكرى وهو من عرف بعنايته بمذهب اللفظية يقول [إن الأثر الأدبى قد يسمو باللفظ وحده إذا كان سامياً، وحسب المعنى أن يكون متوسطا] ، فهو مع هذا أو رغم هذا يؤلف لنا كتابا سنعرض لأمثلة منه فيما بعد يسميه «الفروق اللغوية »، وفيه يحاول جهده أن يلتمس فروقاً دقيقة بين مدلولات بعض الألفاظ المترادفة دون سند من نصوص أو شواهد . وليس عمله فى هذا الكتاب إلا عمل الأديب صاحب الخيال الخصيب الذى يرى فى الأمور مالا يراه غيره ، ويلتمس من ظلال المعانى مالم يخطر على ذهن أصحاب اللغة من القدماء .

فإذا نحن ضممنا الألفاظ التى اعترف بترادفها فى تلك الكتب مع مجموعة أخرى من تلك التى التمسوا فيها فروقاً ماأنزل الله بها من سلطان ، وجدنا أنفسنا أمام قدر كبير من الكلمات التى انكمشت دلالتها ، واقتص من أطرافها فتجمعت فى خلية واحدة أو معنى واحد .

وهناك مجموعة صغيرة من الكتب عنى فيها مؤلفوها بصيغ الكلمات وبالفروق التى ترجع إلى اختلاف الحركات ، كمثلثات قطرب التى منها الغَمْر =

الماء الكثير ، الغُمر = الحقد فى الصدر ، الغِمر = الجاهل . وكذلك كتاب الإعلام بمثلث الكلام لابن مالك وهو مثل مثلثات قطرب ، وأيضاً بعض ماجاء فى كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب فعلت وأفعلت للزجاج الخ .

وليس يعنينا من هذه الكتب تلك الكلمات التى اختلفت معانيها لاختلاف صيغها « كالغمر » التى وردت فى مثلثات قطرب ، لأن هذا هو الأصل فى الألفاظ ، ومثلها هنا مثل كل الكلمات التى لكل منها معنى واحد .

أما التى اختلفت صيغها ومع هذا اتحدت معانيها كأحزنه وحزنه ، أو مثل فخِذ فِخِذ وفخذ وفَخْذ ، فهذه كلها وليدة التطور الصوتى . ولعل من بين عوامل التطور الصوتى هنا مايمكن إرجاعه إلى الأمية أيضاً ، وإلى العناية باللفظ تلك العناية التى يترتب عليها كثرة الشيوع ، وكثرة الشيوع والتداول قد يوقع فى مثل هذا الانحراف اللفظى ، فمثلها مثل العملة الفضية كلما كثر تداولها ساعد ذلك على التغيير فى ملامحها . بل قد تتطلب القوافى والأسجاع صورة معينة للكلمة أو حركات خاصة بها ، ولايرى الشاعر أو الناطق بأساً من ذلك التغيير الطفيف فى الحركات حرصاً على موسيقاه ، ورعاية لأنغامه ؛ ولم يجد رؤية بأساً فى أن يغير « العالم » إلى « العألم » ولا الضْيق إلى « الضيَق » ، ولا « الولْق » إلى « الولَق » ، حين وقع له مثل هذا فى أرجازه ، وإن أخذه عليه ابن قتيبة فى كتابه الشعر والشعراء .

من هذا كله نرى أن العناية بمسموع اللفظ قد أثر فى كثير من الدلالات ، وأفقدها الدقة والإحكام ، والوقوف عند حدودها الأولى ، بل لانغالى حين نقول إن العناية بموسيقى الكلام قد سلب معظم الدلالات تلك الدقة وذلك الإحكام حتى فى تلك الكلمات التى لها مدلول واحد ، وأصبحنا نرى الشعراء

يستعملون اللفظ فى معنى يحوطه بعض الغموض ، فلا نكاد ندرك له حدوداً ، مما يمكن أن يوصف معه بميوعة الدلالة أو عدم استقرارها .

— ٦ —

صراع علماء العربية مع دلالة الألفاظ

شهدنا آنفا أن بعض هؤلاء العلماء قد أسرفوا فى الاعتزاز بالألفاظ المترادفة ظنا منهم أنها مفخرة اللغة العربية .

وهم لحرصهم على تجميع الألفاظ المترادفة قد تجاهلوا تطور الدلالة فيها ، وخلطوا بين عصور اللغة . ولذا جمعوا بين لفظ عرفت له دلالة جاهلية قديمة وآخر اشتهر بدلالة إسلامية حديثة ، وجعلوا من اللفظين صنوين وقرينين .

هذا هو أبو الحسن الرمانى[1] فى كتابه المسمى « الألفاظ المترادفة » قد عقد نحو ١٤٢ فصلا ، وخصص كل فصل لإحدى الدلالات ، ثم سرد فى كل فصل الألفاظ التى تعبر عن دلالته . فتراوحت تلك الألفاظ بين ثلاث كلمات مترادفة فى فصل ، ونحو إحدى وعشرين كلمة مترادفة فى فصل آخر . ومع اعتدال أبى الحسن فى حصر تلك المترادفات ، لايكاد الدارس يستعرض ألفاظ الكتاب حتى يتبين أن كثيرا منها لايمت إلى الترادف بصلة ، وحتى يتضح له أن معظم كلمات الكتاب من ذوات المعانى المجردة كالأفعال والأحداث والصفات ، ويندر أن تشتمل على الدلالات المحسوسة أو أسماء الأشياء .

ولعل من خير ماجمعه من مترادفات قوله :

طرف ، مقلتى ، عينى ، ناظرى (بمعنى واحد) .

المجلس ، والمحفل ، والندى ، والمجتمع ، والموسم (بمعنى واحد) .

---

(١) المتوفى ٣٨٤ هـ

السرور : الحبور ، الجذل ، الغبطة ، الفرح (بمعنى واحد) .

ومع ذلك فليس من اليسير أن نحمل كثيرا من الدارسين على الاقتناع بما في هذه الكلمات من ترادف .

فإذا استعرضنا أمثلة أخرى من الكتاب رأينا الشطط والمغالاة في عدها من المترادفات مثل :

(١) [وصلته ، رفدته ، حبوته ، أعطيته] ثم أخيراً وهذا هو الغريب المضحك [رشيته] !! فكلها في رأى الرمانى تعبر عن الصلة والعطية .

(٢) أقلقنى ، كربنى ، ضعضعنى !! .

(٣) أهاننى ، أشجانى !!

(٤) البؤس ، المسكنة ، العسر ، الخصاصة ، والفاقة !! .

(٥) حصنى ، ملجأى ، ملاذي ، كهفى !!

(٦) سالت ، ذرفت ، هطلت .

(٧) الكذب ، المين ، الزور ، الإفك ، الانتحال .

(٨) مريض ، عليل ، عميد .

(٩) غريزتى ، طبيعتى ، عادتى ، شيمتى ، ديدنى ، سليقتي .

(١٠) بعد ، شط ، نزح ، تراخى ، عزب .

(١١) الشجاع ، البطل ، الغشمشم !!

(١٢) الخراج ، الإتاوة ، الفىء ، الجزية ، الضريبة .

(١٣) القبر ، الجدث ، الرمس ، الحفرة ، الضريح ، اللحد .

(١٤) تاب ، أقلع ، كف ، أمسك ، صدف ، أعرض .

(١٥) أظهر ، أعلن ، جهر ، أشاع ، أذاع ، بث .

لا أظن أننا بحاجة إلى التعليق على هذه الأمثلة ، فمجرد النظر إليها يبين بوضوح مقدار مغالاة أصحاب الترادف ، وتجاهلهم لتطور الدلالات فى الأجيال المختلفة ، وخلطهم بين دلالات جاهلية وأخرى إسلامية .

وقد سلكوا نفس المسالك حين تحدثوا عما سموه بالمشترك اللفظى ، وجعلوا للفظ الواحد أكثر من دلالة واحدة . فأبو عبيد[١] فى كتابه المسمى (كتاب الأجناس من كلام العرب وما اشتبه فى اللفظ واختلف فى المعنى) ، قد جمع نحو ٣٠٠ كلمة من هذا النوع ، ويستطيع الدارس أن يستبعد منها قدراً كبيراً، لأنها لا تعدو أن تكون من أمثلة التطور الدلالى ، تجمع بين دلالة حقيقية شائعة وأخرى مجازية . فهو مثلا يعد كلمة (الجنان) من المشترك اللفظى ، لأنها تعبر عن دلالات أربع هى : الليل ، والفؤاد ، والترس ، والثوب الأعلى على الثياب ! ومن الغريب أن يعقب أبو عبيد على قوله هذا بأن يلتمس السبب أو السر فى هذه الدلالات المختلفة فيقول « إن الجنان سمى بالليل لأنه يجن كل شىء بظلمته ، وبالفؤاد لأنه يجن السر ، وبالترس لأنه جنة من السيف والقلم ، وبالثوب الأعلى لأنه يستر ما تحته » ! فهو إذن يتجاهل النسب المختلفة فى شيوع الدلالات ويتجاهل فوق هذا أن المشترك اللفظى فى صورته الصحيحة لا يتصور إلا حيث تنقطع الصلة بين الدلالتين ، كالخال حين يعبر عن الشامة فى الوجه ، وعن أخى الأم مثلا .

وبينما نرى بعض هؤلاء العلماء يجمعون الألفاظ ويربطون بينها ، نرى آخرين يفرقون ويفصلون حتى بين ما لا يصلح فيه الفصل والتفريق . فأبو هلال العسكرى[٢] فى كتابه « الفروق اللغوية » يحاول أن يلتمس فروقا بين الدلالات المتشابهة أو المتماثلة ، نقتبس منها بعض الأمثلة فيما يلى :

---

(١) المتوفى ٢٢٤ هـ .
(٢) المتوفى ٣٩٥ هـ .

(١) [الفرق بين القديم والعتيق أن العتيق هو الذى يدرك حديث جنسه فيكون بالنسبة إليه عتيقا ، أو يكون شيئاً يطول مكثه ، ويبقى أكثر مما يبقى أمثاله مع تأثير الزمان فيه فيسمى عتيقا .. ولهذا لايقال إن السماء عتيقة وإن طال مكثها لأن الزمان لايؤثر فيها ، ولايوجد من جنسها ماتكون بالنسبة إليه عتيقا [١] !!]

(٢) الفرق بين السخاء والجود أن السخاء هو أن يلين الإنسان عند السؤال، ولهذا لايقال لله تعالى سخى ، أما الجود فكثرة العطاء من غير سؤال [٢]] .

(٣) [الفرق بين الغنى والجدة واليسار أن الجدة كثرة المال فقط يقال رجل واجد أى كثير المال ، والغنى يكون بالمال وغيره من القوة والمعونة وكل ماينافي الحاجة . وأما اليسار فهو المقدار الذى تيسر معه المطلوب من المعاش فليس ينبىء عن الكثرة . ألا ترى أنك تقول فلان تاجر موسر ولاتقول ملك موسر ، لأن أكثر مايملكه التاجر قليل فى جنب مايملكه الملك [٣]] .

ثم جاء بعد أبى هلال بعدة قرون عالم آخر هو على بن محمد الجرجانى [٤] ، ووجه كل عنايته إلى تلك الفروق بين الدلالات فى كتاب سماه « التعريفات » ،حاول فيه التحديد الدقيق لبعض الدلالات مثل قوله :

(١) [البخل هو المنع من مال نفسه ، والشح هو بخل الرجل من مال غيره قال عليه السلام : اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، وقيل البخل ترك الإيثار عند الحاجة ، قال حكيم البخل محو صفات الإنسانية وإثبات عادات الحيوانية] .

---

(١) ص ٢٤ .
(٢) ص ١٤٢ .
(٣) ص ١٢٤ .
(٤) المتوفى ٨١٦ هـ .

(٢) [الإغماء هو فتور غير أصلى لابمخدر يزيل عمل القوى ، وقوله غير أصلى يخرج النوم ، وقوله لا بمخدر يخرج الفتور بالمخدرات ، وقوله يزيل عمل القوى يخرج العته] .

(٣) [الأبد هو استمرار الوجود فى أزمنة مقدرة غير متناهية فى جانب المستقبل، كما أن الأزل استمرار الوجود فى أزمنة غير متناهية فى جانب الماضى] .

(٤) [السكر هو الذى من ماء التمر أى الرطب إذا غلى واشتد وقذف بالزبد] .

فهل مايستخرج من القصب لايسمى سكراً !؟! .

(٥) [الوجيه من فيه خصال حميدة من شأنه أن يعرف ولا ينكر] .

وهكذا نرى أن القدماء من علماء العربية ،فى صراع مع دلالة الألفاظ،طوراً يوسعون دائرتها ويتجاهلون الفروق بينها بحيث تتسع لكثير من الكلمات المترادفة أو المشترك اللفظى، وأخرى يحددون تلك الدلالات ويغالون فى تحديدها مما قد يترتب عليه أن نتشكك فى كثير من النصوص ، ونأبى المشهور الشائع من استعمالات كثيرة . وكل هذا لغموض الدلالات فى بعض الألفاظ ، وورودها فى النصوص مائعة غير محكمة ، تحتمل معنى كما تحتمل آخر شبيهاً به .

انظر مثلا إلى معجم المخصص لابن سيده [1] حين يصف رأس الإنسان بعدة ألفاظ لانكاد نخلص منها بصورة واضحة إذ يقول :

رأس أكبس : مستدير ضخم ، والرأس المؤوم : الضخم المستدير .

ورجل أقبص الرأس : ضخم مدور ، وقندل الرأس : عظيمه .

والدرواس : العظيم الرأس ، والجهضم : الضخم الهامة المستدير الوجه .

---

(١) المخصص لابن سيده المتوفى ٤٥٧ هـ حـ ١ ص ٦٣ .

• ثم انظر إلى غموض الدلالات فى تلك الألفاظ المترادفة التى وردت فى كتاب تهذيب الألفاظ لابن السكيت المتوفى ٢٤٤ هـ إذ يقول [1] : [ليلة مدلهمة أى مظلمة ، وديجور ، وديجوج .. واطرمس الليل أظلم ، والغيهب نحوه ، والملجوم الظلمة .. والمسحنكك الأسود ، والمطلخم مثله .. واطلخمت علينا الظلمة فما نبصر شيئا ؛ وليلة بهيم لا يبصر فيها شىء . والحندس : الليل الشديد الظلمة ، ويقال ليله طرمساء لا يبصر فيها] .

وفى كتاب الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن الهمذانى المتوفى ٣٢٧ هـ [2] .

(أظلم الليل ودجى وأدجى وتغضف وعتم وأعتم ، وغبس وأغبس ، ودمس وعسعس ؛ واعتكر واطلخم وادلهم وأسدف وغطش وأغطش ، واسحنكك واحلولك ، وسجا وأسجى ، وجن وأجن وارجحن ... الخ) .

وفى كتاب جواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ هـ [3] .

(أشبهه ، وضارعه ، وضاهاه ، وشاكله ، وماثله ، وشابهه ، وشاكهه . الخ)!!

(لئيم . خسيس . زنيم . مهين . وتح . وضيع . ضعيف . رضيع [4] . خامل . ساقط . رذل .) كلها بمعنى الدناءة ! ؟

---

(١) ص ٤١٦ .

(٢) ص ٢٨٩

(٣) ص ١٢ .

(٤) ص ٢٨

الفصل الثانى عشر

كنوز الألفاظ العربية

شهد النصف الأول من القرن الثانى الهجرى أستاذ الأساتذة أبا عمرو بن العلاء[1] يعلم الناس طرفا من كل شىء ، فلا يكاد يتوفر على أمر معين . فهو أحد القراء السبعة وإمام القراءة فى البصرة ، وهو أحد المؤسسين لمذهب البصريين فى النحو، وهو فوق هذا لغوى ضليع يروى من آداب اللغة وألفاظها الشىء الكثير ، وهو الذى يقول لنا : (ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو قد جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير) ، وهو الذى كان يعتز بأدب الجاهليين ويرى الوقوف عنده ، ويعد شعر الفرزدق وجرير من شعر المولدين فلا يحتج به !! فيروى عنه أنه قال فى هذا الشعر : (لقد حسن هذا المولد حتى كدت آمر صبياننا بروايته والتأدب به) . وهو الذى يروى عنه الأصمعى فيقول : (لقد لازمته عشر حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامى قط ! !) .

ومعظم الذين جاءوا بعد أبى عمرو يدينون له بالفضل . فقد عاصره أو تتلمذ عليه جلة من علماء العربية أمثال : عيسى بن عمر الثقفى ، وأبو الخطاب الأخفش ، والخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، وخلف الأحمر ، وكل هؤلاء من علماء البصرة ، كما عاصره بالكوفة أو قاربوا عهده المفضل الضبى ؛ وحماد الراوية ، والكسائى .

أما الذين سبقوا هؤلاء من الأئمة أمثال أبى الأسود الدؤلى ، وعنبسة الفيل، وميمون الأقرن ، ويحيى بن يعمر ، وعبد الله بن أبى إسحق فلا نكاد نعرف عنهم إلا القليل. ويبدو أن معظم هؤلاء قد توفر على تأسيس علم النحو وقواعد

---

(١) توفى ١٥٤ هـ .

اللغة حتى جاء أبو عمرو ومن عاصروه فبدأوا يعنون أيضاً بنصوص اللغة وألفاظها، يشرحون غامضها ويتتبعون الألفاظ فى نصوصها، ولكنهم فيما يبدو لم يتجهوا إلى الإنتاج العلمى فى صورة الكتب والرسائل، مكتفين بتلاميذهم النابهين ممن لازموهم سنين طويلة، فكأنما كانوا يتصورون أن رسالتهم العلمية تنتهى عند حد التلقين والإملاء على التلاميذ.

ورغم أن كتب التراجم تذكر للقلة من هؤلاء العلماء أسماء كتب ورسائل فإننا لا نكاد نعرف عنها شيئاً. ومعظم هؤلاء ممن عاشوا قليلا بعد منتصف القرن الثانى الهجرى، وأشهر ما أثر عنهم قول الرواة إن الخليل بن أحمد ألف فى النحو وورث آراءه لسيبويه، وألف فى العروض والموسيقى. كذلك نعرف للمفضل الضبى كتاب « المفضليات » والأمثال.

ثم جاء بعد هؤلاء طبقة من العلماء عاشوا جميعاً فى أواخر القرن الثانى الهجرى وأوائل الثالث. وهؤلاء هم الذين عنوا حقاً بتدوين علمهم وتاليف رسائلهم، وعنهم وردت لنا بعض تلك الرسائل الصغيرة الحجم التى توفر كل منها على موضوع معين من موضوعات اللغة، ككتاب صغير فى الإبل، أو رسالة صغيرة فى المطر، ونحو هذا.

وأشهر أصحاب هذه الطبقة من العلماء اللغويين:

(١) أبو زيد الأنصارى (توفى ٢١٥ هـ).

(٢) الأصمعى (توفى ٢١٠ هـ).

(٣) أبو عبيدة (توفى ٢٠٩ هـ).

(٤) النضر بن شميل (توفى ٢٠٤ هـ).

(٥) اليزيدى (توفى ٢٠٢ هـ).

(٦) أبو عمرو الشيبانى (توفى ٢٠٦ هـ).

فهؤلاء يكوّنون طبقة من اللغويين المتعاصرين الذين عنوا برواية الألفاظ والنصوص، وتوفروا على تدوينها وشرح مدلولاتها ـ وتروى لهم فى كتب التراجم أسماء لكتب كثيرة لم يرد لنا منها إلا القليل النادر • وليس بينهم من علماء الكوفة إلا أبو عمرو الشيبانى تلميذ المفضل الضبى • وقد ساهم فى جمع ألفاظ اللغة بنوادره ، وأراجيزه ، وبكتاب « الجيم » ، وكتاب الخيل وكتاب الإبل ، وخلق الإنسان • ولعل « كتاب الجيم » أشهر وأجود ما أثر عن أبى عمرو الشيبانى ، ويقال إنه ضن به على الناس بعد أن أتم تأليفه ، ولذا لم تكثر نسخه ، ولم يشتهر أمره بين المتأخرين من العلماء ، حتى ظن بعضهم أنه سمى بكتاب الجيم لأن مؤلفه بدأه بالألفاظ التى أولها « جيم » ! !

وملاحظاتنا على هذا الكتاب أن « لسان العرب » لم يذكر شيئا عنه ، ولكن الفيروزبادى ذكره ثم نقل عن الفيروزبادى صاحب تاج العروس فقال ما نصه : (نقل المصنف قال أبو عمرو الشيبانى « الجيم » فى لغة العرب الديباج) ثم قال (ولأبى عمرو كتاب فى اللغة سماه « الجيم » كأنه شبهه بالديباج لحسنه)!!

ولا يذكر الأزهرى هذا الكتاب بين مؤلفات أبى عمرو، بل يكتفى بقوله : وكان الغالب على أبى عمرو الشيبانى النوادر وحفظ الغريب وأراجيز العرب . أما قصة البخل بالكتاب فيذكرها الأزهرى منسوبة لأبى عمرو شمر الهروى المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ويقول (ألف كتابا كبيراً فى اللغات أسسه على الحروف المعجمة وابتدأ بحرف الجيم ، فيما أخبرنى أبو بكر الإيادى وغيره ممن لقيه) . ثم يذكر أنه ضن به على تلاميذه ، وأبقاه عنده حتى غرق فى طوفان بعض الأنهار ! ! بل تذكر كتب التراجم أن من بين مؤلفات النضر بن شميل كتابا يسمى « الجيم » أيضاً .

وعلى كل حال فبين أيدينا الآن مخطوط عنوانه كتاب الجيم ومنسوب لأبى عمرو الشيبانى ، وهذا المخطوط برواية السكرى وأبى موسى الحامض •

أما الآخرون من أصحاب هذه الطبقة فكلهم من علماء البصرة ، وأكثرهم تأليفاً الأصمعى ، وأبو عبيدة ، وأبو زيد الأنصارى . وإذا جاز لنا الحكم على كل مؤلفاتهم بما ورد لنا منها أمكن القول إنها جميعاً رسائل صغيرة ساهمت فى وضع اللبنة الأولى للمعاجم العربية كما عرفت لنا بعد ذلك .

ومن كتب أبى زيد الأنصارى التى بين أيدينا الآن « كتاب النوادر » الذى وصفه أبو زيد فى المقدمة بقوله : « ما كان فيه من شعر القصيد فهو سماعى من المفضل الضبى ، وما كان فيه من اللغات فهو سماعى من العرب » . وبقى لنا من كتبه أيضاً رسالتان صغيرتان فى « اللبن والمطر » . أما باقى رسائله التى تذكرها كتب التراجم والتى تجاوز الأربعين رسالة فيمكن الحكم عليها من عناوينها ، وأنها كانت كتيبات صغيرة يختص كل منها بموضوع معين .

أما الأصمعى فكانت مؤلفاته أسعد حظاً وأكثر شيوعاً . وبقى لنا منها نحو اثنتى عشرة رسالة هى :

الأصمعيات ، رجز العجاج ، أسماء الوحوش ، الإبل ، خلق الإنسان ، الخيل ، الشاء ، الدارات ، النبات والشجر ، النخل والكرم ... إلخ .

وهى كما ترى رسائل صغيرة ساهمت أيضاً فى نشأة المعاجم العربية . أما أبو عبيدة فقد عددت له كتب التراجم نحو مائة رسالة ، وهى فى مجموعها من نوع مؤلفات الأصمعى ، غير أنها تتضمن رسائل تعرض لمسائل تاريخية ، أو لأيام العرب وأنسابهم . ولم يبق لنا من كتبه إلا « كتاب مجاز القرآن » فى مخطوط نسخ فى القرن السادس الهجرى ، والنسخة التى بين أيدينا مصورة عن أخرى فى مكة . ومن أسماء رسائله : الإنسان ، الزرع ، الفرس ، الإبل ، الخيل ، السيف ... إلخ .

أما النضر بن شميل فيروى الثعالبى أنه لم يبق فى عهده من تأليف « النضر » سوى كتاب الصفات الذى يشتمل على ألفاظ مرتبة على حسب المعانى تعرض

لخلق الإنسان، والجود والكرم ، وصفات النساء ... الخ . أى أن معظم مؤلفاته كانت قد اندثرت فى عهد الثعالبى[1] سنة ٤٣٩ هـ ، ومن أسمائها كتاب الأنواء ، الشمس والقمر ، السلاح ، خلق الفرس ... الخ .

وهكذا نرى أن أصحاب هذه الطبقة قد تشابهت جهودهم ، وأنهم برسائلهم قد مهدوا السبيل لنشأة المعجم العربى .

ثم ولى هذه الطبقة طبقة أخرى من تلاميذهم ، واستمر أثرها إلى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وأشهر أصحابها :

(١) أبو حاتم السجستانى (توفى ٢٢٥ هـ) .

(٢) أبو عبيد القاسم بن سلام (توفى ٢٣١ هـ) .

(٣) ابن السكيت (توفى ٢٤٤ هـ) .

(٤) ابن الأعرابى (توفى ٢٣٢ هـ) .

(٥) ابن سلام الجمحى (توفى ٢٣١ هـ) .

(٦) أبو عمرو شمر الهروى (توفى ٢٥٠ هـ) .

ورغم أن كثيراً من مؤلفات أصحاب هذه الطبقة اللغوية قدضاع أيضاً، غير أنه يبدو مما ورد لنا منها أنها كانت أضخم حجما ، وأشمل من مؤلفات من سبقوهم.

فأبو حاتم السجستانى تذكر له كتب التراجم نحو ٣٤ كتاباً ، فيها ينهج نهج من سبقوه مثل : كتاب الوحوش ، السيوف والرماح ، الزرع ، خلق الإنسان ، الإبل ... الخ .

كما تروى لنا كتب التراجم لابن الأعرابى أسماء نحو ١٤ كتاباً منها : النوادر ، الأنواء ، صفة الزرع ، نسب الخيل ... الخ . ولم يبق من كتبه سوى أسماء البئر ، أسماء الخيل وأنسابها ، فى نسختين خطيتين .

---

(١) فقه اللغة للثعالبى ص ١٨ .

أما ابن السكيت فنعرف له كتباً ضخمة بعضها مطبوع متداول بيننا الآن مثل : « كتاب تهذيب الألفاظ » ، وهو من المعجمات المتوسطة الحجم ومرتب على حسب المعانى ، ونعرف له أيضاً كتابى القلب والإبدال وإصلاح المنطق .

أما أبو عبيد فيعد ممن ساهموا فى جمع الألفاظ ونشأة المعاجم بكتابه الضخم الذى لا يزال مخطوطاً حتى الآن وهو الغريب المصنف ، وهو معجم مرتب على حسب المعانى .

وهكذا نرى أن فكرة المعاجم خطرت لأصحاب هذه الطبقة ، وأنهم بدأوها فى صورة معاجم متوسطة الحجم ومرتبة على حسب المعانى . فكأنما كانوا يعمدون إلى تلك الرسائل الصغيرة التى عرفت عمن قبلهم ، فيضمونها بعضها إلى بعض ويكونون منها معجما . ولم يخطر بذهن أحدهم أن يرتب تلك الألفاظ التى اختارها ، أو التى جمعها ترتيباً هجائياً على حسب الحروف كما فعل أصحاب الطبقة التى جاءت بعدهم .

والطبقة الرابعة من العلماء اللغويين عاشوا جميعاً خلال القرن الرابع الهجرى ، وأشهر أصحابها :

(١) ابن دريد (توفى ٣٢١ هـ) .

(٢) ابن الأنبارى (توفى ٣٢١ هـ) .

(٣) عبد الرحمن الهمذانى (توفى ٣٢٧ هـ) .

(٤) قدامة بن جعفر (توفى ٣٣٧ هـ) .

(٥) القالى البغدادى (توفى ٣٥٦ هـ) .

(٦) الأزهرى (توفى ٣٧٠ هـ) .

(٧) الزبيدى (توفى ٣٧٩ هـ) .

(٨) الصاحب بن عباد (توفى ٣٨٥ هـ) .

(٩) الجوهرى « توفى ٣٩٣ هـ » .

(١٠) ابن فارس « توفى ٣٩٥ هـ » .

ويعدّ القرن الرابع وبحق قرن المعاجم العربية أو كنوز الألفاظ ، ففيه ألف أكبر عدد من المعاجم المشهورة المعتمدة ، وفيه أخذ المعجم العربى الصورة المألوفة لنا ، وفيه اتجه العلماء إلى ترتيب الألفاظ ترتيباً هجائياً ، وبدءوا ينصرفون عن الترتيب الجارى على حسب المعانى .

فليس بين من ذكرنا من أصحاب هذه الطبقة من استمر على وضع المعاجم المرتبة على حسب المعانى سوى « عبدالرحمن الهمذانى » فى كتابه المسمى « بالألفاظ الكتابية » ، وقدامة بن جعفر فى كتاب له يسمى « الألفاظ » . وقد ظل بعض العلماء من اللغويين يؤلفون تلك المعاجم التى رتبت على حساب المعانى خلال القرنين الخامس والسادس وأشهر تلك المعاجم : مبادىء اللغة للإسكافى[1] ، وفقه اللغة للثعالبى[2] والمخصص لابن سيده[3] ، والأشباه والنظائر لأبى البركات ابن الأنبارى[4] . غير أن الكثرة الغالبة بين اللغويين من أصحاب المعاجم قد اتجهوا إلى تلك التى رتبت ترتيباً هجائياً . ويعدّ المخصص لابن سيده أتم وأشمل معجم مرتب على حسب المعانى . وكل الذين ألفوا بعده على هذا النسق كانوا عالة عليه ، فكأنما قد اختتم ابن سيده بمعجمه « المخصص » عصر هذا النوع من المعاجم . فلم يحاوله بعده إلا القليلون ، وانصرف العلماء فى كل العصور بعد ذلك إلى التأليف فى المعاجم المرتبة على حسب حروف الهجاء .

ويعدّ معجم الجمهرة لابن دريد أول معجم مرتب ترتيباً هجائياً بين معاجم

---

(١) المتوفى سنة ٤٢١ هـ

(٢) المتوفى سنة ٤٢٩ هـ

(٣) المتوفى سنة ٤٥٨ هـ

(٤) المتوفى سنة ٥٧٧

القرن الرابع الهجرى فقد رأينا آنفاً أن العلماء قبل هذا القرن بدأوا تأليفهم بالرسائل الصغيرة، ثم انتهى الأمر بهم فى أواخر القرن الثالث بتلك المعاجم الصغيرة المرتبة على حسب المعانى . ومع هذا فيقال لنا إن الخليل بن أحمد قد وضع معجما ضخما رتبه ترتيباً هجائياً وسماه « كتاب العين » ، أى أنه بهذا يكون قد سبق عصر المعاجم على النحو المألوف لنا بما يقرب من قرنين ! !

كتاب العين :

ليس لدينا الآن نسخة قديمة كاملة لكتاب العين، وكل ما بأيدينا منه لا يعدو أن يكون قطعة خطية فى دار الكتب المصرية تحت هذا العنوان . كما لدينا كتيب صغير طبعه الأب أستاس الكرملى مشتملا على بعض النماذج من كتاب العين . وقد اقتبس هذا القدر القليل من مخطوطات حديثة النسخ ، يقال مرة إنها فى برلين ، وأخرى فى العراق فى بعض المكتبات الخاصة .

ومع هذا فتروى المعاجم التى بين أيدينا نصوصاً كثيرة منقولة عن « كتاب العين » ، كما يروى لنا أن كثيراً من علماء العربية فى القرن الرابع الهجرى قد رأوا هذا الكتاب ، وقرأوه ، وبحثوا فى مسائله . فلا مجال للشك إذن فى أنه كان هناك كتاب بهذا العنوان فى صورة معجم كامل مرتب ترتيباً هجائياً .

ولم يظفر كتاب فى عصرنا الحديث بالبحث والدراسة ، بقدر ما ظفر به كتاب العين ، غير أن نتيجة البحث كانت دائماً سلبية ، لكثرة ما روى عنه من أمور متناقضة .

وقد بدأ الطعن فى نسبة هذا المعجم للخليل منذ ظهور الكتاب بعد موت مؤلفه بأكثر من قرن من الزمان فيروى ابن النديم فى الفهرست ما نصه : [وقع فى البصرة كتاب العين سنة ٢٤٨ هـ ، قدم به وراق من خراسان ، وكان

فى ثمانية وأربعين جزءاً ، فباعه بخمسين ديناراً . وكان قد سمع بهذا الكتاب أنه فى خراسان بخزانة الطاهرية حتى قدم به هذا الوراق] .

أى أن أحداً من تلاميذ الخليل على كثرتهم لم يرو هذا الكتاب ، ولا عرف بينهم فى صورة مؤكدة أن الخليل قد ألف هذا المعجم ، حتى ظهر الكتاب فجأة فى أسواق البصرة .

وحين نستعرض آراء القدماء فى كتاب العين نراها تتلخص فى الآتى:

١ـ يرى السيرافى أن الخليل لم يقم إلا بوضع الجزء الأول من هذا الكتاب .

٢ـ يرى بعض العلماء ومن بينهم الأزهرى أن واضع الكتاب هو « الليث بن المظفر » وقد نسبه إلى الخليل لينفق الكتاب ، وتروج سوقه . فيقول الأزهرى فى تهذيب اللغة [الليث بن المظفر الذى نحل الخليل بن أحمد تأليف كتاب العين ، لينفق باسمه ، ويرغب فيه من حوله] ثم يقول [وقد قرأت كتاب العين غير مرة ، وتصفحته تارة بعد تارة ، وعنيت بتتبع ما صحف وغير منه ، فأخرجته فى مواقعه من الكتاب ، وأخبرت بوجه الصحة فيه] إلى أن يقـــول [وهى قليلة فى جنب الكثير الذى جاء صحيحاً] .

٣ـ ويوفق آخرون بين الرأيين السابقين فيزعم أن الخليل ألف الجزء الأول الخاص بحرف العين ، ثم يقول إن الليث أكمله ، وسمى الليث نفسه بالخليل لحبه وإعجابه بالخليل بن أحمد ! !

٤ـ وينسب صاحب معجم الأدباء رأياً لابن المعتز خلاصته أن الخليل قد ألف الكتاب ، وأهداه لليث ، واختصه به ، وبلغ من إعجاب الليث بالكتاب أن ظل يديم قراءته ، ويتوفر على دراسته بعد موت الخليل . ثم حدث أن اشترى « الليث » جارية جميلة غارت منها امرأته ، فأرادت زوجة الليث أن

تفجعه فى أعز شىء لديه ، ولم تجد غير هذا الـكتاب ، فأحرقته . فشق هذا العمل على الليث ، وقام بإملاء نصفه من ذاكرته ، ثم طالب بعض العلماء ممن حوله بإكمال النصف الآخر على نمط ما أملى .

وهذا هو السر فيما وقع فيه من خلل أو أصابه من تحريف !!

٥ ـ ويروى أبو الطيب اللغوى عن « ثعلب » أن الخليل رتب أبواب الـكتاب ، وتوفى قبل أن يحشوه ، أى أنه قام بوضع الهيكل . ثم يروى أبو الطيب أن الذين حشوه بعد الخليل كانوا من العلماء ، ولـكنه لم يؤخذ منهم رواية ، وإنما وجد بنقل الوراقين ، فاختل الـكتاب لهذه الجهة . ويوافق على هذا الرأى « الزبيدى » فى مقدمة كتابه « مختصر العين » .

ويبدو أن السر فى كل هذه الآراء المتضاربة أن كثيراً من علماء القرن الرابع الهجرى ، وهو قرن المعاجم العربية كما قلنا ، قد لاحظوا فى الـكتاب بعض الخلل والاضطراب ، فنزهوا الخليل بن أحمد عن مثل ذلك . فيقول ابن جنى مثلا [أما كتاب العين ففيه من التخليط والخلل والفساد ما لا يجوز أن يحمل على أصغر أتباع الخليل فضلا عن نفسه] .

ويروى الزبيدى أن « ثعلب » كان يستدل على فساد نسبة الـكتاب للخليل بأسباب منها : اختلاف نسخه ، واضطراب رواياته ، وما فيه من حـكايات عن المتأخرين ، والاستشهاد بالمرذول من أشعار المحدثين . فكيف يروى الخليل عن الأصمعى وأبى عبيد وابن الأعرابى ، فى حين أن الخليل توفى وعمر أبى عبيد ستة عشر عاما ؟ !

ولعل أقوى ما يوجه إلى هذا الـكتاب من طعون ما ذكره أبو على القالى من أن كتاب العين ورد من خراسان فى زمن أبى حاتم ، فأنكره أبو حاتم وأصحابه أشد الإنكار ، وأنه مضت مدة كبيرة قبل ظهور الـكتاب ، فلم يروه

تلاميذ الخليل أمثال النضر بن شميل ، وأبى الحسن الأخفش . ولو أن الخليل ألف الكتاب لحمله هؤلاء عنه ، وكانوا أولى بذلك من رجل مجهول الحال .
ثم يقول أبو على [ولو صح الكتاب عن الخليل لبدر الأصمعى واليزيدى وابن الأعرابى إلى تزيين كتبهم بالحكاية عن الخليل ، وكذلك من جاءوا بعدهم كأبى حاتم وأبى عبيد وابن السكيت وغيرهم ، فما علمنا أحدا منهم نقل فى كتابه عن الخليل حرفا من اللغة] ! !

ومع كل هذه الطعون وجد المعجم من يدافع عنه ، وينقل منه ، ويرفع من قدره ، كالمبرد وابن درستويه وأبى إسحاق الزجاجى ، بل اعترف به ابن دريد صاحب أول معجم بين معاجم القرن الرابع الهجرى .

ترتيب كتاب العين :

رتب صاحب كتاب العين حروف الهجاء ترتيبا مخرجيا ، غير أنه لم يبدأ بالهمزة كما كان الواجب ، بل بدأ بالعين ، فجاء ترتيب الحروف على النحو الآتى :
ع . ح . هـ . خ . غ . ق . ك . ج . ش . ض . ص . س ، ز . ط . د . ت . ظ . ذ . ث . ر . ل . ن . ف . ب . م . و . همزة . ى .

وأشكل الأمر على الأزهرى فى تهذيبه ، فزعم أن السر فى بدء الكتاب بحرف العين [أن مؤلفه وجد مخرج الكلام كله من الحلق فصير أولاها بالابتداء أدخلها فى الحلق ، ووجد « العين » أقصاها فى الحلق ، ثم رتب على حسب المخارج الأرفع فالأرفع] ! ! .

ويبدو أن تعليل ابن كيسان للبدء بالعين أقرب إلى الصحة ، إذ يروى عنه قوله (سمعت من يذكر عن الخليل أنه قال : لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها

النقص والتغيير والحذف ، ولا بالألف لأنها لا تكون فى ابتداء الكلمة إلا زائدة أو مبدلة ، ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية لاصوت لها ، فنزلت إلى الحيز الثانى وفيه العين والحاء فوجدت العين أنصع الحرفين) .

وخصص المعجم لكل حرف كتابا ، فيبدأ بكتاب العين ، ثم كتاب الحاء ، ثم كتاب الهاء وهكذا على حسب الترتيب المخرجى الذى ذكرناه آنفا . ويقسم كلمات كل كتاب من هذه الكتب على حسب الصيغ الآتية :

(ا) المضعف الثلاثى والرباعى معاً ، أى يشرح معنى « عقّ » ثم يشرح معنى « العقعق » .

(ب) الثلاثى الصحيح .

(ح) الثلاثى المعتل مثل عاق ، وعظ ، عصا .

(د) اللفيف مثل عوى ، وعى .

(هـ) الرباعى مثل المسجد ، بعثر .

(و) الخماسى مثل الهيدقع .

ويراعى صاحب العين الحروف الأصلية للكلمة ، فكلمة « مفتاح » مثلا يبحث عنها فى الثلاثى الصحيح ، وكلمة « زعفران » يبحث عنها فى الرباعى .

كذلك مما يسترعى الانتباه فى ترتيب العين أن المؤلف لا يكتفى ببحث الكلمة ، بل يعرض فى نفس الموضع إلى الصور الممكن تكوينها من حروف هذه الكلمة ، ويشرح معنى كل صورة إذا كانت مستعملة فى اللغة ، أو ينص على أنها مهملة . فحين يتحدث عن فعل مثل « ضرب » يعرض أيضاً للفعل « ربض » ، ضبر (الفرس وثب) ، رضب (الرضاب رحيق الشفتين ، برض (الماء خرج قليلا) ، ثم ينص على أن « بضر » من المهمل لأنها لم ترد فى اللغة . فالصور الممكنة للثلاثى الصحيح ست صور ، يعرض المؤلف لشرح المستعمل منها فى موضع واحد من معجمه ، دون ربط بينها إلا من الناحية

الصوتية . فلا يحاول مثلا أن يفسرها على نحو ماقام به ابن جنى فى الخصائص وسماه بالاشتقاق الكبير زاعما أن هناك صلة دلالية بين هذه الصور[1] .

ويشتمل الكتاب الأول من هذا المعجم على كل الكلمات التى تتضمن حرف العين أيا كان موضعها من الكلمة ، ويشتمل الكتاب الثانى أى كتاب الحاء على كل الكلمات التى تتضمن « حاء » أيا كان موضعها بعد أن نخرج منها مايتضمن حرف العين فقد سبق ذكرها فى الكتاب الأول ، ويشتمل الكتاب الثالث أى كتاب الهاء على كل الكلمات التى تتضمن حرف الهاء أيا كان موضعه بعد أن نستبعد منها ما يتضمن عينا أو حاء ، مثل « العهن » ، الحـيه (زجر للضأن) ، الحـيْه (زجر للحمار) . والكتاب الرابع المخصص للخاء لايشمل الكلمات التى فيها عين أوحاء أوهاء ، فليس فيه أمثال خنع ، أو خلع .

وهكذا نرى أن كتب المعجم تتدرج فى عدد الكلمات ، ويقل تضخمها كتاباً بعد الآخر ، فلا نكاد نصل إلى كتاب « الميم » حتى نجده يشتمل على عدد قليل جدا من الكلمات .

أما طريقة الكشف فى معجم كالعين فهى النظر أولا إلى ما اشتملت عليه الكلمة من حروف ، فإن كان بينها « عين » أيا كان ترتيبها من الكلمة رأينا مثل هذه الكلمة ترد فى الكتاب الأول المسمى بكتاب العين ، فإن لم يكن بها « عين » واشتملت على « حاء » أيا كان موضعها من الكلمة كانت فى الكتاب الثانى المسمى بكتاب الحاء . ولهذا يجب دائما أن نتذكر الترتيب المخرجى للحروف ، باحثين فى كل كلمة عن أقصى حرف فى المخرج ، وذلك بأن نرتب حروف الكلمة على حسب هذه المخارج . وعلى هذا فالمفروض إذن أن تكون أول كلمة فى المعجم هى [عحّ أو عهّ] ولكنهما لم يردا فى اللغة

---

(١) أنظر « من أسرار اللغة » ص ٧٤

أو الاستعمال . وأول حرف وقع مع « العين » وكون معها دلالة من دلالات اللغة هو « القاف » . ولذا نرى أن الفعل « عقّ » هو أول كلمة فى معجم العين ، هو ومقلوبه « قعّ » ، ثم العين مع الكاف « عكّ » ومقلوبها « كعّ » ، ثم العين مع الجيم « عجّ » ومقلوبها « جعّ » ، وهكذا حتى ينتهى الكتاب الأول ، مراعين دائماً البدء بالمضعف ثلاثياً أو رباعيا ، ثم الثلاثى الصحيح ، ثم المعتل ، ثم اللفيف ، ثم الرباعى ، ثم الخماسى .

هذا هو ترتيب « كتاب العين » ، فهل نلحظ له أثراً أو صدى فى ترتيب معجم الجمهرة أول معاجم القرن الرابع الهجرى ؟ .

معاجم القرن الرابع :

(١) الجمهرة لابن دريد : ويعلل المؤلف لتسمية معجمه بالجمهرة بقوله فى المقدمة : — (وألغينا المستنكر الوحشى ، واستعملنا المعروف وسميناه كتاب الجمهرة ، لأنا اخترنا له الجمهور من كلام العرب) ، ثم يذكر ابن دريد فى المقدمة أن ترتيب كتاب العين على حسب المخارج أمر شاق على الباحث المبتدىء ، وأنه من أجل هذا آثر ترتيب الحروف على حسب الترتيب الشائع المألوف ا ب ت ث ج ح ..الخ فيقول : (وأجريناه على تأليف الحروف المعجمة إذ كانت بالقلوب أعلق ، وفى الأسماع أنفذ ، وعلم العامة بها كعلم الخاصة) .

ويعد معجم الجمهرة من المعاجم التى صادفت القبول والاحترام من معظم العلماء . ومع هذا فلم يسلم من الطعن والتجريح ، فيقول عنه ابن جنى : — [وأما كتاب الجمهرة ففيه من اضطراب التصنيف ، وفساد التصريف ما أعذر واضعه لبعده عن معرفة هذا الأمر (. ويقول الأزهرى : [وممن ألف فى عصرنا الكتب ، فوسم بافتعال العربية ، وتوليد الألفاظ التى ليس لها أصول ، وإدخال ما ليس من كلام العرب فى كلامهم أبو بكر بن دريد).

ولعل أشد الثوار على الجمهرة هو « نفطويه » فقد ثارت بينه وبين ابن دريد مهاجاة شعرية فيقول ابن دريد يشير إلى نفطويه :

أحرقه الله بنصف اسمه وصير الباقي صراخا عليه

ويقول نفطويه :

ابن دريد بقره وفيه عي وشره
ويدعي من حمقه وضع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين إلا أنه قد غيره

ويشبه نظام الجمهرة ترتيب معجم العين فى بعض النواحى . فابن دريد يقسم الكلمات إلى المضعف الثنائى مثل [بتّ ، تبّ] ، وغيرهما مما يسميه الصرفيون بالمضعف الثلاثى ، ثم المضعف الرباعى مثل [بسبس ، زلزل] ، ثم الأفعال الثلاثية الصحيحة وما يشتق منها ، ثم الأفعال الثلاثية المعتلة ، ثم الرباعى ، ثم الخماسى . وهو فى تقسيمه هذا يسلك مسلك صاحب معجم العين ، غير أن صاحب الجمهرة يعقد هذا التقسيم بإقحام بعض الأقسام الفرعية فى ثنايا هذا التقسيم . فبعد أن ينتهى من بحث الكلمات التى من المضعف الثلاثى والرباعى نراه يذكر فصلا للكلمات التى تشتمل على الهمزة وما يتكرر معها ، وبعد الأفعال الثلاثية الصحيحة يعرض لبعض الأسماء التى لامها وعينها من نوع واحد مثل « التبب والحبب » ، والأسماء الجامدة التى عينها حرف علة مثل « باب » . ولا تكاد تتضح لنا الحكمة فى مثل هذه الأقسام الفرعية ، واختصاصها بفصول مستقلة .

كذلك يتبع ابن دريد طريقة معجم العين فى بحث الصور المختلفة للكلمة فى موضع واحد ، فحين يعرض لكلمة « بعث » يتكلم بعدها عن كلمة « عبث »

وهـكذا . وتلك هى الطريقة التى التزمها صاحب العين ، والتى تسمى أحياناً بمقلوبات الـكلمات .

أما وجوه الاختلاف بين ترتيب الجمهرة وترتيب العين فتتلخص فى أن صاحب الجمهرة بدأ حديثه عن كل كلمات اللغة التى وردت من المضعف الثلاثى والرباعى ، وقسمها أو رتبها على حسب الترتيب الهجائى المألوف . فيخصص باباً للتى تشتمل على « باء » أيا كان موضعها من الـكلمة ، ثم آخر للتى تشتمل على « تاء » وليس فيها « باء » ثم التى تشتمل على « ثاء » وليس فيها « باء أو تاء » ... وهكذا حتى ينتهى من تلك الـكلمات المضعفة أو كما يسميها الثنائية . وهو بهذا يتجنب تـكرار الـكلمات فى أكثر من موضع من مواضع المعجم ، غير أنه لم يسلم من هذا التـكرار فى بعض الأحيان . فحين تحدث مثلا فى باب الباء عن الـكلمة التى أولها باء وثانيها حاء وثالثها واو ، وهى «حبا الصبى يحبو » شرح معناها فى الأفعال الثلاثيـة الصحيحـة ، ثم عاد وشرح معناها فى الثلاثى المعتل .

ونظام الجمهرة بسيط فى أساسه ، غير أن الفروع التى أقحمها ابن دريد فى ثنايا التقسيم جعل النظام معقداً أشد التعقيد ، وأصبح من العسير على المبتدىء الـكشف فى مثل هذا المعجم ، مما حمل المستشرق « كرنـكو » على أن يضع له فهرسا مفصلا بلغ من ضخامته أن كاد يصل إلى حجم المعجم الأصلى .

٢ — ديوان الأدب لأبى إبراهيم الفارابى ، وهو غير الفارابى الفيلسوف . توفى سنة ٣٥٠ ﻫ على أرجح الآراء ، ولا يزال معجمه مخطوطا .

وقد قسم المعجم على حسب الصحة أو الاعتلال فى الـكلمات فجعله مـكوناً من ستة كتب هى :

(ا) كتاب السالم (ب) كتاب المضعف (حـ) كتاب المثال (ء) كتاب الأجوف ، وسماه ذوات الثلاثة (هـ) كتاب الناقص (وسماه ذوات الأربعة) (و) كتاب المهموز .

ثم جعل كل كتاب من هذه الكتب الستة شطرين : الشطر الأول للأسماء والشطر الثانى للأفعال .

أما ترتيب الكلمات فى كل شطر من هذين الشطرين فجاء على حسب التجرد أو الزيادة فى الكلمات ؛ أى بدأ بالمجرد ثم المزيد بحرف ثم المزيد بحرفين . وهكذا.

والكلمات فى كل كتاب من الكتب الستة وفى كل شطر من شطرى الكتاب مرتبة على الترتيب المألوف لحروف الهجاء ا ب ت ث ج ... إلخ ..

وقد راعى فى هذا ، الحرف الأصلى الأخير من الكلمة وجعله الباب ، ثم الحرف الأصلى الأول منها وجعله الفصل . فالفارابى هو فى الحقيقة أول من اتبع نظام الباب والفصل .

وعلى هذا فكلمة مثل « الدرع » تكون فى الكتاب الأول المسمى بالسالم وفى الشطر الأول من هذا الكتاب وهو شطر الأسماء ، وتكون فى باب العين فصل الدال مع الكلمات المجردة من الزوائد.

(٣) معجم البارع للقالى البغدادى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ . وهو مرتب على حسب الهجاء ، ولم يبق منه إلا نتف فى مكتبة باريس . ويقول المستشرق كرنكو[١] إن أغلب ماجاء فى هذا المعجم يرجع إلى الجمهرة وتصانيف أخرى ككتاب الألفاظ لابن السكيت .

(٤) تهذيب اللغة للأزهرى سنة ٣٧٠ هـ . ولا يزال مخطوطاً حتى الآن[٢]،

---

(١) جـ ٢ ص ١١٦ مجلة Islamica.
(٢) تم طبعه اخيراً .

ولدينا منه نسختان خطيتان تـكمل إحداهما الأخرى ، الأولى تشتمل على الحروف من العين إلى الذال ، وخطها جميل ولـكن كتاب الزاى فقد منها . أما النسخة الثانية فمقسمة إلى ١٨ جزءاً نقص منها الجزء الأول وهو المتضمن لمعظم الـكلمات المشتملة على حرف العين ، كما فقد منها الجزء السادس وهو المتضمن للهاء مع الطاء والدال والتاء والظاء والذال والثاء . كذلك فقد منه ما يتعلق بكتاب الذال وكتاب الثاء .

وترتيب هذا المعجم كترتيب معجم العين ، أى على حسب المخارج .

(٥) مختصر العين للزبيدى سنة ٣٧٩ : ولا يزال مخطوطـاً حتى الآن . ألفه صاحبه فى بلاد الأندلس ، وهو صورة ممسوخة للمعجم الأصلى ، ويكفى هذا أن نشير إلى ما جاء فى آخره من قوله : — [وعدة الـكلمات جميعها على ما أورده صاحب العين من مستعمل ومهمل ستة آلاف ألف وستمائة ألف وتسعة وتسعون ألفاً وأربعمائة ، المستعمل منها خمسة آلاف وستمائة وعشرون] . فمن المؤكد أن هذه الأرقام غير دقيقة ، لأن العملية الحسابية تنتج لنا ١٢ مليونا للمهمل والمستعمل ، أما قصره المستعمل على خمسة آلاف فغير معقول ولا مقبول ، لأن ألفاظ اللغـة العربية تزيد عن هذا كثيراً جداً .

(٦) المحيط للصاحب بن عباد المتوفى سنـة ٣٨٥ هـ ، وهو معجم ضخم فى سبعة مجلدات ، أكثر فيها المؤلف من ذكر الألفاظ ، وقلل من الشواهد . ويبدو أنه كان يهدف إلى حشد أكبر عـدد ممـكن من الألفاظ . والمعجم مرتب على حسب حروف الهجاء . ويوجد الجزء الثالث من هذا المعجم فى دار الـكتب .

(٧) الصحاح للجوهرى المتوفى سنة ٣٩٣ هـ :

لم يكد ينتهى القرن الرابع الهجرى حتى توج بمعجم له يسبق له نظير فى ترتيبه وتبويبه وهو الصحاح [بالكسر جمع صحيح، أو بالفتح صفة بمعنى صحيح مثل برىء وبراء] . فهذا المعجم مع مراعاته للحروف الأصلية من كل كلمة ، ينقسم إلى أبواب ، لكل حرف من حروف الهجاء باب . والحرف الأخير من الكلمة هو الباب . فالكلمات التى تنتهى أصولها بالهمزة يبدأ بها المعجم وتسمى باب الهمزة ، ثم التى تنتهى أصولها بالباء وتسمى باب الباء . . . وهكذا .

وينقسم الباب إلى فصول على حسب الحرف الأول من أصول الكلمات . وعدد أبواب المعجم كعدد حروف الهجاء أى ثمانية وعشرون باباً . وقد كان المتوقع أن يكون عدد الفصول فى كل باب ثمانية وعشرين أيضاً ، ولكن ما ورد فعلا من الكلمات المستعملة فى اللغة لا يتضمن كل هذه الفصول فى كل باب ، ولهذا اختلف عدد الفصول فى الأبواب المختلفة ، فمن الأبواب ما يشتمل على ٢٨ فصلا ، ومنها ما لا تكاد تجاوز الفصول فيه أصابع اليدين عداً كباب الظاء . ويرجع ذلك إلى اختلاف نسبة شيوع الحروف فى كلمات اللغة . فللبحث عن كلمة مثل « كتب » ينظر فى باب الباء فصل الكاف . أما فى مثل « استفهم » فالحروف الأصلية فيها هى « فهم »، وعلى هذا فيبحث عنها فى باب الميم فصل الفاء .

وقد لقى هذا المعجم منذ تأليفه إعجاباً به ، وإقبالا عليه من جمهور العلماء . ويعدّ فى الحقيقة أكمل ما وصل إليه المعجم العربى القديم من نضوج فى العرض والترتيب والتنظيم والتحقيق . ولا نكاد نرى أحداً ممن ألفوا المعاجم بعده يضيف شيئاً جديداً على هذا التنظيم ، وكل الذى قاموا به هو إضافة كلمات

جديدة لم ترد فى هذا المعجم . ويعتبر الصحاح بين المعاجم كصحيح البخارى بين كتب الأحاديث .

ومع هذا أو رغم كل هذا لم يسلم المعجم من الطعن والتجريح . فيقول « التبريزى » بعد أن يعدد حسنات المعجم : [إنه مع ذلك فيه تصحيف لا يشك فى أنه من المصنف لا من الناسخ] !!

ويقول عنه ياقوت فى معجم البلدان : [هذا مع تصحيف فيه فى عدة مواضع تتبعها عليه المحققون ، وقيل إن سببه أنه لما صنفه سمع عليه إلى باب الضاد المعجمة ، وعرض له وسوسة فألقى بنفسه من سطح فمات] !! ويشير ياقوت إلى أن الذى أكمل المعجم هو أحد الوراقين ، ولهذا اشتمل على التصحيف ! !.

وظل هذا المعجم نحو أربعة قرون بعد تأليفه هدفا لطعن بعض العلماء ممن ألفوا المعاجم أو تدارسوها .

فابن برى المتوفى سنة ٥٨٢ هـ ألف كتابا سماه [التنبيه والإيضاح عما وقع من الوهم فى كتاب الصحاح] .

وألف الصاغانى المتوفى سنة ٦٦٠ هـ [التكملة والذيل لكتاب صحاح اللغة] فى ست مجلدات استدرك فيها مافات الجوهرى من كلمات ، ولا يزال مخطوطا حتى الآن [١] .

وألف الصفدى المتوفى سنة ٧٥٤ كتاب (نفوذ السهم فيما وقع للجوهرى من الوهم) .

ويصف ابن منظور [٢] صاحب لسان العرب فى مقدمة معجمه معجم الصحاح بقوله : (غير أنه فى جو اللغة كالذرة ، وفى بحرها كالقطرة ، وإن كان فى نحرها كالدرة) !

---

(١) تشرع الآن بعض الهيئات العلمية فى طبعه بالقاهرة .

(٢) المتوفى سنة ٧١١ هـ .

وقد بلغ التجريح مداه على يدى الفيروزبادى سنة ٨١٦ هـ . حين يشير إلى معجم الصحاح وصاحبه فى عبارات قاسية مثل « تصحيف فاضح، وتحريف شنيع، كلام باطل مردود ، تصحيف قبيح » !!

(٨) المجمل لابن فارس سنة ٣٩٥ هـ :

وقد اقتصر فيه صاحبه على الألفاظ الهامة المستعملة التى أخذ معظمها عن السماع ، كما أخذ عمن تقدمه . وهو مرتب على حسب حروف الهجاء ، ولا تزال منه عدة نسخ مخطوطة فى مكاتب العالم ، ولكنه لم تتح له الشهرة التى أتيحت للصحاح .

أشهر المعاجم بعد القرن الرابع

كان القرن الخامس الهجرى أقل حظاً فى تأليف المعاجم ، فلا نعرف من معاجمه سوى اثنين ، أحدهما ضاع واندثر ولا يروى لنا إلا اسمه وهو « معجم الموعب » للتيانى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ . وتشير إليه كتب اللغة وتصفه بأن مؤلفه قد جمع فيه الصحيح مما حوى معجم العين ومعجم الجمهرة .

المعجم الثانى هو « المحكم » لابن سيده الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ صاحب المخصص . وتوجد منه نسخة خطية فى المتحف البريطانى ، وفى دار الكتب أجزاء منه لا تكمل نسخة . ويقوم بعض العلماء بتحقيقه ونشره الآن .

ويبدو أن « ابن سيده » قد ألف معجمه « المحكم » فى أوائل القرن الخامس ، وقبل أن تصل إليه شهرة الجوهرى ومعجمه الصحاح ، فلم يتأثر به ، بل صنف معجمه على الترتيب المخرجى كمعجم العين ، وهو الترتيب الذى انصرف معظم المؤلفين عنه فى أواخر القرن الرابع على يدى الجوهرى . كذلك لم ينهج ابن سيده فى معجمه « المحكم » نهج علماء العراق فى أواخر القرن الرابع من

الاقتصار على الصحيح من الألفاظ . ولذا جاء معجمه أضخم من معجم الجوهرى وأشمل وأعم منه .

وظل الاتجاه بين المؤلفين والدارسين للمعاجم على النحو الذى سلكه الجوهرى من الاقتصار على صحيح الألفاظ قرابة قرنين من الزمان . ففى القرن السادس الهجرى وضع الزمخشرى سنة ٥٣٨ هـ معجمه المسمى « أساس البلاغة » وهو معجم صغير نسبياً ، عنى فيه صاحبه بالناحية التاريخية لدلالة الألفاظ ، فيسمى الدلالة الأصلية للكلمة بالحقيقة ، والدلالة المتطورة عنها بالمجاز ، ولكنه على علمه وفضله لم تتضح له قوانين التطور فى الدلالات كما أشرنا إلى هذا آنفاً(١) .

ثم عادت المعاجم إلى الشمول والتضخم على يدى الصاغانى سنة ٦٥٥ هـ حين ألف معجمه المسمى « بالعباب » . وليس بين أيدينا منه سوى الجزء الأول فى دار الكتب ، وأربعة أجزاء أخرى فى « أيا صوفيا » . وقد وصفته الروايات القديمة بأنه مكون من عشرين جزءاً ، وأن مؤلفه جمعه من كل كتب اللغة المشهورة . ويبدو اتجاه الصاغانى فى تضخيم المعاجم من مؤلفه الذى سماه « التذييل والتكملة » لمعجم الصحاح ، فهو فى ستة مجلدات ، وتقوم بطبعه الآن بعض الهيئات العلمية .

غير أن مؤلفى المعاجم رغم ميلهم إلى تضخيمها ، قد ظلوا بعد هذا يتبعون طريقة الجوهرى فى ترتيب معجمه الصحاح من الباب والفصل . فابن منظور المصرى يضع معجمه المشهور لنا وهو لسان العرب فى عشرين مجلداً على طريقة الباب والفصل . ويبدو أن صاحب اللسان قد استغل كل ما جاء فى تهذيب اللغة للأزهرى ، والمحكم لابن سيده .

فقد نقل ابن منظور كل مواد هذين المعجمين ، وقنع فى معظم الأحيان

---

(١) أنظر فى هذا الكتاب فصل الحقيقة والمجاز .

بنفس العبارات التي وردت في التهذيب والمحكم لشرح الألفاظ . فليس لابن منظور إلا فضل الجمع والاستيعاب .

وينتهي تأليف المعاجم العربية الضخمة بذلك المعجم المشهور المتداول بيننا وهو قاموس المحيط للفيروزبادي المتوفى سنة ٨١٦ هـ . وقد وجه الفيروزبادي كل عنايته إلى استيعاب أكبر عدد من ألفاظ اللغة ، وجمعها في أقل عدد من المجلدات، ناعياً على الجوهري اقتصاره على الصحيح من ألفاظ اللغة . وكان يزعم أن الجوهري قد فاته ثلثا اللغة أو أكثر ! ! ومع هذا فيقول السيوطي في المزهر : [ومع كثرة ما في القاموس من الجمع للنوادر والشوارد فقد فاته أشياء ظفرت بها في أثناء مطالعتي لكتب اللغة] .

وتصدى للفيروزبادي من المؤلفين كثيرون ، يستدركون عليه ما فاته ، ويجرحونه ويدافعون عن الجوهري ، أمثال ابن الياس داود زاده سنة ١٠١٧ هـ في كتاب [الدر اللقيط في أغلاط المحيط] ، وكذلك أبو زيد عبد الرحمن عبد العزيز مصنف كتاب [الوشاح وتثقيف الرماح في رد توهيم الصحاح] ، وأحمد فارس الشدياق في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي في كتابه (الجاسوس على القاموس)، وأحمد تيمور في كتابه (تصحيح القاموس المحيط)، والمستشرق « لين LANE» في مقدمة قاموسه العربي الانجليزي إذ يقول : « إن القاموس المحيط لا يعدو أن يكون مجموعة كلمات أخذت من معاجم أو كتب سابقة ، ولا سيما من المحكم والعباب » . ثم يقول : « وقد تبين لي أن كثيراً من النقد الذي وجهه الفيروزبادي إلى الجوهري قد أخذه عن حواشي ابن بري والبسطي على الصحاح ، أو عن تكملة الصاغاني » ! !

ومع هذا فقد صادف القاموس عناية من الدارسين في عصرنا الحديث بلغت في بعض الأحيان حد التقديس . وقد شرحه وعلق عليه السيد مرتضى الزبيدي سنه ١٢٠٥ هـ في عشر مجلدات ضخمة سماها «تاج العروس» . ويبدو أن

صاحب « تاج العروس » قد استعان بلسان العرب فى معظم المواضع ، إذ يلحظ الدارس شبها قوياً بين شروح كل من المعجمين .

دلالة الألفاظ فى المعاجم :

عمد جامعو الألفاظ العربية فى بادىء الأمر إلى النصوص التى وردت لهم من جاهلية أو إسلامية ، واستخرجوا منها تلك الألفاظ ، ثم شرحوها ، وفسروها ، فى ذيل النص أو بين ثناياه . ولم يكن لهم من هدف سوى خدمة النصوص الأدبية التى رويت لهم واعتزوا بها ، وتأدبوا بأدبها ، ثم كان أن تضخمت تلك النصوص ، وأصبحت من الكثرة بحيث يصعب جمعها فى كتاب واحد أو عدة كتب . وهنا خطر فى أذهانهم القيام بتصنيف مفتاح لتلك النصوص الكثيرة جداً ، واكتفوا بحصر الألفاظ ، وشرح كل منها مع الإشارة فى القليل من الأحيان إلى شاهد أدبى يسوقونه لتوضيح معنى اللفظ . وهكذا نشأت المعاجم وتطورت على النحو الذى رأيناه آنفاً . ووجد جامعو الألفاظ أنهم أمام بحر خضم من الألفاظ العربية التى تحتاج إلى تنظيم وترتيب ، فقنعوا بحصرها أو مسحها على حد تعبير المهندسين ، مع القليل من الشواهد أو النصوص الأدبية حتى يمكن أن يضمها جميعاً كتاب واحد من عدة مجلدات . بل إن منهم من اكتفى بالألفاظ دون شواهدها حرصاً منه على حشد أكبر عدد من تلك الألفاظ فى معجمه ، كما فعل الفيروزبادى فى معجمه القاموس المحيط .

ونقل أصحاب المعاجم بعضهم عن بعض ، وتأثر بعضهم ببعض ، ولم يكن لديهم من الوسائل ما ييسر عملية الإحصاء والحصر ، كما قصرت همم المتأخرين منهم عن المضى بالتطور المعجمى إلى مداه ، فوقفوا بمعاجمهم عند طريقة الصحاح فى الترتيب والتصنيف . فليس منهم من اتجه إلى البحث فى تاريخ الألفاظ

وتطورها جيلا بعد جيل ، أو القيام بما قام به المحدثون فى المعاجم من التعرض إلى الناحية التاريخية أو الاشتقاقية للفظ . وليس منهم من دلنا على الناحية البلاغية للألفاظ ، أو وضح لنا مجال اللفظ ومحيط استعماله .

من أجل هذا وغيره من عيوب فكر بعض المحدثين من المستشرقين فى وضع معجم عربى حديث تقتبس ألفاظه من النصوص ، وفيه تراعى كل الدراسات الحديثة التى يلحظها الدارسون فى المعاجم الأوربية .

وأشهر من دعوا إلى هذا المعجم العربى الحديث من المستشرقين بروفسر « فيشر » فى تقرير تقدم به إلى المجمع اللغوى ، بين فيه عيوب المعاجم القديمة وما يؤخذ عليها . ويعنينا هنا من هذا التقرير ما قرره « فيشر » بصدد البحث الدلالى للألفاظ . ففى رأيه أن المعاجم القديمة قد اضطربت فى شرح مدلولات الألفاظ ، واتصفت بعدم الدقة فى هذا الشرح ، كما اختلف أصحاب تلك المعاجم فى مدلولات كثير من الألفاظ ، مما أدى إلى سوء الفهم لكثير من النصوص . كذلك يأخذ « فيشر » على معاجمنا القديمة أنها خلت من البحث فى تاريخ الكلمة وتطور الدلالة فيها ، وتسجيل أول استعمال لها ، وآخر من استعملها من الشعراء أو الكتاب ، حتى أواخر القرن الثالث الهجرى حيث انتهت عصور الاحتجاج . فلا بد من الدقة فى تحديد الدلالات ، والتعرض للدلالات المتعددة للكلمة مرتبة ترتيباً تاريخياً وعقلياً على حسب تفرعها بعضها من بعض . فالدلالة العامة تتطور عادة إلى دلالة خاصة ، والدلالة الحسية تتطور عادة إلى دلالة مجردة .

وفى الحق أن كثيراً جداً من الألفاظ فى المعاجم قد أهمل شرحها إهمالا شنيعاً ، فجاءت دلالاتها غامضة أو مبتورة ، وبعدت بهذا عن الدقة التى هى من أهم صفات المعجم الجيد . فمن مصنفى المعاجم من كان يكتفى برمز « م » أمام الكلمة مشيراً بهذا إلى أن دلالتها معروفة ، فى حين أنها مجهولة لنا الآن جهلا

تاماً . ومنهم من قنع بوصف الكلمة بعبارة تقليدية غامضة كقوله « نبات فى الصحراء » أو قوله « دويبة » ، أو « طائر » ، أو « موضع » ، أو نحو ذلك من شروح مختصرة مبتورة لا تكاد تفيد شيئاً .

ونحن حين نستعرض جهود اللاحقين من مؤلفى المعاجم نرى أنها كانت تؤسس على جهود من سبقوهم ، ونلحظ أن ما زادوه من مواد أو كلمات إنما عثروا عليه عن طريق المصادفة فى نصوص شاردة ، أو سمعوه مصادفة من بعض الأعراب . ولذلك تكاد تتفق أو تتحد المعاجم فى شروحها وتفسيرها لمعانى الألفاظ . وهنا نسوق مثلا لذلك الاتفاق أو الاتحاد لم نتعمد تخيره ، وهو كلمة « الرعاف » ، فقد جاء فى شأنها بمعاجمنا القديمة النصوص التالية التى رتبناها ترتيباً تاريخياً :

١ — الجمهرة : رعف الرجل يرَعف ، يرُعف رعفاً ، والاسم الرعاف . والرعاف الدم بعينه . وأصل الرعف التقدم من قولهم فرس راعف أى متقدم ، فكأن الرعاف دم سبق فتقدم ! !

٢ — تهذيب اللغة للأزهرى :

..... وقيل للدم الذى يخرج من الأنف « رعاف » لسبقه علم الراعف ..... وقال الليث الراعف أنف الجبل وجمعه الرواعف ، والراعف طرف الأرنبة . أبو عبيد والأصمعى رعف (كمنع ونصر) ..... أبو حاتم عن الأصمعى رعف (كمنع ونصر) ولم يعرف رُعف ولا رِعف فى فعل الرعاف .

٣ — الصحاح للجوهرى :

الرعاف الدم يخرج من الأنف ، وقد رعف الرجل يرعف ويرعف ورُعف بالضم لغة ضعيفة .... والراعف الفرس الذى يتقدم الخيل . والراعف طرف الأرنبة وأنف الجبل .

٤ — لسان العرب لابن منظور

الرعف السبق .. ورعفه يرعفه رعفاً سبقه .. والرعاف دم يسبق من الأنف. رعف يرعُف ويرعف رعفاً ورعافا . ورُعف ورعف ، قال الأزهرى ولم يعرف رعف ولا رعف فى فعل الرعاف . قال الجوهرى ورُعف بالضم لغة فيه ضعيفة .. والراعف الفرس الذى يتقدم الخيل ، والراعف طرف الأرنبة .. والراعف أنف الجبـــل .

٥ — القاموس المحيط للفيروزبادى .

رعف كنصر ومنع وكرم وعنى وسمع خرج من أنفه الدم رعفاً ورعافاً كغراب . والرعاف أيضاً الدم بعينه . ورعف الفرس كمنع ونصر سبق والراعف طرف الأرنبة وأنف الجبل والفرس يتقدم الخيل ! !

فانظر إلى هذه النصوص تجد وجه الشبه بينها واضحاً جلياً ، فالرعاف فى رأيهم جميعا الدم يخرج من الأنف ، ولم يعبر أحدهم عنه بكلمة مثل « يسيل من الأنف » ، والراعف عندهم جميعاً الفرس يتقدم الخيل ، ولم يقل أحدهم يسبقها مثلا ! ! وهو « أنف الجبل » ولم يصفه أحدهم بأنه الجزء البارز فى مقدمة الجبل مثلا ! ! وهو طرف الأرنبة عندهم جميعاً ! !

وهكذا نرى أن الرجوع إلى المعاجم القديمة لا يجدى كثيراً فى بحث دلالة الألفاظ وتطور الدلالة . ومن الواجب على الباحث فى دلالة اللفظ العربى الرجوع إلى النصوص القديمة فى الأدب العربى ، والاهتداء بهديها ، ودراسة الدلالة على ضوئها . وقد قمنا بجولة فى ألفاظ الشعر الجاهلى وجمعنا قدراً كبيراً منها مقتبسة من نصوصها ، ثم كان لنا فيها رأى بعد تبويبها فى صورة معجم صغير . وسنعرض لهذا فى فرصة قادمة إن شاء الله .

تم بحمد الله

مراجع ورد ذكرها فى الكتاب

أفرنجية :

1— Carnap, Rudolf :
The Logical Syntax of Language.

2— Bréal, Michel :
Essai de Semantique.

3— Schlauch, Margaret :
The Gift of Tongues.

4— I. A. Richards. &, C.K. Odgen :
The Meaning of meaning.

5— P.V. Bridgeman :
The intelligent individual and society.

6— Arnold, Thurman :
The folklore of Capitalism.

7— Stuart Chase :
Tyranny of words.

8— Korzybski, Alfred :
Science and Sanity.

9— Otto Jespersen :
Mankind, Nation and Individual, from a linguistic point of View.

10— Otto Jespersen :
Language, its Nature, development and Origin.

11— Mario Pei :
The Story of Language

12— Bloomfield, Leonard :
Language.

13— J. Vendryes :
Language, a linguistic Introduction to history.

14— M.M. Lewis :
(1) Infant Speech.
(2) Language in Society.

15 – E. Sapir :

Language.

16 -- R. A. Wilson :

The Miraculous birth of language

17 – A. Werner :

Language – families of Africa.

18 – S. R. Driver

An introduction of the literature of the Old Testament.

19 – Gesenius :

Hebrew Grammar.

20 - Ch. Bally :

Le langage et la Vie.

21 — W.H. Bleek :

Comparative Grammar of South African Languages.

22 – J.B. Greenough and G. L. Kittredge :

Words and their ways in English Speech.

23 — F. de Saussure :

Cours de Linguistique Génerale

24 – H. Sweet :

The History of Language.

25 – W.D. Whitney :

Life and Growth of Language.

26 — A. Darmesteter :

La vie des mots.

27 — H. Fletcher :

Speech and hearing.

28 — G.H. Mc-Knight :

English words and their background.

29 – Ribot :

L'evolutions des idées Générales.

ثانيا : عربية :

١ — أسرار البلاغة : لعبد القاهر الجرجانى
٢ — إعجاز القرآن : للباقلانى
٣ — أدب الكاتب : لابن قتيبة
٤ — إصلاح المنطق : لابن السكيت
٥ — الأصوات اللغوية : للدكتور إبراهيم أنيس
٦ — الإتباع والمزاوجة : لابن فارس
٧ — الألفاظ الكتابية : لعبد الرحمن الهمذانى
٨ — الاشتقاق : لابن دريد
٩ — أصول النقد الأدبى : لأحمد الشايب
١٠ — الأشباه والنظائر : لأبى البركات بن الأنبارى
١١ — الألفاظ المترادفة : لأبى الحسن الرمانى
١٢ — البيان العربى : للدكتور بدوى طبانه
١٣ — بدائع القرآن : لابن أبى الإصبع
١٤ — التعريفات : لعلى بن محمد الجرجانى
١٥ — التربية عند العرب : خليل طوطح
١٦ — تيارات أدبية : للدكتور إبراهيم سلامة
١٧ — تأويل مشكل القرآن : لابن قتيبة
١٨ — تهذيب الألفاظ : لابن السكيت
١٩ — تلخيص البيان فى مجازات القرآن : للشريف الرياضى
٢٠ — تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية : القس طوبيا العنيسى

٢١ ـ الجبر والمقابلة : للخوارزمى ، نشر وتحقيق الدكتورين على مشرفة ، ومحمد مرسى أحمد
٢٢ ـ جواهر الألفاظ : لقدامة بن جعفر
٢٣ ـ الخصائص : لابن جنى
٢٤ ـ دائرة المعارف الإسلامية .
٢٥ ـ زهر الآداب : للحصرى
٢٦ ـ شفاء الغليل : للخفاجى
٢٧ ـ الشعر والشعراء : لابن قتيبة
٢٨ ـ شروح التلخيص .
٢٩ ـ سور البديع : لعلى الجندى
٣٠ ـ « الصاحبي » فى فقه اللغة : لأحمد بن فارس
٣١ ـ صبح الأعشى : للقلقشندى
٣٢ ـ « العربية » : يوهان فك ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار
٣٣ ـ العرب والأمبراطورية العربية : لبروكلمان ترجمة الدكتور نبيه فارس ومنير البعلبكى
٣٤ ـ العمدة : لابن رشيق
٣٥ ـ علم اللغة : للدكتور على عبد الواحد وافى
٣٦ ـ الغريب المصنف : لأبى عبيد
٣٧ ـ فقه اللغة : للثعالبى
٣٨ ـ الفروق اللغوية : لأبى هلال العسكرى
٣٩ ـ فتوح البلدان : للبلاذرى
٤٠ ـ القلب والإبدال : لابن السكيت
٤١ ـ كتاب الجيم : لأبى عمرو الشيبانى

٤٢ ـ كتاب النوادر : لأبى زيد الأنصارى
٤٣ ـ اللهجات العربية : للدكتور إبراهيم أنيس
٤٤ ـ المخصص : لابن سيده
٤٥ ـ المثل السائر : لابن الأثير
٤٦ ـ المختصر فى اللغة العربية الجنوبية القديمة :
للمستشرق جويدى
٤٧ ـ معجم البلدان : لياقوت
٤٨ ـ مقاييس اللغة : لابن فارس
٤٩ ـ من أسرار اللغة : للدكتور ابراهيم إأنيس
٥٠ ـ المزهر : للسيوطى
٥١ ـ المقابسات : لأبى حيان التوحيدى
٥٢ ـ موسيقى الشعر : للدكتور إبراهيم أنيس
٥٣ ـ المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية
: للأب مرمرجى الدومنكى
٥٤ ـ مجاز القرآن : لأبى عبيدة
٥٥ ـ الموشح : للمرزبانى
٥٦ ـ الموازنة بين الطائيين : للآمدى
٥٧ ـ المفضليات : للمفضل الضبى
٥٨ ـ مناهج البحث اللغوى : للدكتور تمام حسان
٥٩ ـ مبادىء اللغة : للإسكافى
٦٠ ـ المحكم فى أصول الكلمات العامية : لأحمد عيسى
٦١ ـ المرافعات فى أشهر القضايا : لمحمود عاصم
٦٢ ـ معاجم عربية قديمة مرتبة ترتيبا تاريخياً :

(١) كتاب العين (٢) الجمهرة (٣) ديوان الأدب للفارابى (٤) البارع للقالى البغدادى (٥) تهذيب اللغة للأزهرى (٦) مختصر العين للزبيدى (٧) المحيط للصاحب بن عباد (٨) الصحاح للجوهرى (٩) المجمل لابن فارس (١٠) المحكم لابن سيده (١١) أساس البلاغة للزمخشرى (١٢) العباب للصاغانى (١٣) لسان العرب لابن منظور (١٤) القاموس المحيط للفيروز بادى.

الفهرس

صفحـة

٣ — موسيقية الأدب العربى : اعتماد العرب على الأذن جعلها مرهفة وقادرة على التمييز بين الأصوات .

الشاعرية العربية بلغت بألفاظ اللغة أسمى درجات الموسيقية . أثر ازدهار الأدب فى ظل الأمية . الموسيقية أهم ما يتميز به أدب المكفوفين . وحدة القصيدة العربية فى موسيقاها . عناية نقاد العرب بكل بيت على حدة . عرض سريع لقضية اللفظ والمعنى . مظاهر الموسيقية فى شعر القدماء وخطبهم وأمثالهم .

الإتباع والمزاوجة وأمثلته فى كتاب ابن فارس .

٤ — أثر الأمية فى وصل الكلام :

الصورة السمعية للكلمة والصورة المكتوبة لها . قوة ترابط الكلمات لدى الأمى . الحركات الرابطة بين الكلمات فى بعض الحالات . أثر هذا فى نشأة الحركات الإعرابية . إسكان أواخر بعض الكلمات لا يخل بالوزن الشعرى . أمثلة هذا فى أربعة من أشهر البحور . الحركات الإعرابية ضرورة صوتية . أثر قانون الـ Vowel-harmony فى حركات الإعراب .

٥ — أثر الأمية فى أدلة الألفاظ : كثرة الترادف فى اللغة العربيـة . المشترك اللفظى وقلته نسبياً . موقف القرآن من المترادفات والمشترك اللفظى . أشهر كتب الترادف والاشتراك اللفظى . غموض الدلالة وميوعة حدودها فى كثير من الألفاظ العربية .

٦ — صراع علماء العربية مع دلالة الألفاظ :

كتاب أبى الحسن الرمانى (الألفاظ المترادفة) ، أمثلة منه تبين المغالاة والإسراف فى فكرة الترادف .

المطبعة الفنية الحديثة
٣٠ شارع الأصبغ الزيتون ت ٨٦٤٨٧٩

رقم الايداع ٧٦/٤٠٠٤
رقم الدولى ٨ — ٠٦٢ — ٢٦٦ — ٩٧٧